مشروع مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع بمبادرة وزارة الثقافة وبرعاية جلالة

الملكة رانيا العبدالله المعظمة (حفظها الله)

٢٠١٨

• آثار فلسطين

• كاثلين كينيون

• ترجمة:

• الناشر: وزارة الثقافة

شارع صبحي القطب

المتفرع من شارع وصفي التل

ص.ب ٦١٤٠ – عمان / الأردن

تلفون: (٥٦٩٦٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤)

فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email- info@culture.gov.jo

• الطباعة: مطبعة أروى هاتف ٠٤٨٩٢٣٤٠

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف (٠٧٩٩٦٧٧٥٦٩)

• رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢١٤٦/ ٧ / ٢٠١٨)

ردمك: (٩٧٨-٩٩٥٧-٩٤-٤٧٥-٩)

آثار فلسطين

كاثلين كينيون

تعريب محمود العابدي

مقدمة الكتاب

أ.د. سلطان المعاني

تضرب فلسطين: الأرض والإنسان جذورها في عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، فقد كان لها في كل مفصل من مفاصل التحولات الحضارية دور مهم ذو ملامح واضحة تحدد هوية المكان والإنسان، وقد ازدادت حمّى البحث والتنقيب والمسح الأثري الأجنبي في فلسطين مع تأسيس صندوق التنقيب الفلسطيني PEF عام ١٨٦٥م، والذي يهدف إلى تتبع تفسير الكتاب المقدس على الأرض الفلسطينية. إنّ قصة بناء الهيكل، واعتمادها أساساً للوجود التاريخي والديني لليهود في القدس، لا تقوم فقط على طرح حق الوجود اليهودي في الأرض التي وعدوا فيها، بل يتعدى الأمر إلى ما هو أخطر من ذلك، يتعداه إلى إنكار الوجود الفلسطيني في البلاد في الزمان والمكان. ولذلك فالسعي دؤوب ومحموم وجدي لبناء الهيكل مرة ثالثة، فقد فعلوها واستجدوا الملك الفارسي كورش لإعادة بناء هيكل سليمان المُدّعى، فسمح لهم بذلك، واستجدوا العالم في وعد بلفور للسماح لهم بإعادة البحث عن بقايا الهيكل الذي يرمز إلى حق وجودهم في القدس وعلى أرض فلسطين، وطمعاً في إعادة بنائه مرة ثالثة، وهذه طامّة، والطّامّة الأكبر أنها ستكون على أنقاض المسجد الأقصى وساحاته. وقد سعوا في سبيل ذلك إلى توظيف العاطفة الدينية، وعاطفة الاستجداء، والنفوذ في دوائر صنع القرار في أوروبا وأمريكا، وإنشاء المؤسسات والهيئات ذات

الميزانيات المالية الضخمة التي ستنفق بسخاء على إيجاد مكان الهيكل والتخطيط لإعادة بنائه. هو الحلم يراودهم على الدوام، وهو رمز وحدتهم الذي بدأت بفكرة موسى بن ميمون الطبيب اليهودي في البلاط الأندلسي الذي زار القدس عام ١٢٦٧م لإحياء فكرة بناء الهيكل، وانتظروا هذا الحلم إلى عام ١٩٦٧م بإتمام احتلال القدس الشرقية وبقية أرض فلسطين[1].

ويؤكد أسن في كتابه الذاكرة الحضارية أنه إذا كانت الشعيرة تستوجب التكرار، فإن النص يستوجب التفسير، والآثار جزء من الذاكرة الحضارية لليهود، فكان الهيكل في تأسيسه زمن داود وبنائه زمن سليمان، ثم تدميره، وإعادة بنائه أيام هيرود وتدميره مرة أخرى رأس هذه الذاكرة، وهذه الذاكرة التي لا شاهد لها اليوم، غيبت الشعيرة وتكرارها فانكب أصحابها على نصوص التوراة قراءة وتفسيراً وإعادة لتركيب الماضي وتمثيله حضارياً مدفوعين في استدعائه بدوافع دينية وتوقعات بالعثور على بقايا الهيكل وآمال بالعثور على ما يشير إلى وجوده على أرض الواقع تحقيقاً لأهدافهم في تأصيل هويتهم، وإعادة بناء هيكلهم الثالث على أنقاض المسجد الأقصى وساحات الحرم القدسي، فالماضي "يخضع في تشكيله للأطر الرابطة الخاصة بالعصر الحاضر الذي يتم استدعاؤه فيه، .... وهي التي ترسم ملامح هذا الماضي" (أسن، ١٥٤-١٥٥).

إن تركيب الماضي -حسب هالبفاكس- يكون "دائماً مصحوباً بتصورات خيالية مرتبطة بالمجموعة، وترسم لها صوراً عن بقائها وضمان استمرارها في الوجود"

(١) الهيكل في اللغة العبرية يعني بيت الإله، أسس له داود، وبناه سليمان، فوق جبل موريا، أي فوق هضبة الحرم القدسي حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة.
دمرت "مملكة يهوذا" وعاصمتها أورشليم ودمر الهيكل معها حوالي ٥٨٦ ق م، وتشير الروايات اليهودية أن البابليين قد سمحوا لهم بإعادة بناء الهيكل بعد رجوعهم من السبي، وكان ذلك سنة ٥٢١ ق م، إلى أن دمره تيطس الروماني مرة ثانية، وتم طرد اليهود من المدينة بعد تدميرها في عهد هادريان سنة ١٣٥ ق م، ولنعلم أنه لا وجود لهذا الهيكل إلا في كتب اليهود، وسفري الملوك الأول والثاني وسفري الأيام الأول والثاني، ولم يتفق اليهود على مكان واحد للهيكل، ومن أماكن وجود الهيكل المحتملة عند اليهود: مدينة نابلس، قرية بيتين شمال القدس، تل القاضي "تل دان"، ويهود يقولون إنه فوق جبل موريا حيث أقيم الحرم القدسي.

(أسن، ١٥٥). ولذلك فإن اختلاق تاريخ إسرائيل القديم، ما هي إلا تصورات خيالية أفرزتها تفسيرات الجماعة للتوراة وشروحاتها، فرسموا خرائطهم، ووضعوا نماذج الهيكل، تمسكاً ببقاء المجموعة، فباتوا ينتجون هذه الذاكرة على أرض الواقع، لإعادة الإنتاج الحضاري وفق خطاب المدرسة التوراتية، التي انتاب متحمسيها الهوس في تفسير النصوص وخلق الإيديولوجيا، ولهفة البحث عن تاريخهم ومعبدهم في باطن الأرض، وهم إذ يسعون إلى ذلك يمارسون بالإجماع الإنتاج الحضاري، ويصنعون اتساقه الداخلي، وفق متخيلهم وطموحهم بعيداً عن واقع حضوره التاريخي. إن "الذاكرة الحضارة لا تورث بيولوجياً، ولذا كان لزاماً الاحتفاظ بها على مر الأجيال صورة وأنماطاً حضارية، وهي مسألة تتعلق بفن تقوية الذاكرة الحضارية أي: بوسائل تخزين المعنى الحضاري، وتنشيط ونقل هذا المعنى إلى محيط التداول، والدور الوظيفي لهذا يكمن في ضمان استمرار المجموعة، والحفاظ على هويتها". (آسن ١١٥).

لقد واكب سكان فلسطين، على اختلاف أجناسهم، ومراحلهم الزمنية، كل التحولات البشرية، من فترة الصيد والالتقاط في العصور الحجرية، إلى عصور الكتابة ونشوء الحضارات، وتكوين الممالك والإمبراطوريات. وقد أسهمت الجغرافية الطبيعية المتمثلة في السهل الساحلي، وسلسلة جبال فلسطين من الشمال، وانحداراً صوب النقب في الجنوب، ووادي الأردن وسلسلة الجبال التي احتضنت ممالك جلعاد ومؤآب وآدوم، في لعب دور تاريخي وحضاري هام جعل من عبقرية المكان الفلسطيني هدفاً للشعوب والأمم والحضارات المختلفة التي مرت بالشرق الأدنى القديم. وحتى يتم الانتقاص من تعاقب بعض الحقب التاريخية على فلسطين، والإعلاء من شأن حقب أخرى، يركز خطاب الدراسات التوراتية على الزمان عائماً، ولكنه عندما يصل الى العصر البرونزي بأقسامه يساويه بالفترة الكنعانية، وعندما يصل الى العصر الحديدي يساويه بالفترة الإسرائيلية "تدل هذه الخطة على فهم تطوري

للزمان يسير بشكل واضح". وعندما يصل الى هاتين الفترتين يصل إلى التأكيد على علاقة الزمان والمكان، فنحن نصل إلى نقطة بداية التاريخ فقط عند ظهور إسرائيل والحدث التوراتي (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ١٠١). فالزمان المرتبط بالمكان عند التوراتيين هو ما قبل التاريخ والتاريخ الأول وهو تعميم مصطلحي "يسهم في إسكات ونفي التاريخ الفلسطيني، وهذا خطير جداً فالتاريخ في الأولى يعتمد على اللقى الأثرية والثانية على المادة المكتوبة (على الأسفار بالدرجة الأولى) (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ١٠٢)، تمهيداً لمشروع كتابة تاريخ إسرائيل فقط. وما فلسطين وفترات تاريخها إلا فترات تضل في مضمار إسرائيل وتاريخها بسبب طغيان الزمان التوراتي وانكار ما قبل التاريخ الفلسطينيى الذي بقي وفق الفهم التوراتي يجري في الجوار أيضاً (وايتلام، ١٩٩٩م، ١٠٤).

لقد سكن الإنسان الصياد فلسطين في العصر الحجري القديم، وكانت كهوف جبال الكرمل مثالاً واضحاً لطبيعة أنشطة هذا الإنسان وأدواته البدائية التي استخدمها لأغراض حياته المتعددة، وقد تشكلت عبر الفترات الزمنية المتعاقبة ثقافات محلية في مناطق مختلفة من فلسطين، مثل الناطوفية التي وجدت آثار أصحابها في جبال الكرمل. وقد عرفت فلسطين في المراحل الأولى من الاستيطان البشرى بدء صناعة التماثيل، ومنها تماثيل حيوانية، وأنثوية صغيرة تحمل دلالات دينية تكريسية. ويشير الكتاب في فصله الثالث إلى اعتبار فلسطين من المناطق التي تطورت فيها الحياة من أسلوب التنقل والترحال إلى حياة الهدوء والاستقرار؛ وقد بدت في هذه المرحلة ملامح الثقافة الغسولية والمجتمع المطري، وهي وافده وليست أصلية في فلسطين، ويعتقد أن أصحابها قد أتوا من الشرق أو من الشمال الشرقي، وأن أدواتهم التي استعملت في هذه الفترة لا تزال مجهولة بسبب قلة الحفر والتنقيب. ثم شهدت فلسطين عهد المدن الأول، كتلال مجدو وأريحا وبيسان وتل الفارعة، وقد أشارت المخلفات الأثرية إلى الأقوام الوافدة التي قدمت من الشمال والشرق.

لقد تطور نشوء المدن في فلسطين، والشرق الأدنى القديم عموماً، إلى بروزها نمطاً سياسياً واجتماعياً خلال العصر البرونزي القديم فنشأت ما تعرف بالممالك المدنية، وهو يتزامن مع ما يمتاز به الألف الثالث من ظهور أولى الإمبراطوريات العظيمة في العالم القديم، وببدء الحقبة التاريخية حيث أصبحت الوثائق الخطيّة تتّسم بما يجيء به علم الآثار. ونجد ملامح هذه الحقبة في أريحا وتل الفارعة وبيسان ومجدو.

ومع قدوم العموريين ضاعت ملامح العصر البرونزي في معطياته الحضارية الأثرية كالفخار شكله وطريقة صنعه وفي شكل الحياة وفي فن البناء وعادات الدفن، والأسلحة والهيئة الاجتماعية، وهدمت أسوار المدن، "وبهذا الدمار انتهت حياة المدينة لفترة تقدر بعدة مئات من السنين". وقد ظهر في العصر البرونزي الوسيط شعب آخر في المنطقة، وهم الهكسوس، وجاءت إشارات ظهورهم بظهور نوع جديد من الفخار إلى جانب أسلحة جديدة وعادات وطرق دفن جديدة، وقد رافق ذلك انتعاش وازدهار في حياة المدن. ثم ظهور الكنعانيين واختراع الكتابة، أي التاريخ المدون، وظهور الدولاب السريع الذي أوجد انواعاً جديدة من الفخار مثل فخار مجدو.

سيطر الهكسوس (حكام البلاد الأجنبية) على شمال مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م. وتوضح بعض المصادر المصرية أنهم من أصل آسيوي. وفي نفس الوقت من هذه الفترة نعثر على أخبار جماعات أخرى غربية تدعى الحبرو/الخبيرو Habiru ويعتقد معظم العلماء أنه لا يمكن اعتبار الحبيرو جماعة متميزة بعنصر خاص كالحوريين. وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تمكن أوائل ملوك الأسرة الثامنة عشرة من طرد الهكسوس من مصر فاستقر بعضهم أو معظمهم في فلسطين، فتبنى الهكسوس حضارة فلسطين وثقافتها، علاوة على ما تأثروا به بالحضارة والثقافة المصرية. وقد تزامن هذا مع تقدم المصريين نحو الشمال في فلسطين وسوريا، وقد بقيت الحضارة كنعانية ذات ملامح واضحة رغم التعدد في التأثيرات الحضارية في فلسطين. و "يبدو من هذا أن الأدلة المتعلقة بتاريخ فلسطين في هذه الفترة قليلة نوعاً

ما. أما الصورة الإجمالية لهذه الفترة فتشير إلى أنها كانت فترة استمرار للحضارة الكنعانية التي بنيت على أسس حضارة العصر البرونزي المتوسط التي قامت في عدد من المدن الكبيرة المستقلة، مع اختلاف بسيط في الثقافة والتنظيم، ويدل على هذا الاختلاف البسيط مثلاً الاختلاف الذي لاحظه العلماء بين هيكل مجدو وهيكل تل دوير".

ومع حلول القرن الثالث عشر قبل الميلاد تعرض الشرق الأدنى إلى انتكاسات كبرى أدت إلى انهيار الإمبراطوريات، وتأثرت فلسطين بهذه التحولات، فتأثرت بهجمات شعوب البحر على مصر، وتحرك المصريون عبر فلسطين نحو الشمال لمواجهة الحثيين. ومن شعوب البحر الفلسطينيين، وقد سكنوا المدن الكنعانية وتأثروا بحضارتها، حتى إن آلهة الفلسطينيين مثل داجون وعشتاروت يبدو أنها آلهة كنعانية. وقد سكنوا أولاً على الساحل ثم أخذوا يستولون تدريجياً على المدن الداخلية حتى وصلوا أطراف الهضبة المركزية. وقد عايش الفلسطينيون الكنعانيين والإسرائيليين معاً قرناً من الزمان جيراناً جنباً إلى جنب، وقد سكن الفلسطينيون في السهل الساحلي الخصيب، وعاش الإسرائيليون في المنطقة الجبلية القاحلة الجرداء. وقد نشأت ممالك في فلسطين إبان هذه الفترات، فنشأت مملكة إسرائيل المتحدة ودامت زهاء ثلاثة أرباع القرن فقط، وهي المدة الوحيدة في تاريخ اليهود التي كان لهم فيها قوة سياسية هامة في غربي آسيا. وبعد انتهاء المملكة المتحدة التي انقسمت إلى مملكتي يهوذا وإسرائيل المتخاصمتين واللتين انتهتا بالسقوط نتيجة الهجمات القادمة من بلاد ما بين النهرين، وما حدث فيهما من قصة السلب البابلي، ومن ثم العودة المزعومة.

وقد حاولت المدرسة التوراتية دون جدوى صناعة التاريخ الإسرائيلي في فلسطين، وقد دلت الدراسات والبحوث الأثرية على أن الشعب اليهودي شعب مخترع، والشتات مزعوم، والنفي الروماني لليهود كذبة، والرواية التاريخية اليهودية هشة، والرواية

التوراتية لا تستند إلى إسناد الواقع التاريخي والحقائق المادية الأثرية، هذا ما تضمنه كتاب اليهودي شلومو ساند المعنون بـ (اختراع الشعب اليهودي) ، وكتاب كيث وايتلام (اختلاق إسرائيل القديمة) ، وكتاب توماس تومسن (الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ).

يقول كيث وايتلام: "وإذا نظرنا من منظور أوسع وأطول زمناً فإن تاريخ إسرائيل القديم يبدو كلحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني الطويل. لذلك فإنه من المناسب طبعاً للمؤرخين (التوراتيين) أن يركزوا على هذه الحقب القصيرة من التاريخ أو المجتمعات المعنية فيها" (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ٢٨).

وهذا هو ما أسماه كيث وايتلام خطاب الدراسات التوراتية وهو عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التي يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية والموضوعية، بينما هي لا تعدو أن تكون ممارسة للقوة هيمنت على التاريخ الفلسطيني، بل أنكرت وجوده من الأساس لعشرات السنين.

ويجدر أن نلتفت إلى ضرورة تعظيم قلق الجغرافيا في ما يخص بناء الهيكلين الأول والثاني والثالث، من خلال قراءة نتائج الحفريات الأثرية التي قام بها علماء آثار يهود، والتي أعلنوا نتائجها المدوية بعدم وجود أي أثر يشير إلى مكان الهيكل لا في القدس ولا في أي مكان آخر تم إجراء حفريات أثرية فيه لهذا الهدف. فإذا كانت الدراسات التوراتية قد تجاهلت تاريخ فلسطين القديم وأسكتته لأن مجال اهتمامها "هو إسرائيل القديمة التي تم فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية" (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ٢٤) ، فينبغي علينا أن نتسلح بالردود العلمية والدلائل المادية والتي لا تستند إلى النص الديني كأساس في إثبات أصالة الوجود الفلسطيني وأسبقيته. ويجب أن نعلم جيداً أن خطاب الدراسات التوراتية يركز على الزمان عائماً، ولكنه عندما يصل إلى العصر البرونزي بأقسامه يساويه بالفترة الكنعانية،

وعندما يصل إلى العصر الحديدي يساويه بالفترة الإسرائيلية "تدل هذه الخطة على فهم تطوري للزمان يسير بشكل واضح". وعندما يصل إلى هاتين الفترتين يصل إلى التأكيد على علاقة الزمان والمكان، فنحن نصل إلى نقطة بداية التاريخ فقط عند ظهور إسرائيل والحدث التوراتي. والسبب وراء هذا التعميم المصطلحي أنه "يسهم في إسكات ونفي التاريخ الفلسطيني، وهذا خطير جداً فالتاريخ في الأولى يعتمد على اللقى الأثرية والثانية على المادة المكتوبة (على الأسفار بالدرجة الأولى).

يشير وايتلام في كتابه اختلاق إسرائيل القديمة إلى عملية طمس ممنهجة للتاريخ الفلسطيني وإلى تلاعب في ركني الزمان والمكان بما يخدم اختلاق إسرائيل وإنكار الوجود الفلسطيني من خلال تجيير المكتشفات الأثرية لصالح التفسير التوراتي وتفسيرها بطريقة مخالفة لمناهج البحث الأثري. وفي البعد السياسي فإن محاولات الطمس والتفسير المغلوط للتاريخ، تؤكد "أن تاريخ إسرائيل المخترع في حقل الدراسات التوراتية كان وما زال صياغة لغوية وإيديولوجية لما كان ينبغي أن تكون الممالك اليهودية عليه، وليس ما كانت عليه في الواقع"، إن هذه الرؤية السياسية للماضي ترسخ التمثلات الذهنية التي تؤكد الهوية الشخصية أو الاجتماعية أو تنكرها" (تونكن ١٩٩٢:٦).

إن "الروايات التي تأتي بها الثقافات المهيمنة (التي هي عادة أدبية) كثيراً ما تُسكت الروايات الأخرى لجماعات هامشية موجودة في تلك المجتمعات فتُحرم بذلك أن يكون لها صوت مسموع في التاريخ" (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ٣٦). ولذلك فإن الزمان وفق الخطاب التوراتي هو "فترة ما بين العهد القديم والعهد الجديد"، وتكمن خطورة هذا التقسيم في الآتي: أولاً: يكشف عن استبداد الزمان التوراتي في فهم وتصوير تاريخ المنطقة. ثانياً: لا يستند هذا التقسيم إلى أي حقيقة تاريخية، وإنما إلى افتراضات دينية لاهوتية تدور حول الطبيعة التطورية للوحي. ثالثاً: المفهوم الديني حول فترة "ما بين العهد القديم والعهد الجديد" هو "مجرد هوة فارغة

تُمكّن المرء من القفز من العهد القديم إلى العهد الجديد" (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ١٠٠). وفي المقابل يصطدم التفسير التوراتي للزمان بعلم الآثار الذي ساد في القرن الماضي، وحضر بديلاً للطغيان التوراتي. فعلم الآثار ينتج تعبيراً آخر عن المشروع التطوري للزمان الطبيعي الذي يتحرك بطريقة حتمية من العصر الحجري إلى العصر البرونزي ثم الحديدي وصولاً إلى الوقت الحاضر. ولم يستطع التوراتيون التغافل عن هذا المشروع الأثري القائم على التطور الطبيعي للزمان. فأخترع مؤرخو التوراة (وبخاصة المتأثرين بأولبرايت Albright) تقسيماً زمنياً موازياً- مستوحى من التوراة العبرية- لذلك الذي جاءت به تلك الأبحاث الأثرية بحيث يصبح: العصر البرونزي المبكر هو عصر الآباء. العصر البرونزي المتأخر يعادل عصر الخروج والغزو أو الاستيطان. العصر الحديدي يتزامن مع نشوء وتطور عصر الملكية. أما فترة النفي والهيكل الثاني فتتزامن، بالطبع مع الفترة الفارسية الهلنستية والرومانية.

وتكمن – مرّة أخرى – خطورة هذه المحاولة في: إعطاء الحق لأصحاب هذه التقسيمات الزمنية التوراتية بالمطالبة بماضي إسرائيل القديمة؛ إذ تقوم هذه التقسيمات الزمنية على إنكار الزمان على التاريخ الفلسطيني، وبالتالي وجودهم الطارئ وغير المشروع في فلسطين (وايتلام، ١٩٩٩م، ص ١٠٠-١٠١).

لقد نجح توماس تومسون في إبراز مدى الوهن في الاعتماد على الدراسات التوراتية في البحث والتنقيب عن آثار الهيكل. ويشير في كتابه " الماضي الخرافي – التوراة والتاريخ إلى زعزعة اليقين في اعتبار التوراة وثيقة تاريخية، وصار البحث في تاريخية التوراة مدار شك في تاريخية سفر التكوين وقصص موسى ويشوع والقضاة، والكلام عن عهدي داود وسليمان، وبالتالي عن حقيقة بدء داود بالتأسيس لبناء الهيكل، ثم إكماله في عهد سليمان. ويرفض توماس طومسون في كتابه "التوراة والتاريخ – الماضي الخرافي" مرويات المملكة العبرانية لداود وسليمان، فما هي سوى قصص لا يعول على تاريخيتها، فلا دليل على: وجود ملكية متحدة. ولا دليل على وجود عاصمة في

أورشليم. ولا دليل على وجود أي قوة سياسية موحدة ومتماسكة هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصنعه الحكايات الأسطورية. إن الحقبة المبكرة هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً". فإذا تم تقويض كل هذه القصص فالأجدى أن يُكَف عن البحث عن سراب هيكل مزعوم.

وقد أكد إسرائيل فلنكشتاين، عالم الآثار اليهودي الأستاذ في جامعة تل أبيب، أنّ علماء الآثار اليهود لم يعثروا على شواهد تاريخية أو أثرية تدعم بعض قصص التاريخ اليهودي في فلسطين. وبينت الدراسة التي نشرت في "جيروساليم ريبورت" عدد شهر أغسطس سنة ٢٠٠٠م، أن الروايات التي وردت في العهد القديم ويعتبرها اليهود من الأدلة التاريخية على أن فلسطين أرض شعب إسرائيل، هي محض افتراءات، حيث رفض وجود أي صلة لليهود بمدينة القدس، واعتبار انتصار يوشع بن نون على كنعان قصة متخيلة يعوزها الدليل، وأنه لا وجود لمملكتي يهودا وإسرائيل، وأنه لا وجود أية شواهد على وجود إمبراطورية يهودية تمتد من مصر حتى نهر الفرات، وأن مقولة أنه سيأتي من صلبهم من يشرف على ما يسمى بـ (الهيكل الثالث) وهم وأمنيات.

في دراسة بعنوان "الحقائق الأثرية تدحض الادعاءات التوراتية حول تاريخ شعب إسرائيل" (نشرت هذه الدراسة في صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٩٩م.) أشار عالم الآثار اليهودي "زائيف هيرتسوغ" إلى مدى الصدمة التي تفرضها حقيقة عدم وجود أي دليل تقدمه الحفريات الأثرية ومكتشفاتها حول تاريخ إسرائيل القديم في التوراة، وعن الهيكل التي تحكي قصته التوراة، حيث واجهت هذه القصص واقع الدليل المادي الغائب، والذي يقره علماء الآثار اليهود وغيرهم ممن يقومون بدراساتهم وحفرياتهم منذ عقود في أرض فلسطين. فالمشكلة أن الجميع يبحثون عن جسر الفجوة: التوراتيون يبحثون عن ما يسد الفجوة المعرفية بين ما تقوله التوراة ويرفضه الواقع الأثري، وعلماء الآثار الموضوعيون يبحثون عن ما يثبت أو يقوض الفجوة الحضارية بين القصص التوراتية والأدلة المادية. وتتعدى المسألة

البحث عن الدليل المادي إلى قلق الدليل والمعلومة التاريخية والجغرافية الواردة في التوراة، فالأرض الموعودة في التوراة هي غيرها الموجودة على الأرض، والناس الذي يتوقون لتقفي آثارهم لم يتركوا شيئاً أو أنهم لم يمروا من هنا أبداً! ومخطط الهيكل ما هو إلا وهم رفضته الحقائق العلمية.

ويضيف زائيف هيرتسوغ أن الحفريات الأثرية التي تجرى هنا وهناك على الأرض لا تربط بين الأرض الموعودة في التوراة وأرض فلسطين، وأن الزمان التوراتي الموازي للتسلسل التاريخي باطل، فلا بدايات تؤشر عليها المكتشفات الأثرية تعود إلى الأجداد من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ولا هجرة لإبراهيم إلى أرض كنعان، وأن داود وسليمان كانوا أبناء مملكة قبلية محلية صغيرة، وأن الدليل ما زال معلقاً على وجود المملكة المتحدة. ومع كل هذا الغياب للدليل المادي عما ورد في التوراة يتساءل زائيف هيرتسوغ: - إذاً مَنْ نحن؟ وقال أيضاً: "... من الواضح للعلماء والباحثين اليوم أن شعب إسرائيل لم يُقِم في مصر، ولم يته في الصحراء، ولم يحتل الأرض من خلال حملة عسكرية، ولم يستوطنها من خلال أسباطه الإثني عشر".

ونحن نتساءل أيضاً: فإذا غابت كل الدلائل عن وجود ما يثبت حقائق التاريخ والجغرافيا التوراتية في أرض فلسطين، فكيف ضاقت عليهم الدنيا ليحفروا تحت المسجد الأقصى بحثاً عن هيكلهم المزعومين؟ فإذا انتفى الأصل أساساً فكيف نبحث عن آثاره؟

وقد انضم زئيف هيرتسوغ إلى الأصوات التي أعلنت عدم موضوعية الخطاب التوراتي وانهيار أسس علم الآثار التوراتي، فالتوراتيون يبحثون عما يثبت النص التوراتي في الميدان، والأجدر آثارياً أن تترك الميدان يفرز الحقائق بمؤشراته المادية! وفي هذا السياق ليس أبلغ مما قالته الباحثة كارول ميريز إلى "أن جدول

أعمال النصوص هو الذي حدّد جدولَ أعمال حفرياتنا"[1]، ووصل الأمر إلى درجة الهوس بهذه النصوص التي تشير إلى القدس، وهي التي تعارفوا عليها باسم "لوثة أورشليم"[2]، فخرجت العناوين الكبرى التي تؤكد مبلغ هذا الهوس واللهفة منذ القرن التاسع عشر، مثل: "استعادة أورشليم" و"أورشليم تحت سطح الأرض" و "أورشليم الباطنية". "في اليهودية تم انفصال التصورات عن الشعائر، وأصبحت ترتبط بتفسير النصوص، فتفسير النصوص يضمن الانسجام بين السموات والأرض حسب علم الدراسات اليهودية، وهذا ما يعرف بلغة المصادر، وحضاريا تحت مسمى التوافق الحضاري أو إجماع بالمفهوم الحضاري" ففي مصر والصين اتخذ هذا التوافق شكل شعائري طقسي، وانتقل في اليهودية، وبالأخص في يهودية الأحبار، تماماً إلى مجال تفسير النص، ولا سيما بعد أن فقدت اليهودية كل الإمكانيات التي يمكن أن تؤسس لإقامة إجماع حضاري شعائري بعد خراب الهيكل في العام ٧٠م، فمكان اليهودية في المعبد: لم يعد يبحث عنه داخل المعبد في "الطقس الشعائري"، الذي تقوم هذه المعرفة بخدمته، والتي تأخذ الطقس الشعائري صورة ترتيلات وأناشيد دينية وما شاكل ذلك، وإنما تحول مكان المعرفة من النشيد الديني الشفوي إلى تفسير النصوص الرئيسية المؤسسة حضارياً في صورتها الكتابية (في هذه الحالة: نصوص التوراة)، وهذا التحول الذي يعتبر من وجهة نظر تاريخ الحضارة تحولاً طبيعياً ومميزاً نريد أن نطلق عليه هنا اصطلاح: الانتقال من الاجماع الحضاري القائم على الشعيرة أو الطقس إلى الإجماع الحضاري القائم على النص"[3]. ومن أهم ما خرج به من نتائج نفي بناء الهيكل، وأن بني إسرائيل يشكلون جزءاً هامشياً من ديموغرافيا

(1) Carol Meyers, Engendering Syro- Palestinian Archaeology: Reasons and Resources, Near Eastern Archaeology, Vol. 66, No. 4 (Dec., 2003) p. 187.

(2) Yuval Goren, The Jerusalem Syndrome in Biblical Archaeology, Society of Biblical Literature Forum, March 2005, sbl-site.org

(٣) أسمن، يان، الذاكرة الحضارية الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، ترجمة عبد الحليم عبد الغني رجب، ط١، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ١٥٢-١٥٣.

فلسطين مقابل عدد من الشعوب التي سكنت فلسطين مثل اليبوسيين والكنعانيين والفلسطيين والعماليق.

وتمضي الآراء خطوة إلى الأمام وفق الستروم، الذي يقرر أن المصدر الرئيس لكتابة التاريخ هو علم الآثار الفلسطيني، ويؤكد على هذا نيلز ليمش في ضرورة عدم لجو الباحثين المعاصرين إلى وظيفة الناطقين باسم التوراة فيما يخص تاريخ الكنعانيين في فلسطين "بل عليهم أن يشكلوا آراءهم غير المنحازة عن حياة وثقافة الكنعانيين"[1]، فالعلم الحديث يربأ بنفسه إلى جعل علم الآثار أداة لإثبات أو نفي صحة المعلومة التاريخية في التوراة، وضرورة تحييد التوراة كوثيقة تاريخية[2].

ترأس عالم الآثار الأمريكي بول لاب (Paul Lapp) بعثة أثرية في فلسطين عام ١٩٦٢م، خرج فيها بأن الخطاب الأثري التوراتي يقوم على تزوير التاريخ وطمس الحقائق مرة وقلب بعضها مرة أخرى، مما طمس التاريخ الفلسطيني لصالح التاريخ اليهودي فأنشأ بهذا مقدمات لضرورة نقد علم الآثار التوراتي، مما حدا بكثير من الباحثين الحذو حذوه في نقد المنهج القائم على اختلاق تاريخ إسرائيل ومحو التاريخ الفلسطيني وإنكاره. وقد أعلن بول لاب أن مشاريع الحفريات الأثرية الإسرائيلية بعد احتلال فلسطين عام ١٩٦٧م يمهد لاحتلال التاريخ مثلما هو احتلال للأرض، وقد أسهم هذا الاحتجاج في تحرك منظمة اليونسكو في رفض هذه الحفريات، وطرد إسرائيل من عضويتها وذلك بعد إزالة اسرائيل لي المغاربة في القدس الشرقية بحجة الحفريات الأثرية. وقد دفع بول لاب حياته غرقاً في البحر على شواطئ قبرص ثمناً لمواقفه الموضوعية.

(1) Philip R. Davies, Method and Madness: Some Remarks on doing History with the Bible, Journal of Biblical Literature, Vol. 114, No. 4 (Winter, 1995) op. cit. p. 703).

(2) Jonathan N. Tubb And Rupert L. Chapman, Archaeology and the Bible, British Museum Publications, London, 1990, p. 7.

وقد سبقت كاثلين كينيون عالم الآثار بول لاب بأكثر من عقد في حفرياتها التي بدأتها عام ١٩٥٢م واستمرت حتى العام ١٩٦١م نفت فيها مسألة الفراغ السكاني في فلسطين حتى قدوم بني إسرائيل، وأنكرت هجرة العبرانيين من مصر عبر سيناء، ونادت بخلل وزيف النظرية التوراتية وخطأ منهجها، ونفت الزعم بأن الحجارة التي بنيت فيها الأسوار والأبراج في القدس تعود إلى بقايا الهيكل، فهي لا ترقى إلى أكثر من القرن الثاني الميلادي.

وفي كتابه "نصف قرن من التنقيب في فلسطين" الذي صدر عام ١٩٢٥م فضح روبرت ماك أليستر، عالم الآثار الإيرلندي منهج الآثار التوراتي القائم على نزعة إيديولوجية دينية غيبت المنهج العلمي الأثري في التنقيب، حيث ينطلق هذا المنهج بأسلوب معكوس تماماً، يقومون فيه بالفرض المسبق القائم على النص الأدبي التوراتي ثم يذهبون إلى الميدان لإثباته. فإن لم يكن النص فهي أهدافهم التي رسموها لأنفسهم في أرض فلسطين برعاية "صندوق اكتشاف فلسطين" الذي تأسس في بريطانيا في العام ١٨٦٥م.

أما مائير بن دوف عالم الآثار في الجامعة العبرية، فيعلن عن ادعاءات كاذبة للقى أثرية في إسطبلات سليمان (المسجد المرواني) تعود إلى الهيكل الأول، ويؤكد أنه لا أثر البتة للهيكل تحت المسجد الأقصى.

وتعاظم اتجاه التخلي عن التفسيرات التوراتية بشأن الهيكل بين علماء الآثار أو المهتمين بالتاريخ القديم من اليهود وعلماء الآثار الغربيين، ومن بينهم الدكتور يوني مزراحي، وماك أليستر، ومارغريت شتاينر، وزينون كاسيدوفسكي، وسارنا، ووليم ديفر، وبيير روسيه، ولينش، وليمكه، وكلهم يؤكدون على عدم وجود هيكل في ساحات الحرم القدسي، ولم يعثروا على أي أثر يثبت وجوده على أرض فلسطين.

يركز وايتلام على البعد السياسي من وراء محاولات الطمس والتفسير المغلوط للتاريخ، حيث يذكر: "أن تاريخ إسرائيل المخترع في حقل الدراسات التوراتية كان وما زال صياغة لغوية وأيديولوجية لما كان ينبغي أن تكون الممالك اليهودية عليه، وليس ما كانت عليه في الواقع". يصطدم التفسير التوراتي للزمان بعلم الآثار الذي ساد في القرن الماضي، وحضر بديلاً للطغيان التوراتي. فعلم الآثار ينتج تعبيراً آخر عن المشروع التطوري للزمان الطبيعي الذي يتحرك بطريقة حتمية من العصر الحجري إلى العصر البرونزي ثم الحديدي وصولاً إلى الوقت الحاضر.

وقد نجح توماس تومسون في إبراز مدى الوهن في الاعتماد على الدراسات التوراتية في البحث والتنقيب عن آثار الهيكل. ويشير في كتابه " الماضي الخرافي – التوراة والتاريخ إلى زعزعة اليقين في اعتبار التوراة وثيقة تاريخية، وصار البحث في تاريخية التوراة مدار شك في تاريخيته، فما هي سوى قصص لا يعول على تاريخيتها، فلا دليل على: وجود ملكية متحدة. ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم. ولا دليل على وجود أي قوة سياسية موحدة ومتماسكة هيمنت على فلسطين. إن الحقبة المبكرة هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً ". فإذا تم تقويض كل هذه القصص فالأجدى أن يُكف عن البحث عن سراب هيكل مزعوم.

كما أكد إسرائيل فنكلشتاين، عالم الآثار اليهودي الأستاذ في جامعة تل أبيب، أنّ علماء الآثار اليهود لم يعثروا على شواهد تاريخية أو أثرية تدعم بعض قصص التاريخ اليهودي في فلسطين. وفي دراسة بعنوان "الحقائق الأثرية تدحض الادعاءات التوراتية حول تاريخ شعب إسرائيل" أشار عالم الآثار اليهودي "زائيف هيرتسوغ" إلى مدى الصدمة التي تفرضها حقيقة عدم وجود أي دليل تقدمه الحفريات الأثرية ومكتشفاتها حول تاريخ إسرائيل القديم في التوراة، وعن الهيكل التي تحكي قصته التوراة، حيث واجهت هذه القصص واقع الدليل المادي الغائب، والذي يقره علماء الآثار اليهود والعالم الذين يقومون بدراساتهم وحفرياتهم منذ أكثر من عقدين

(اليوم منذ ٥ عقود) في أرض فلسطين. فالمشكلة أن الجميع يبحثون عن جسر الفجوة؛ التوراتيون يبحثون عن ما يسد الفجوة المعرفية بين ما تقوله التوراة ويرفضه الواقع الأثري، وعلماء الآثار الموضوعيين يبحثون عن ما يثبت أو يقوض الفجوة الحضارية بين القصص التوراتية والأدلة المادية. وتتعدى المسألة البحث عن الدليل المادي إلى قلق الدليل والمعلومة التاريخية والجغرافية الواردة في التوراة. فالأرض الموعودة في التوراة هي غيرها الموجودة على الأرض، والناس الذي يتوقون لتقفي آثارهم لم يتركوا شيئاً أم أنهم لم يمروا من هنا! ومخطط الهيكل ما هو إلا وهم رفضته الحقائق العلمية.

عندما بدأت المدرسة التوراتية في أعمالها على النصوص الدينية والخرائط ثم أعمال التنقيبات الأثرية بحثاً عن أرض الميعاد، والهيكل، كان علم الآثار في العالم العربي وليداً يقتفي —دون وعي أو حيلة- النتائج التي تؤسس لها المدرسة التوراتية، ورغم التقدم الشكلي والظاهري اليوم في علم الآثار العربي فإن الحقيقة الجلية أن مؤسساتنا الأكاديمية والبحثية تهتم بالدرجة الأولى بالعلوم البحته، وتلتفت بدرجة ثانية أو ثالثة إلى العلوم الإنسانية، ومنها علم الآثار الذي نُعِدّ منه إلينا، فهو في وقت ما أخطر من السياسة أو هو من يصنعها وتصنعه.

لقد جاء هذا الكتاب في اثني عشر فصلاً تناولت آثار فلسطين منذ العصور الحجرية حتى سقوط مملكتي إسرائيل وفترة ما بعد السبي البابلي، وهو كتاب Archaeology in the Holy Land لكاثلين كينيون Kathleen M. Kenyon ترجمه المرحوم محمود العابدي وألقاه على طلبة قسم الآثار في الجامعة الأردنية.

الفصل الأول

تمهيد

مكانة فلسطين في تاريخ الشرق الأدنى

عندما أُسس صندوق التنقيب الفلسطيني The Palestine Exploration Fund عام ١٨٦٥ حُدِّدت أهدافه بما يلي:

التنقيب الدقيق المنظم عن الآثار بالإضافة إلى التخطيط المنظم للأمكنة (الطوبوغرافيا) والجيولوجيا والجغرافية الطبيعية والعادات والأخلاق في الأراضي المقدسة، وذلك لإيضاح ما جاء في الكتاب المقدس.

وهكذا فالهدف الرئيسي عن ذلك كله هو العبارة الأخيرة "أي إيضاح ما جاء في الكتاب المقدس"، وقد برر في أواسط القرن التاسع عشر في بريطانيا اهتمام عظيم جداً بتاريخ الشرق الأدنى القديم؛ إذ وردت إلى البلاد موجودات عينية كثيرة من بلاد ما بين النهرين ومصر جميعها تدل دلالة واضحة على أن هذه البلاد يجب وضعها على قدم المساواة مع بلاد اليونان والرومان، باعتبارها الموطن الرئيسي للمدنيات القديمة. وأما بالنسبة لإنكلترا ذلك البلد المتدين في عهد الملكة فكتوريا فقد كانت الأرض المقدسة مصدر اهتمام عظيم عنده يفوق كثيراً الاهتمام بتلك الإمبراطوريات الخيالية، أمثال امبراطورية أشور بانيبال وسرجون وتحطمس ورعمسيس. ولقد كان صندوق التنقيب الفلسطيني بحق أول جمعية أُسست لدراسة الماضي القديم فيما وراء البحار. وقد أُسس قبل تأسيس جمعية الحفريات المصرية بعشرين عاماً. كما سبق تأسيس جمعية الدر سات الهلينية بأربعة عشر عاماً. أما القوى الدافعة وراء أقدم التنقيبت والحفريات في فلسطين فهي دراسة الحو دث والظروف التي يدور حولها

الكتاب المقدس. وفي خلال المائة سنة التي تلت تمت اكتشافات عديدة وهامة في هذا المضمار. ولقد رافق ذلك جو عظيم من الصبر والعناية. ونتيجة لتلك الاكتشافات يمكننا أن نكتب اليوم تاريخاً مفصلاً ومحكم الحلقات لتلك الحقبة التاريخية التي تناولتها أجزاء الكتاب، ودراسات للتاريخ القديم في بلدان أخرى تقع شرقي البحر الأبيض المتوسط وغربي آسيا، وقد أعطت هذه الدراسات نتائج باهرة.

يمكننا القول بصدق إن اليهود كانوا في مطلع القرن التاسع عشر هم الأمة الوحيدة المألوفة لدى الأوروبيين في الشرق الأدنى القديم. أما اليوم وبسبب شرح وتفسير كتبهم من جهة، وبسبب الحفريات التي جرت في مدنهم ومعابدهم من جهة أخرى، أصبح تاريخ المصريين والسومريين وغيرهم من سكان الطرق الحديث كالحثيين والحوريين وغيرهم معروفاً معرفة تامة. وقد تبين من ذلك أيضاً أن الممالك العبرية الصغيرة كانت جزءاً من تلك المدنية العظيمة التي ظهرت في الشرق الأدنى.

إن هذا هو أول مظهر لدينا اليوم لفهم تاريخ فلسطين وآثارها. وأما المظهر الثاني فقد وضح لدينا تماماً بنفس وضوح الأول. ففي فلسطين كما في بقية بلدان الشرق الأدنى دعمت الحفريات بمعلوماتنا عن الأماكن والسكان آلاف السنين إلى الوراء؛ أي قبل البدء بتدوين التاريخ. فحلّ الكتابة التي وجدت على حجر رشيد في العشرينات من القرن التاسع عشر، وكذلك الكتابة التي وجدت على حجر بهستون في الخمسينات من القرن نفسه أعطت المفتاح لقراءة العديد من الوثائق المتعلقة بالإمبراطورية التي قامت في مصر وما بين النهرين. وقد أرجعت تلك الوثائق بدء تدوين التاريخ إلى الألف الرابع ق. م. فالحفريات البحتة التي جرت دون أي اعتماد على الوثائق التاريخية تدلنا فقط على مجريات الحوادث في الماضي.

ومع أن الاهتمام الأول بآثار فلسطين لدى أية مؤسسة كان مصدره ما جاء في الكتاب المقدس إلا أن الاهتمام في مصر وما بين النهرين كان مصدره ما فيهما

من نصب وآثار ظاهرة للعيان، وبما كتب من وثائق عن حقب المدنيات العظيمة، إلا أن دراسة الفترات القديمة التي سبقت ذلك أصبحت اليوم على المستوى نفسه من الأهمية والاهتمام، لأن هذه المنطقة أصبحت دون شك تعتبر مهد المدنيات الأوروبية جميعاً دون منازع.

وقد أجمع الجميع على أنه في بلاد الشرق الأدنى قد تمت أول خطوة في تلك التجربة الطويلة التي نقلت الإنسان من طور الهمجية إلى طور الصياد وجامع الأطعمة البرية، إلى طور القاطن في مجتمع متحضر. وباستطاعتنا القول إن فلسطين على الأقل كانت أحد هذه الأماكن التي كانت مهداً لهذا التطور الإنساني الأول. ولكي نفهم أهمية الآثار الموجودة في فلسطين ونرى بوضوح تلك القصة التي سيعود ذكرها في الفصول التالية، علينا أن نعطي مختصراً موجزاً عما هو معروف أو عما استنتج عن الخطوات الأولى في تقدم الإنسان نحو المدنية، وبالتالي عن أهمية فلسطين في الإطار العام لتاريخ الشرق الأدنى.

إن أجدادنا الأوائل الذين كانوا المثل للإنسان العاقل وللسلالات البشرية التي انقضت لسبب ما أثناء الصراع التطوري عاشت بما يسمى اليوم المرحلة الباليولثكية Palaeolitlic Stage (العصر الحجري القديم) وعندما حاول علماء الآثار في القرن التاسع عشر إيجاد نظام لتصنيف موجودات الإنسان القديم استعملوا لهذا الغرض الحقائق والانطباعات الفنية التي اعتقدوا أنها تنطبق على العصور المختلفة، وبذا أوجدوا تصنيفاً مبدئياً للعصور الحجرية والبرونزية والحديدية. فقسموا العصر الحجري إلى العصر الحجري القديم (الباليولثك) حيث كانت الأدوات الحجرية تكشط كشطاً، وإلى العصر الحجري الحديث (النيولثك) Neolithic الذي امتاز بالفؤوس الحجرية المصقولة صقلاً جيداً. وهذه المميزات كانت متوفرة تماماً في منطقة غربي أوروبا والتي استعمل فيها هذا التصنيف للأدوات التي وجدت فيها. أما اليوم فمعرفتنا بطرق حياة الإنسان في مختلف العصور ازدادت إلى

حد عظيم. ونتيجة لذلك فإننا عندما نتحدث عن العصر البليوليثيكي (الحجري القديم) لا نعني فقط -وليس بالضرورة- تلك الأدوات التي كانت تكشط كشطاً، أو تلك الفؤوس ذات المقابض الحجرية، بل نعني أن إنسان هذه الفترة كان يعتمد في بقائه على الطعام الذي كان يجمعه من صيده لحيوانات البر أو لأسماك الماء أو من مصادر طبيعية أخرى. فإنسان هذه الفترة كان جامع غذاء لا غير. وتتفق هذه الفترة مع المراحل الأخيرة للعصر الجليدي في أوروبا. وقد اتُفق على أن هنالك عصراً حجرياً متوسطاً بين العصر الحجري القديم وبين العصر الحجري الحديث في أوروبا يدعى العصر الححري المتوسط (Nesolithic) وقد ساد هذا العصر عندما أخذت كتل الجليد تنحسر عن شمال أوروبا، وأخذ الإنسان يكيف أساليب جمع غذائه حسب ظروف بيئات جديدة.

إن التطور العظيم من العصر الحجري القديم والدخول في العصر الحجري المتوسط بدأ عندما أخذ الإنسان ينتج غذاءه بنفسه بدلاً من جمعه. وأهمية ذلك أن أصبح بإمكانه أن يستقر فوق بقعة واحدة: إذ إن جامع الغذاء كان يمكنه أن ينتقل من مكان إلى آخر سعياً وراء مصادر غذائه، متأثراً بالحركة الفصلية لهجرة الحيوانات أو بفترة نمو الحشائش والأعشاب. وتعني مصادر هذا النوع من الغذاء أن عدداً محدوداً من السكان يمكنهم العيش في منطقة واحدة. لذا عاش الإنسان في مجتمعات عائلية متنقلة. أما اكتشاف الإنسان إمكانية زرع الحبوب البرية وطرق زيادة إنتاجها، وإمكانية تدجين الحيوانات البرية وإخضاعها لسيطرته، فإنه يعتبر عاملاً أساسياً نحو تقدم أبعد: إذ زراعته الحقول لم تمكّن الإنسان فقط من الاستقرار فوق بقعة واحدة بسبب ما تنتجه من المحاصيل الكافية لمعيشته بل ربطته بتلك البقعة على الأقل لجزء من السنة ريثما تنضج محاصيله.

يعتقد الكثيرون أن هذه الخطوة الهامة العظيمة حدثت في بلدان الشرق الأدنى حيث توجد الحبوب البرية التي زرعها الإنسان مع الزمن بالإضافة للحيوانات التي

استطاع أن يدجنها. ولقد وضح ذلك تماماً من الأعمال التي قام بها البروفسور جوردن تشايلد Jordon child الذي كان في الأصل عالم آثار أوروبي، ولكن أبحاثه حول أصل الحضارة الأوروبية قادته إلى بلاد شرقي البحر الأبيض المتوسط وغربي آسيا. ونتيجة لذلك كتب أحسن الكتب حول تنظيم وإيضاح وتمييز التقدم الأولي في الشرق الأدنى. فمنذ ظهور الزراعة أصبحت معالم التقدم تسير إلى الأمام بخطى حثيثة. فالعصر الحجري القديم الذي تميز فيه الإنسان من الحيوات ربما دام نصف مليون سنة، والعصر الحجري الحديث حوالي خمسة آلاف سنة، والعصر البرونزي ألفي سنة، والعصر الحديدي خمس ماية سنة فقط. وقد حدث ذلك كله قبل أن تظهر مدنيات حوض البحر الأبيض المتوسط القديمة. وباستقرار الإنسان فوق بقعة واحدة بدأت حياته تسير حثيثاً نحو التقدم، إذ أصبح لديه متسع من الوقت لتطوير مواهبه، فحياة الاستقرار تعني أنه أصبح في مقدوره أن يملأ بيته بما يحتاج إليه نتيجة عمله اليدوي ومهارته. وهنا ظهرت الحياة الجماعية التي هي أساس الحضارة. فلم تعد المسألة مسألة جماعات عائلية تقاوم الطبيعة مع غيرها من المجتمعات العائلية بل أصبح لدى الإنسان ضمان لمعاشه وبقائه وسط مجتمع كبير أخذ بالازدياد والنمو. وفي مجتمع كهذا يقوم على الأخذ والعطاء كان لزاماً على الإنسان أن يضحي ببعض حرياته الأساسية مقابل حمايته. فحياة الأخذ والعطاء نظمت على أساس من العادات وبالتالي تحولت إلى قوانين ومنها كانت الانطلاقة الأولى نحو ظهور علم الاحتماع.

إن استقصاء عملية انتقال الإنسان من دور الهمجية حتى أصبح عضواً في مجتمع متحضر تستهوي اهتمام الكثيرين، حتى أولئك الذين يعيشون في الأماكن النائية عن مهدها في الشرق الأدنى كبريطانيا. وكما سنرى فيما بعد كانت فلسطين أحد الأماكن التي حدث فيها مثل هذا الانتقال. أما معرفتنا بهذه العملية فلا تزال حديثة العهد بالرغم من أننا حصلنا على الكثير من المعرفة المتعلقة بتلك العملية، وقد تم ذلك بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبالرغم من ذلك فلا نزال نعتبر تلك المعرفة في

مراحلها الأولى. لقد ظهرت هنا وهناك بعض الإشارات التي تدل على كيفية تقدم الإنسان القديم، ولكن المنظر العام لهذا التقدم لا يزال يكتنفه الغموض. وقد بدا جلياً أن التقدم لم يستمد عناصره من مصدر واحد، بل كانت هنالك خطوات تقدمية في نواحي شتى، ولا داعي لأن تحدث في أزمنة واحدة بل حدثت في بقاع وأزمنة مختلفة، ولربما شك البعض في أن التقدم لم يكن متساوياً في هذه الأزمنة والبقاع بل سار في بعضها خطوات واسعة ثم تلكأ، ولكن فهماً صحيحاً لمجريات هذا التقدم لا يزال ينتظر فهماً عميقاً يمكن الحصول عليه عن طريق الحفريات الأثرية. فالحفريات الأثرية تعتبر القاعدة الوحيدة التي يُبتنى عليها معرفة هذه الحقب القديمة. وقد بدأت الحفريات فعلاً في الشرق الأدنى مدفوعة بعامل الاهتمام الزائد بأوائل رواد المدنيات العظيمة في الحقب التاريخية الأولى. فخلال الأعوام التي مرت بين الحربين الكونيتين تجمعت المعرفة لدينا عن العديد من قرى العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى؛ إذ لم تكن قبلاً أية معرفة عن كيفية التطور من العصر الحجري المتوسط. وإن كن هناك من معرفة فلم تكن إلا نزراً يسيراً جداً من الدلائل والحقائق المتعلقة بهذه البقعة من العالم. ولكن مميزات قرى هذا العصر أمثال بيبلوس، راس شامرا (أوغاريت) مرسين Hassuna وحسونة بدت جلية واضحة: إذ ظهر أنها تمثل صورة من صور المجتمعات الصغيرة ذات الاكتفاء الذاتي. فكانت كل منها تجهز نفسها بغذائها وتصنع أدواتها الخاصة وأسلحتها وأدوات طعامها وملابسها من المواد المتوفرة لديها محلياً. فالصوان أو غيره من الصخر المحلي كان المادة التي صنعت منها الأسلحة. وأهم الصفات الخاصة والمميزة لهذه القرى الواقعة في غربي آسيا وفي أحفادها من القرى الأوروبية هي صناعة الأواني الفخارية ذات الأيدي. ولا شك أنه كان هنالك غيرها من الأواني المصنوعة من الخشب أو الجلد ولكنها اختفت لأنها لم تستطع مقاومة عاديات الزمن. أما الملابس فيمكن صنعها من الجلد أو بنسج ما تنتجه قطعان الماشية أو حيوانات الصيد. ولربما لم يكن هذا الاكتفاء الذاتي تاماً

في هذه القرى لأنه كان هنالك على الغالب تجارة تقوم على مقايضة الإنتاج المحلي بالحاجيات البعيدة التي تفتقر إليها، كالأصداف البحرية التي كانت تستعمل في الزينة والتمائم والتعاويذ والدهنيج الذي كان يستعمل لتحميل العيون، ولبعض أنواع الصوان الجيد أو الأحجار الزجاجية السوداء التي كانت تدخل في صناعة الأدوات والأسلحة.

فالأدلة التي أتت بها الحفريات الأثرية فترة العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر تشير إلى أن مجتمعات العصر الحجري الحديث كانت صغيرة بحجمها؛ إذ كانت القرية تمتد فوق مساحة تتراوح بين فدانين أو ثلاثة (الفدان مقياس إنكليزي يساوي ٤٠٠٠م٢) وهذا يبدو معقولاً. وربما ادعى البعض أن الزراعة في العصر الحجري الحديث كانت بدائية تنتج أقل المحاصيل، لذا لم يكن باستطاعتها إعالة الكثير من السكان. وكل زيادة في السكان كان عليها أن تجد لنفسها مجتمعاً آخر وتترك مكان استقرار المجتمع الأم، بالإضافة إلى أن الزراعة البدائية تؤدي إلى إجهاد التربة وبالتالي تُلزم المجتمع الأساسي على النزوح ليحصل على حقول بكر يمارس فوقها زراعته. ويعتقد أنه بهذه الطريقة انتشرت أساليب الحياة في العصر الحجري الحديث تدريجياً من مهدها الأساسي، حيث انتشرت أولاً فوق سهول الشرق الأدنى الواسعة ومن ثم عبر أوروبا. فالصورة التي ظهرت لنا عن هذه العملية التي أخذت مجراها في الشرق الأدنى في الألف الخامس ق. م. أخذت تنتشر ببطء حتى وصلت إلى الجزر البريطانية في الألف الثالث ق.م. وعمتها تماماً في الألف الثاني. وفي السنوات العشر الأخيرة احتاجت بعض أجزاء هذه الصورة إلى إعادة في الرسم والتخطيط، لأن الموجودات الأثرية في أريحا تشير إلى تقدم عظيم وهام جرى خلال العصر الحجري الحديث، وقد أثبتت الحفريات في أماكن أخرى النتيجة ذاتها.

إن المنطقة الرئيسية التي استوطنها الإنسان خلال العصر الحجري الحديث كانت الهلال الخصيب الممتد من وادي النيل في الغرب حتى وادي دجلة والفرات في الشرق.

وهو يمتد عبر الشريط الساحلي لفلسطين وآسيا الصغرى وصحراء العرب، وقد دلت الموجودات الأثرية الحديثة على أن مرتفعات الأناضول كانت ضمن هذه المنطقة.

لقد شهدت هذه المناطق ميلاد حياة مستقرة كما ظهرت في الهلال الخصيب أو في الحضارات العظيمة في النصف الشرقي من الكرة الأرضية.

كان اكتشاف استعمال المعادن أحد الدوافع التي دفعت بالمجتمعات القديمة لتخطي العصر الحجري الحديث، وكان من أهم تلك المعادن النحاس الذي لا يمكن استغلاله على أيدي جماعة واحدة من الناس. وعندما فاق النحاس الحجري في مميزاته - عندما استعمل في صناعة الأدوات والأسلحة- أصبح من اللازم على المجتمعات أن تقيم بينها العلاقات التجارية لتضمن الحصول عليه. ونتيجة لذلك وجب عليها أن تزيد إنتاجها للمواد الغذائية وغيرها من المحاصيل الطبيعية، لتدفع للتجار ثمن هذا المعدن النفيس آنذاك. ولتدفع للنحّاسين أجرة صناعة الأدوات والأسلحة النحاسية. وعندما تخصصت فئة من السكان بصناعة النحاس لم يعد لديها متسع من الوقت لتهيئة طعامها. فأدى ذلك إلى هدم وانحلال المجتمعات الصغيرة التي كانت تقوم على الاكتفاء الذاتي. وبدأ البناء المعقد للمجتمعات المتحضرة يشق طريقه نحو الظهور والنمو. وحتى هذه المرحلة كانت هنالك تطورات عديدة أخرى عمت معظم بلاد الهلال الخصيب بما في ذلك فلسطين، كما سنرى فيما بعد.

أما في المراحل التالية التي بدأت تاريخها تقريباً منذ مطلع الألف الرابع ق.م. فقد تفوقت البلاد الواقعة على طرفي الهلال على غيرها من البلدان، ويرجع ذلك إلى وجود الأنهار العظيمة التي تروي الواديين. فقد ساعدت تلك الأنهار على خصب التربة، وأصبح بالإمكان تكديس الفائض من المحاصيل الزراعية واستعمالها في التجارة وفي الحصول على البضائع الأخرى. وفي الوقت نفسه دعت الحاجة إلى تنظيم الري ودرء خطر الفيضانات. مما أدى إلى تطوير النظم و لقوانين التي تسيطر على

هذه المجتمعات. بالإضافة إلى أن هذه الأودية تفتقر إلى الحجارة التي تصنع منها الأدوات وتُبنى بها البيوت. وقد أوجب هذا على هذه المجتمعات تطوير المشاريع التي تمكنها من الحصول على هذه المواد. لذا فاقت قرى هذه الأودية في تقدمها غيرها من القرى التي لم يكن لها مثل هذه المواقع الهامة. لقد تطورت ونمت هذه القرى في الألف الرابع ق. م. وتحولت إلى مدن وممالك مدينية. وفي مستهل الألف الثالث تم هذا التطور على أيدي إحدى الممالك المدنية التي قدر لها أن تتسلم القيادة والزعامة في المنطقة، وتوحّد جميع الممالك الأخرى في إمبراطورية واحدة موحدة. وهنا بدأت العلاقات بين سكان الواديين تتوطد في نهاية الألف الرابع. ومن ثم أصبحت هذه العلاقات بين الإمبراطوريتين الموضوع الرئيسي في تاريخ الشرق الأدنى طوال الثلاث آلاف سنة التي تلت.

أخذت المدينة تنتشر من كل طرف من طرفي الهلال الخصيب إلى بقية أجزائه دافعة إلى الأمام المناطق المتخلفة، وقد قامت المنافسة بين الإمبراطوريتين تذكي نارها بعض القوى العظيمة في آسيا الصغرى وسواحلها. وقد أثر ذلك دون شك وباستمرار على تاريخ كثير من البلدان مثل فلسطين الواقعة على الطريق الذي يصل بين الإمبراطوريتين.

يعتبر ما مر مختصراً موجزاً للأساس الذي بني عليه تاريخ فلسطين. وقد ساهم هذا البلد بنصيب وافر في تطوير بلدان الهلال الخصيب ودفعها حثيثاً نحو المدنية والتقدم، وذلك بفضل موقعه الجغرافي في الطرف الجنوبي الغربي من الهلال الخصيب. وعندما أخذت الإمبراطوريات العظيمة الواقعة على طرفي الهلال تعزز مراكزها وتؤكد سيطرتها تأثرت فلسطين بذلك إلى حد بعيد، وخاصة بتأثير جارتها الأقرب مصر. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن لإمبراطوريات ما بين النهرين تأثير كبير عليها أيضاً. لقد خضعت لحكم هذه الإمبراطوريات ردحاً من الزمن أثناء توسعها السياسي، وأصبحت فلسطين الطريق التي سلكته جيوش هذه الإمبراطوريات في

حروبها ضد بعضها بعضاً. وأما مدى تأثير جيران فلسطين على أجزائها المختلفة فيختلف باختلاف جغرافية البلاد نفسها. ففلسطين تماماً كسوريا الواقعة إلى الشمال منها والتي تكوّن معها وحدة جغرافية طبيعية تنقسم إلى أربعة أقسام متميزة تماماً عن بعضها تمتد من الشمال إلى الجنوب:

أولاً – السهل الساحلي

ثانياً السلسلة الرئيسية التي تمتد من لبنان شمالاً مارة عبر جبال فلسطين من الشمال إلى الجنوب ثم تنحدر نحو هضبة النقب.

ثالثاً وادي الأردن الذي يمتد عبر وادي عربة ويستمر حتى يصل خليج العقبة.

رابعاً- السلسلة الشرقية التي تمتد عبر حوران وجبال جلعاد وموآب وآدوم، وفي امتدادها هذا تنحدر أجزاؤها الشرقية نحو بادية الشام. تبدأ السلسلة الرئيسية بالارتفاع التدريجي من السهل الساحلي مارة بالشفا؛ أي أراضي التلال المنخفضة، ويتجه الارتفاع شرقاً حتى يصل معدله إلى ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر في جبال اليهودية ثم ينحدر فجأة نحو وادي الأردن الذي ينخفض عند البحر الميت حوالي ١٢٩٠٠ قدم عن سطح البحر. وأما السلسلة الشرقية فيصل ارتفاعها في بعض أجزائها حوالي ٢٠٠ قدم.

كان لهذا التركيب الجغرافي الطبيعي نتيجتان تاريخيتان هامتان: أولاهما أن طرق المواصلات السهلة امتدت شمالاً وجنوباً. وكانت طريق السهل الساحلي أهمها جميعاً. ويرتبط بالسهل الساحل قسم طبيعي آخر ذو أهمية تاريخية كبيرة هو سهل مرج ابن عامر الذي يقسم السلسلة الرئيسية إلى قسمين ويكوّن اتصالاً بين السهل الساحلي ووادي الأردن ومرتفعات شرقي الأردن. وقد كان هذا السهل ممراً الطريق الرئيسي بين قرني الهلال الخصيب، لأن السهل الساحلي في سوريا ضيق وغير مناسب لاستمرار

العبور. وعن طريق سهل مرج ابن عامر مرت جيوش مصر الجرارة وكذلك جيوش أعدائها. كان السهل الساحلي طبيعياً مفتوحاً للتأثيرات البحرية بالرغم من أن موانئه كانت فقيرة وقليلة. لذا أثرت المؤثرات الخارجية بصورة خاصة في الأراضي المنبسطة الواقعة على طول هذا الساحل وكذلك في مرج ابن عامر. كانت مدن هذه الأجزاء عرضة للخراب والدمار على أيدي الأعداء المغيرين، أما الأجزاء المرتفعة من السلسلة الرئيسية فبالرغم من صعوبة الوصول إليها وخاصة من الجهة الشرقية كانت تخضع غالباً إلى إحدى القوى الرئيسية في طرفي الهلال، إذ وصلتها التأثيرات الخارجية ببطء، ومرت بها الجيوش الأجنبية دون أدنى تأثير عندما كان في نيتها الاستيلاء عليها وليس طريقاً فقط.

ولكن بالرغم من أن معظم المؤثرات الحضارية التي أثرت في تاريخ فلسطين جاءتها عن طريق الهلال الخصيب، إلا أن هنالك مؤثرات أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ويجب أن لا تهمل جانباً. يضم الهلال الخصيب بين طرفيه بادية الشام التي تعتبر منذ فجر التاريخ المعين العظيم الذي لا ينضب لغارات البدو على ثروات الهلال المحيطة بالبادية. وقد تأثر تاريخ كل بلد من بلدان الهلال تقريباً إلى حد بعيد بغارات هؤلاء البدو المتواصلة، التي كانت تأخذ أحياناً طابع الكر والفر وأحياناً طابع السلب والنهب والاستقرار. وقد قضت القبائل البدوية كلٌّ بدورها على كثير من المدنيات القديمة، ولكنها بالرغم من ذلك أخذت الكثير منها، وبامتزاجها بالسكان الأصليين أعطتهم دماً جديداً أكسبهم قوة وطاقة دافعة فتولدت هنالك مدنيات جديدة. ودراسة الآثار الفلسطينية تدل بوضوح على تعاقب موجات المغيرية الجدد الذين كان أكثرهم دون شك من أصل صحراوي. ومن هذه الموجات اثنتان معروفتان تماماً لدينا هما اليهود والعرب، وهما موجتان من عدة موجات.

بالرغم من أن فلسطين هي موطن لأهم كتاب في العالم إلا أن معرفتنا بقصة تاريخها عبر القرون يثبت على مخالفاتها الأثرية.

إن التاريخ المدوّن، أو بعبارة أخرى: الوثائق المدونة التي يمكن للتاريخ أن يعتمد عليها متوفرة في أودية النيل ودجلة والفرات وهي في تاريخها أقدم من الوثائق الفلسطينية بحوالي ١٥٠٠ عام. ولكن حتماً في هذه الأودية تعود الآثار بتاريخ البلاد إلى العصور الألفية الأولى، وهي تمد التاريخ بالكثير من الحقائق عن الحقب التي تتوفر فيها الوثائق التاريخية وبأعداد كثيرة. فطالما معظم قصتنا التاريخية التي سيرد سردها في الفصول التالية مبني كلية أو جزئياً على علم الآثار فكان لزاماً علينا أن نستعرض مدى قدرة هذا العلم ومدى اتساع أفق حدوده: إذا أتيحت لعلم الآثار الظروف والفرص المناسبة فإنه يستطيع أن يكتشف في الأماكن التي عاش فوقها الإنسان تلك الأبنية والأدوات التي خلفها وراءه والتي قاومت عاديات الزمن. وهذا هو أهم حدوده واختصاصاته. فهنالك مواد كثيرة كالخشب والمنسوجات والسلال جميعها مواد عضوية لا تستطيع أن تقاوم الزمن.

ويستطيع المرء بسهولة أن يدرك نقص الصورة المحيطة به عندما تفتقر تلك الصورة إلى جميع هذه العناصر العضوية. وحتى تلك الروح القوية الثابتة تأخذ بالسقوط والانهيار تحت وطأة الزمن وعوامل التعرية إذا هي أهملت. ويستطيع المرء أن يلاحظ ذلك في البيوت المهجورة المبعثرة وسط حقول مرتفعات أسكتلندة: إذ يشاهد الجدران التي لا تعلوها السقوف بارزة من خلال أكوام من الأنقاض التي تجمعت بسقوط السقوف والأبنية التي كانت تعلوها. وفي كل سنة تتساقط حجارة أخرى من تلك الجدران فتزيد في حجم الأنقاض حتى لم يبق هنالك شيء يدل على البنيان سوى تلة صغيرة تعلوها الحفرة والأعشاب التي تطمس معالمها تماماً. أما عالم الآثار فيستطيع أن يستعيد خارطة بناء البيت من حفرة على أسس الجدران، ومن الأشياء التي خلفها السكان وراءهم عند رحيلهم عن البيت، لأن تلك الأشياء لم تكن ذات قيمة آنذاك. كما يستطيع أن يحصل على بعض الانطباعات لناحية معينة من نواحي ثقافتهم.

فمن مخطط البناء يستطيع أن يحصل على فكرة لمساحة الأرض التي كانوا يحرثونها، وعن كيفية عملية الحرق ذاتها. ومن قطع النقود الضائعة أو من الأشياء ذات العلاقة بحقبة تاريخية معينة ولنقل على سبيل المثال دراجة أو سلاح ناري فإنه يستطيع أن يقدّر متى شيّد البناء ومتى هُجر.

وفي كثير من المناسبات تكون الظروف ملائمة جداً. فإذا نزلت بالبناء أو المدينة أية نازلة كبرى واضطر السكان إلى ترك جميع ما يملكون خلفهم، فإنهم يخلفون العديد من الأشياء التي تكشف لعالم الآثار الكثير عن كيفية معيشة هؤلاء السكان، وخاصة إذا كانت طبيعة النازلة من ذلك النوع الذي يبقي على القسم الأكبر من البناء. وأهم مثل على ذلك مدينتا بومبي وهيركولانيوم، حيث طمرت الأتربة والأوحال البركانية بيوت المدنيين إلى عمق سحيق، لدرجة أن بعض الطوابق العليا من الأبنية بقيت بحالة سليمة.

هذه إذن هي المادة الأساسية التي يكلف عالم الآثار بدراستها عندما يدرس موقع بيت أو مدينة. فهو يهتم بخرائط الأبنية وبما تحويه (وكذلك طبعاً بهندسه البناء إن بقي منها ما فيه الكفاية) فأحياناً تشتمل المحتويات على أشياء فنية وأحياناً على احتياجات البيت العادية، وأحياناً أخرى تحوي أشياء كتابية كنص أُهدي لأحد المعابد الرومانية أو حجر تذكاري يحيي الذكرى المئوية لأحد الأبنية العسكرية عليه كتابة تتعلق بأحد الأباطرة أو الموظفين المسؤولين. بينما في غربي آسيا يمكن للسجلات أو الوثائق الأدبية التي كتبت على ألواح من الآجرّ أن تبقى سليمة. ففي مثل هذه الحالات جميعها يصبح التوفيق بين تخطيط الأبنية وما نعرفه عنها من تاريخ، ودمج الاثنين معاً ضمن إطار تاريخي، من السهولة بمكان. إن مهمة عالم الآثار سهلة للغاية عندما ينقب عن بناء يختص بفترة محدودة أو عن قرية أو مدينة دامت لفترة قصيرة. وكل ما يطلب منه هو المهارة اليدوية حتى لا يتلف الأدوات والأشياء سهلة التلف. وعليه أن يقتفي آثار الأبنية حتى قواعدها ويجد ويحتفظ (وطبعاً يشرح) محتوياتها. ولكن

كثيراً ما يكون للبيت الواحد تاريخ معقد بسبب تغير البناء وإعادته. ولكي تتوصل إلى التاريخ التام لهذا البناء على عالم الآثار أن يعرف ذلك ويضع تفسيراً واضحاً له؛ إذ عليه أن يُرجع الموجودات الأثرية إلى حقبها التاريخية الصحيحة. وكثيراً ما يكون ذلك سهلاً عليه.

ولنعد إلى مثالنا عن بيوت المزارع الأسكتلندية. فلو فرضنا أن مالكاً جديداً جاء بعد أن تهدم البناء الأصلي وتحوّل إلى تلة من الأنقاض، وبنى بيته على رأس تلك التلة، فيكون عندها الحد الفاصل بين البيتين أنقاض البيت الأول، ولا تكون هنالك أية صعوبة في تمييز الأشياء المتعلقة بفترتي البيتين إلا إذا كانت قواعد جدران البيت الثاني ذهبت في عمقها في الأرض حتى ارتكزت على قواعد البيت الأول. وفي كثير من الأحيان يكون الوضع أكثر تعقيداً؛ إذ ربما تكون هنالك نواة سياسية للبناء تجري عليها سلسلة من الإضافات والتحسينات، فيتحول الكوخ البسيط إلى بيت عظيم أو ربما إلى قصر منيف. وعندما تبنى بيوت متعاقبة فوق بيوت قديمة وعلى نفس مستواها أو ربما أقل من مستوى البيوت التي سبقتها، علينا إن أردنا أن نرسم صورة صحيحة للتطور الاجتماعي والاقتصادي لتلك الأمكنة، أن نرجع كل شيء نجده إلى الحقبة التاريخية الخاصة به، وإلا أعدنا تاريخ البناء الأول إلى زمن حديث جداً بالنسبة للحقبة، بالرغم من أن الدلائل تشير بوضوح إلى إرجاعه إلى فترة سابقة معينة، ولربما أرجع الدارس الأشياء التي ربطها بالبيوت المتعاقبة خطأً إلى تاريخ يسبق تاريخها الحقيقي بزمن طويل.

لذا يجوز لنا القول على سبيل المثال أن لدينا دلائل تشير إلى أن الدراجات كانت تستعمل في المرتفعات الأسكتلندية عام ١٨٠٠، لأننا وجدنا عجلة دراجة خارج الباب الرئيسي لأحد المنازل يرجع تاريخه كما دلت بعض قطع النقود إلى التاريخ المذكور سابقاً. بينما في الحقيقة كانت لعجلة في أحد أقبية بيت آخر يعلو لأول يرجع تاريخها لعام ١٩١٠.

أما الحقيقة في الشرق الأدنى فهي على الغالب أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. وسبب ذلك هو أن حياة الاستقرار أخذت مجراها هنا منذ مدة طويلة جداً تفوق مثيلتها في الغرب، بالإضافة إلى أن هنالك ميلاً لإبقاء القرى والمدن على مواقعها الأولى نفسها لمئات أو ربما لآلاف من السنين، وسبب ذلك يرجع عادة إلى كون الموقع نفسه مناسباً من الناحية العسكرية، أو يتمتع بميزات اقتصادية كاقترابه من موارد المياه العذبة الوفيرة.

لقد تعاقب بناء البيوت والأبنية العامة بعضها فوق بعض مراراً وتكراراً بسبب الخراب الطبيعي أو غارات المغيرين أو الزلازل أو الحرائق، فكان كل منها يقوم على أنقاض سلفه، يفصله أحياناً بضع بوصات أو أقدام من الأنقاض، ومع أنه كانت هنالك محاولات تجري للوصول إلى قواعد البيت الأول إلا أن النتيجة العامة كانت تؤدي دائماً إلى ارتفاع مستوى المدينة، فهنالك العديد من بلدان الشرق الأدنى التي تغطيها التلال التي تشير إلى مواقع بلدان أو قرى قديمة متعاقبة. وقد نجد أحياناً على بعض قمم هذه التلال قرى حديثة، بينما تجد بعضها لا يزال مهجوراً كلية. وتسمى هذه الروابي الاصطناعية في البلاد التي تنطق بالعربية بالتلال. فأريحا القديمة مثلاً تعرف اليوم بتل السلطان، ومجدو بتل المتسلم والرابية المركزية في أور بتل المغير. وانتشار هذه التلال هو صفة خاصة بتلك المناطق التي تستعمل الآجرّ أو الطوب الترابي كمادة أساسية في البناء، لأن البناء المشيد بهذا الآجر يتحول ثانية إلى تراب عندما ينهدم، ولا يمكن استعماله ثانية كما لو كان من الحجر. لذا نمت هذه التلال بسرعة.

إن مهمة عالم الآثار هي حفر هذه التلال بطريقة تمكنه بما يجده فيها من آثار استقراء تاريخها، وهذا يعتمد كليّة على معرفة الذوق بين طبقات التربة، ومعرفة ربطها تماماً بالأبنية المتعاقبة فوقها، وبهذه الطريقة يستطيع الباحث أن يعرف ويميز الأشياء التي على سطح أرض هذه الأبنية من تلك التي تحت أرضها، وأيها يخص

أنقاض البناء السابق وأيها يخص الأبنية اللاحقة. وفي سنة ١٨٩٠ وضع السر فلندرز بينزي قاعدة رئيسية لمعرفة مستوى تعاقب الأبنية في الشرق الأدنى. وقد توصل إلى ذلك، أثناء حفرياته في خرائب تل الحسي جنوب فلسطين. أما الصيغة النهائية لقاعدة الحفر في طبقات الأرض فهي من إنتاج علم الآثار في غربي أوروبا، وخاصة في بريطانيا وألمانيا وإسكندنافيا وهولندة.

إن البقايا الأثرية للأبنية القديمة في هذه البلاد غالباً ما تكون قليلة وطفيفة وعادية، لذا فتطوير فن التنقيب عنها كان من الأهمية بمكان، وذلك للحصول على المعلومات تامة. أما التنقيب في الشرق الأدنى فيمتاز بمزاياه العديدة، فهناك المعابد، والقصور والسجلات الرسمية، بالإضافة إلى وفرة ورخص الأيدي العاملة. لذا أهملت عند الحفر هنا ملاحظة التفاصيل الجزئية الأثرية. ففي فلسطين لا يمكن الاعتماد المطلق على قسم كبير من نتائج الحفريات الرئيسية التي أجريت قبل الحرب العالمية الأولى على مواقع المدن مثل غزة والسامرة وأريحا. لذا تحتاج تلك النتائج إلى إعادة في كثير مما توصلت إليه الحفريات في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين. وبالرغم من إدخال التحسينات على الفنون الحرفية إلا أنها لم تأت بنتائج مرضية، فهي بحاجة دائماً إلى تعديل وتمحيص. وسنرى في الفصول التالية العديد من التلميحات إلى بعض ما أعيد النظر فيه.

يستطيع عالم الآثار باستعماله الطرق الفنية الصحيحة عند الحفر أن يحصل على قصة سير الحوادث والتطور الثقافي للموقع الذي يهمه. ولكن هذا هو نقطة البداية فقط، لأن الموقع يجب أن يوضع ضمن إطار إقليمي وتاريخي قبل كل شيء، لأننا نجد في الفترات الأولى من العصور الحجرية القديمة آثار الطابع الإقليمي على الأدوات الحجرية. وتطور هذا الطابع يزودنا بإطار تاريخي واسع يمكن ربطه بحقب العصور الجليدية، وبالسمات الجيولوجية لتلك العصور.

ففي المراحل الأولى التي تلت العصر الجليدي تحد طرق صناعة الأدوات الصوانية والعظمية هي القاعدة الأساسية التي بنيت عليها العلاقات الثقافية. ولكن عندما شاع صنع الفخار أصبحت طريقة صنعه هي الوسيلة الهامة لتحديد مثل هذه العلاقات. ففائدة الأدوات الفخارية فرضت وجودها على كل بيت، وسهولة كسرها ضمنت وجودها في جميع الأمكنة بكميات كبيرة، وعدم فنائها أصبح دليلاً حياً يرشد علماء الآثار إلى نوع الفخار الذي كان مستعملاً. وكان من نتيجة صفتي المحافظة على الشيء ومحاكاته اللتين هما من طبائع الإنسان القديم أن انتشر استعمال أشكال متشابهة من الأواني الفخارية بين السكان المتحدين معاً في المسكن والثقافة، ثم أخذ ينتشر بينهم ما يجدّ من جديد من تلك الأنواع. لذا يمكننا القول إن جماعات الناس "ولنفرض أولئك الذين عاشوا في العصور البرونزية الأولى في فلسطين" الدين استعملوا النماذج الفخارية نفسها كانوا على وجه التقريب معاصرين بعضهم بعضاً، وأن ظهور نموذج جديد في أماكن مختلفة يدل على حقبة تاريخية معينة. فمن خلال الحفر في طبقات الأرض يمكننا ربط هذه الحقبة التاريخية المعينة بحقبة بناء أخرى من تاريخ هذه الأماكن المختلفة.

هنالك أشياء أخرى تحمل الطابع الإقليمي والتاريخي الهامين، فمثلاً هنالك نماذج من الخناجر البرونزية والدبابيس، ولكن كون الفخار نسبياً أكثر شيوعاً من غيره فاقت شهرته شهرة جميع ما عداه من الموجودات.

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين تجمعت لدينا معرفة تامة وحقيقية عن تتابع أشكال الفخار ونماذجه في فلسطين عبر السنين. ولكن هذا التتابع ليس تاريخاً. فالتاريخ في فلسطين لا يستطيع أن يقف على قدميه شامخ الرأس إلا عندما يعالج المرء نسبياً تاريخ الحقب المتأخرة. فحتى تاريخ العصر الألفي الأول ق. م. من تاريخ فلسطين يعتمد على الحلقات التي تصله بتاريخ البلدان المجاورة. وقد مر معنا في مستهل هذ الفصل أنه في نهاية القرن الألفي الرابع أخذت المدن والقرى في أنحاء

أنهار النيل ودجلة والفرات تتفوق على غيرها من قرى ومدن الهلال الخصيب. فزيادة التعقيد في حياة المدن وتنظيم الحكومات شمل ضمن الأشياء العديدة وضع التقاويم. وأول تقويم حقيقي وضع في مصر ربما كان حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. وعند ضم المصادر الأدبية إلى الحقائق التاريخية يصبح بالإمكان إرجاع تاريخ السلالات والحقب التاريخية في كل من مصر وما بين النهرين بشكل دقيق ومعقول إلى هذا التاريخ. أما بالنسبة لفلسطين فإننا نفتقر إلى مثل هذه المصادر الأدبية القديمة وإلى قوائم السلالات والملوك. وحتى بما يختص بتلك الفترة التي تناولتها الوثائق المقدسة بالبحث لا يمكننا الاعتماد على دلائل قوائم السلالات (ستبحث هذه النقاط في فصل لاحق) وتبقى الحالة كذلك حتى تأتي إلى عصر داود حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م؛ إذ حتى هذا التاريخ لم يكن هنالك تاريخ حقيقي بالمعنى الصحيح، حيث كانت الحوادث تسجل على أنها حوادث حدثت فقط وعلى سبيل المثال كانت تسجل على النحو التالي:

"في السنة الحادية والثلاثين لحكم أسا ملك اليهود حدث...."

أما اليوم فيمكننا أن نحدد بدقة تاريخ العديد من ملوك اليهود والإسرائيليين، وما ذلك إلا لأن حكم أولئك الملوك يرتبط في بعض نواحيه بتاريخ مصر.

ولفهم تاريخ العبرانيين جيداً يجب ربط المخلفات الأثرية بتاريخ حكم ملوك التوراة. ولكن قلّما توجد دلائل مباشرة تدعو لمثل هذا الربط. ويستثنى من ذلك السامرة التي أسسها عُمْري فوق مكان لم يسكنه إنسان من قبل وذلك في السنة السادسة من حكمه. ويمكن تحديد السنة بدقة بربط الحادث بالتقويم المصري لعام ٨٨٠ ق.م. ويمكن أيضاً تحديد سقوط السامرة بعام ٧٢٠ ق.م. على أيدي الأشوريين وسقوط غيرها من المدن مثل لاخين على أيدي البابليين بعام ٥٩٦ ق.م. و٥٨٨ ق. م. كما يمكن ربط ذلك بمخلفات أثرية.

وحتى في هذه الحقب التاريخية المتأخرة نسبياً علينا أن نلجأ إلى تتابع الحوادث التاريخية، والى تحديد هذه الحوادث بأقصى دقة ممكنة بحوادث معروفة جيداً لدينا. لقد وجدت فعلاً كمية لا بأس بها مما كتب عن فترة الممالك اليهودية، ولكنها تخلو جميعها من أي نص تاريخي يتعلق بتاريخ المكان، كما تخلو من حقائق تاريخية محددة لحادثة حدثت في ذلك الموقع. بالإضافة إلى أن المعرفة بالكتابة العبرية القديمة ليست تامة حتى الآن: إذ يجب إرجاع النص الكتابي في تاريخه إلى المكان الذي وجد فيه وليس العكس.

أما حوادث العصور القديمة التي سبقت عصر التوراة فقد وردت بشكل أحاديث متواترة وليس بشكل تاريخ معاصر. والإطار الوحيد الذي يمكن بواسطته وضع هذه الحوادث في مكانها الحقيقي هو التتابع الأثري. ويمكن إضفاء أهمية تاريخية واسعة على هذا التتابع بربطه بتاريخ مصر تارة وبتاريخ ما بين النهرين تارة أخرى. ففي نهاية الألف الرابع وطوال الألف الثالث أخذت ترد إلى فلسطين بعض الواردات التي ساعدت على ربط تاريخ فلسطين بتاريخ تلك البلاد، التي دخلت فعلاً عصر التاريخ. ويبدو هذا واضحاً في العديد من المخلفات الأثرية. إن تاريخ الساحل الفلسطيني والسوري قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً منذ القدم بتاريخ السواحل المصرية. وعندما أسست الإمبراطورية القديمة حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م. وحتى قبل تأسيسها كانت هنالك علاقات وثيقة بين الساحلين امتدت شمالاً حتى بيبلوس الواقعة إلى الشمال تماماً من بيروت. وربما كانت هنالك بعض السيطرة السياسية على الأرضي الساحلية. أما بالنسبة لفلسطين فتدل هذه العلاقات دلالة أكيدة على أن عصر الاستقرار و لتقدم الحضاري أثناء العصر لبرونزي القديم كان معاصراً تقريباً للإمبراطورية القديمة. أما العصر البرونزي المتوسط في فلسطين فيمتاز بغزوات البدو الرحل، وهو يتفق مع العصر 'المتوسط الأول، حيث توقفت المدنية في مصر لنفس الأسباب وربما على أيدي نفس الجماعات المغيرة من الناس.

أما استئناف المدنية في العصر البرونزي المتوسط فيتفق مع الإمبراطورية المتوسطة في مصر، ويثبت ذلك العديد من الواردات التي تعكس التلاحم الوثيق بين البلدين. ويمكن اقتفاء حادث عزو الهكسوس لمصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م. في فلسطين أيضاً. وتشير الحوادث على أن أول ملوك السلالة الثامنة عشرة في مصر قد قدعوا بالهكسوس ثانية إلى فلسطين حوالي ١٥٦٠ ق.م. لذا فتطور الآثار في فلسطين منذ حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م يمكن ربطه إجمالاً بتاريخ مصر المحدد. وجميع المحاولات لتحديد تواريخ محددة بسنوات ضمن هذه الروابط الإجمالية جميعها من سبيل التخمين فقط.

إن تاريخاً يستند إلى التقويم القديم لا يستطيع أن يذهب بنا إلى أبعد من سنة ٣٠٠٠ ق.م. وحتى وقت متأخر كان هذا كل ما لدينا، وكل ما سبق ذلك كان من سبيل الحدس والتخمين. وحتى تواريخ الفترات المحددة بالسنين هي أيضاً حدس وتخمين. ومنذ سنة ١٩٤٤ استعملت طريقة جديدة في الوصول إلى تاريخ محدد كان أول من أوجدها هو الدكتور لبي Libby في شيكاغو وتعرف عادة باسم طريقة الكروبه-١٤ أو طريقة النشاط الإشعاعي الكربوني، وتعتمد هذه الطريقة على الحقيقة القائلة إن جميع العضويات الحية من إنسان وحيوان ونبات تمتص النشاط الإشعاعي طالما هي حية. وعند موتها تعود وتطلقه بمعدل يكاد يكون منتظماً. لذا يمكن أن نقيس الكمية المتبقية من هذا الإشعاع في المواد العضوية التي نجدها في الأماكن الأثرية. ولعدة أسباب فنية كان الفحم النباتي – ثم تلوه الأصداف– هو أفضل مادة عضوية لهذا الفرض. وبمقارنة الكمية المتبقية من النشاط الإشعاعي ومعدل الخسارة السنوية الثابتة يمكن معرفة تاريخ موت تلك المادة العضوية. وعلى سبيل المثال يمكن تحديد تاريخ قطع شجرة ما. وهذه الطريقة لا يعتمد عليها بشكل جازم حتى اليوم ولكن عدة نتائج مناسبة بما فيها تلك التي يمكن مقارنتها بحقائق حصلنا عليها من مصادر أخرى تشير إلى أنه بالإمكان أن تؤدي هذه الطريقة إلى فائدة عظيمة لدى علماء

الآثار. وقد وجد أن هنالك دائماً نقصاً معيارياً ثابتاً قدر بحوالي ١٥٠ للفترات التاريخية التي تلت سنة ٣٠٠٠ ق.م. ولكن لا ينتظر أن تأتي طريقة الكربون-١٤ بنتائج دقيقة كتلك التي تقوم على أساس أثري. ولكنها هي المصدر الوحيد لدينا لمعرفة تواريخ العصور الأولى. وكما سنرى هنالك حوادث أرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٩٠٠٠ ق.م. وبتراكم الدلائل التي نستقيها من ملاحظات أخرى يمكننا التأكد من صحة النتائج التي لدينا أو عدم صحتها، وعندها يصبح بإمكاننا وضع حقب وحضارات أخرى ضمن إطار التاريخ العام.

الفصل الثاني

بدء حياة التوطين

على المنحدرات المواجهة للبحر في جبل الكرمل عدد من الكهوف قدمت شاهداً على احتلال الإنسان لها على مدى عشرات الألوف من السنين طوال العصر الحجري القديم، وقد أقام الصيادون الذين يشبهون بقرنائهم من الأوربيين من حيث الشكل والأدوات التي استعملوها في هذه الكهوف ووجدت فوق طبقات العصر الحجري القديم طبقات أخرى تعود إلى العصر الحجري المتوسط وإبان الفترة التي كان فيها الغطاء الجليدي في أوروبا يتراجع، كان أسلافه هؤلاء من صيادي العصر الحجري القديم يكيفون أنفسهم حسب بيئتهم المتغيرة. وفي كهوف جبل الكرمل شواهد على أن الإنسان في فلسطين قد اتخذ أسلوباً جديداً في الحياة أيضاً.

الحضارة الناطوفية

فوق الطبقات التي تضمنت أدوات العصر الحجري القديم شواهد على ظهور مجموعة جديدة، وأن صناعة الصوان كما يظهر لم تنحدر مباشرة من حضارة العصر الحجري القديم المتأخر. ولم تعرف للآن أصل هذه الصناعة. وعلى كل حال يظهر أنها كانت مستوحاة من حضارة سكان فلسطين الأصليين والتي وحدت فقط شمالاً حتى أواسط لبنان الأوسط والى الجنوب إلى مدى مدينة حلوان في مصر، وسميت هذه الحضارة باسم الناطوفية نسبة إلى وادي الناطوف حيث وجدت أول الأمر. وشبيهة بالصناعة التي عمت العصر الحجري الأوسط في أوروبا. كان الصوان

يحتوي على العديد من الأحجار الرقيقة والرقائق الصغيرة من مختلف الأشغال ويحتمل أن الكثير منها قد استعمل كجزء من الأدوات المتجمعة، والكثير من هذه الأحجار لها تشكيلة هلالية وهي رقائق غاية في الرقة (الدقة) وذات حد مستقيم وسلالية الشكل من الخلف، وقد وجد ما يزيد عن أربعة آلاف من هذه الأحجار في أحد كهوف جبل الكرمل.

عاش الناطوفيون سكان جبل الكرمل وسكان الملاجئ الصخرية على المنحدرات الشرقية والغربية لتلال القدس والخليل بصورة رئيسية، على الصيد، وقد وجدت في كهوف جبل الكرمل كميات هائلة من عظام الغزلان، مما يدل على أنه بينما كانت الظروف تتغير في أوروبا بفضل ارتداد الثلوج كانت فترة الأمطار الغزيرة في منطقة البحر المتوسط في طريق الزوال، وكان صيد السمك هو إحدى وسائل المعيشة آنذاك؛ إذ وجدت رماح وصنارات من العظم تؤيد ذلك.

وكان هناك نموذج من الأدوات التي وجدت ذو أهمية خاصة في الحضارة الناطوفية وهو المنجل، وقد وجدت مجموعات عديدة من الأنبال ذات حد قاطع وحرف عريض تالف من جراء الاستعمال وكقاعدة، كان الخلف مشذباً ويشابه حرف ٧ ووجدت أيضاً أجزاء من المقابر المصنوعة من العظم مع أحجار من الصوان على وضعها التي تركت فيه، ومن ثم مقبضان اثنان كاملان نقش على أحدهما رأس أو رقم في نهايته.

ووجود المناجل لا يعطي برهاناً على أن الزراعة قد بدأت؛ إذ من المحتمل أن المناجل استعملت لجمع الحبوب البرية، والكثير من المعنيين بالأمر على أية حال يقبلون وجهة النظر هذه بأن الحضارة الناطوفية في جبل الكرمل قد بدأت بزراعة الحبوب، كما أن البعض الآخر يدعي أن الحشائش لا يمكن حصدها بمثل هذه المناجل، فإن رؤوسها كانت هشة جداً ويؤدي استعمالها إلى إضاعة الحبوب، ونشأ جدال قوي أيضاً على أن عناية كبيرة قد بذلت لأجل تكييف المناجل، ولان أجزاء كبيرة من أنصال هذه

المناجل قد وجدت فإنها تمثل شيئاً ذا أهمية بالغة في حياة تلك الجالية، ومن المؤكد أيضاً أن الجماعة التي عاشت عصر الحضارة الناطوفية والتي سكنت منطقة جبل الكرمل ولزمن طويل جداً من المحتمل أن هناك شيئاً قد ربطهم في تلك المنطقة. وعليه يمكن إثبات هذه الحقيقة بناء على بعض التجارب التي أجريت على الزراعة في فلسطين في مرحلة الانتقال التي تلت نهاية عصر الجليد.

والنقطة الرئيسية المهمة المتعلقة بالناطوفيين هي طريقة دفن موتاهم، فقد كانوا يدفنون موتاهم تحت المنطقة المأهولة بالأحياء منهم، وفي مغارة الواد في جبل الكرمل دفن أكثر من ستين فرداً في تلك المغارة أو المسافة التي أمامها، وظهر أن طريقة الدفن القديمة هذه كانت جماعية؛ إذ كانت الجثث تلف بلفائف من الكتان بإحكام، أما الطريقة التي تلتها فكانت إفرادية وشاهداً على ذوق الناطوفيين للزخرفة الشخصية. ففي كل مجموعة كانت مجحفة ولعلها مجمعة أهم عضو في العائلة. مزينة بإحكام بالأصداف والعلاوات، وكانت مواد التزيين بشكل عام عبارة عن أصداف مسننة ومجموعات صدفية صغيرة التي يمكن التقاطها عن شاطئ فلسطين في هذه الأيام. وبالطبع كانت هذه الأصداف في متناول يد سكان الكهوف في جبل الكرمل. ولكنها توجد أيضاً في أماكن تقع على المنحدرات الشرقية لتلال تلك الجبال كدليل على أن الأصداف في ذلك التاريخ المتقدم من الممكن جمعها أو جلبها من مسافات بعيدة، وأدق استعمال كان لهذه الأصداف في الزينة هو غطاء للرأس مرتب على شكل مروحة على كلا جانبي الرأس، وكانت الجثث مزينة بقلائد مصنوعة من الأسنان المثقوبة أو من عظام أظلاف الغزال، أو منقوشة في العظم ومرتبة ترتيباً وضعياً مثل رؤوس مقابض الجولف الخشبية المتقابلة.

وكان دفن الموتى إجراء ذا طبيعة دينية نوعاً ما (تقريباً)، ففي مغارة الواد كان الحائط والأرض وبعض الأحواض المحفورة في الصخر كما يظهر من مجموعة من المدافن. وفي عرق الأحمر كانت هناك مجموعة مماثلة من المدافن قد غطيت بطبقة

من الحجارة المرصوفة. وفي عين الملاحة على شواطئ بحيرة الحولة في وادي الأردن وجدت مقبرة تماثل بدرجة كبيرة جبل الكرمل. تغطيها طبقة من الأصداف المسننة، وذلك في حفرة مطلية بالجص ومغطاة بطبقة من الحجارة المرصوفة عليها طبقة أخرى من الحجارة المرتبة بشكل دوائر.

وفي الفترة التي تلت عصر الجليد كانت فلسطين على أية حال تسكنها – جماعة كانت طريقة حياتها تشبه حياة الجماعات التي عاشت في العصر الحجري المتوسط في أوروبا من عدة أشكال، وخاصة في اعتمادها على صيد الحيوانات وصيد الأسماك، وفي استعمالها الأدوات المرهفة. أما التزيين فكان شيئاً مختصاً بهذه الجماعة. ولكن حتى النقش على الأختام والأحبار كانا غريبين عن الحاليات الأوروبية المشابهة. واحتمال مزاولة هؤلاء القوم للزراعة هي شيء فريد في نوعه بالأشياء التي وجدت في جبل الكرمل هي آخر التخمينات عن مدى تدبير الطعام والذي اكتشفت شواهد من قبل.

وعاش الناطوفيون في جبل الكرمل وفي أماكن أخرى زمناً طويلاً. فالعصر الناطوفي الأعلى والأوسط يمكن التعرف عليهما من التطورات التي طرأت على أشكال الأدوات التي استعملت في ذينك العصرين. وعلى العموم فهذه الأدوات تمثل الانحطاط وخاصة الانحطاط في الأدوات التي طبعت من النظم. ففي العصر الناطوفي الأخير وجدت صناعة رؤوس النبال الجيدة، ومن الادعاء أن هنالك شاهداً على تأهيل (توجيد) الكلاب في العصر الناطوفي الأوسط في الفترة الأخيرة.

ولكن أصبح الآن محتملاً أن التسلسل من العصر الناطوفي الأول إلى العصر الناطوفي المتوسط والأصغر بشكل مشابه لهذه الأدوات، ولكنه أقل إتقاناً فليس هو الدليل الوحيد على هذا التطور. ففي سنة ١٩٥٧ استطاعت البروفسورة دوروثي جارود أن تقول "لا يوجد دليل على وجود الحضارة الناطوفية على سطح أي تل من

التلال الفلسطينية"، إلا أن هذا الموقف قد تغير الآن بفضل الاكتشافات الأخيرة التي وجدت في أريحا.

وأريحا القديمة هي اليوم ركام يبلغ امتداده عشرة أفدنة وارتفاعه ٧٠ قدماً خارج جنائن أريحا الحديثة. وتدين أريحا القديمة بامتدادها هذا كما هي أريحا الحديثة إلى وجود جدول دائم الجريان ورائع يجري تحت قدميها. ويستمد هذا الجدول مياهه من احتياطي من الماء مخزون تحت الأرض تزوده مياه الأمطار التي تهطل على سفوح الجبال بمصادره، وهي شيء حيوي لمدينة أريحا نفسها. وتكثر الأمطار بشدة في حوض نهر الأردن في فصل الشتاء. ولكن الحرارة العظيمة (الشديدة) في الصيف في هذه المنطقة (ففي أريحا والتي تقع على انخفاض ٩٠٠ قدم تحت سطح البحر) تجفف كل شيء. أما في المناطق التي ترويها مصادر مياه دائمة لنبع عين السلطان في أريحا تصبح الأرض الغنية بتربتها ذات إنتاج هائل.

وتل أريحا القديمة شاهد أكيد على أهمية هذا النبع. وطوله الذي يمتد إلى ٧٠ قدماً كان نتيجة لاحتلال الإنسان لهذا الموقع لفترة تزيد على سبعة آلاف سنة. ويتدفق هذا النبع من الجهة الشرقية للتل شاقاً طريقه من الأرض على امتداد مناطق واسعة. ومن المحتمل أن المصدر الرئيسي لهذا النبع هو كهف من الحجارة الكلسية يقع تحت الأنقاض ولم يكشف عنه بعد. ولكن من الواضح وبناء على الدليل الناتج عن تكشف عدة مناطق صخرية على أنه قبل أن يكون هنالك وجود لأقوام سكنوا تلك المنطقة، فإن سطح الصخور قد انحدرت بشكل هادئ نزولاً من الغرب ومن سفوح تلال الجدار الصخري الذي يحف وادي الأردن. ومن الممكن أن النبع قد تدفق إلى السطح في نفس النقطة التي انبسطت فيها انحدارات التلال نزولاً إلى السهول الغنية بالطمي في باطن الوادي. ومن الممكن أن الصيادين قد زاروا هذا النبع ابتداء من المراحل الأولى للعصر الحجري القديم، كما أن الحيوانات التي كانوا يصطادونها قد أمّته من دون شك.

وقد وجدت يد فأس من العصر الحجري القديم في إحدى طبقات العصر الحجري الحديث، ولكن لم تكن هنالك وسيلة للقول: إذا ما كانت قد جيء بها من المنطقة المجاورة أو من منطقة أكثر بعداً منها. وأول شاهد قاطع على هذا المكان هو ما يختص بالعصر الحجري المتوسط. فعلى الطبقة الصخرية الممتدة باتجاه الجهة الشمالية كشفت الحفريات في ١٩٥٨ عن بناء غريب، ففي هذه المنطقة كانت الطبقة الكلسية الأساسية في حالتها الطبيعية ومغطاة بطبقة أخرى من الطين يبلغ سمكها قدماً واحداً، وعن أكثر المنطقة التي جرى التنقيب فيها كان هذا الطين قد أزيل من قبل إنسان ما كاشفاً عن الطبقة الكلسية، ولكن عند طرف المنطقة الجنوبي ترك مقدار من الطين رباعي الشكل عرضه ٣,٥ متر وبطول أكثر من ٦,٥ متر، وأحيط بجدار قوي من الحجارة وأعمدة من الخشب متداخلة في الجدار على مسافات متقاربة.

وكان البناء لا يشابه أبداً أي منزل للسكن وجد في هذا المكان، وعلاوة على هذا وجدت معالم تستخدم للاهتمام: إذ كانت هناك كتلتان من الحجر الكبير الحجم مبنيتين في الجدار وبداخلها تجاويف حفرت، وظهر أن عمق الحفر متران و٦ إنشات. والظاهر أن الغاية من وجود هذه الحفر هي أن تكون قاعدة ترتكز عليها الأعمدة التي بدت من مظهرها تشبه تجويف العلم، وعليه فقد أوعزت بالتخمين أنها قد حملت أعمدة تمثل حيوانات أو نباتات بحجم أعمدة الأعلام. ومع أن الصخور المجاورة كانت مغطاة بالأنقاض والنفايات فقد بقي سطح الطين المرصوف نظيفاً نظافة تامة على مدى الزمن الذي كان مستعملاً فيه، ولذلك من الممكن أن هذا البناء الغريب كان حرماً مقدساً أو أي نوع آخر من المقدسات، والتفسير لهذا البناء هو شيء مرض فقط، ولكن وضعه المحدث هو شيء أكيد بلا شك. وقد استبعدت من الأنقاض مجموعة من الأشياء كانت من مخلفات العصر الناطوفي بكل تأكيد. وبين الرقائق الصوانية العديدة كانت قطعة صغيرة هلالية الشكل وجميلة، وأكثر هذه الأشياء وضوحاً رأس

حربة من العظم، وهذا بشكل خاص يهم جداً حيث إنه قد وجدت مثل هذه الحراب في جبل الكرمل فقط وفي طبقات العصر الناطوفي الأول، ولذلك فإن أول شكل لمدينة أريحا بنته جماعة تعود إلى أقوام العصر الحجري الأول الذين كانوا يسكنون كهوف جبل الكرمل. وهكذا يستطيع الإنسان أن يفسر نوع هذا البناء بشكل معقول على أنه حرم مقدس أقامه صيادو العصر الحجري المتوسط بجانب نبع أريحا؛ إذ كانت مصادر المياه مقدسة عند الأقوام البدائية خلال العصور، فقد وجدت أوانٍ صغيرة وجميلة للنذور عند مصدر (سين) Seine ووجدت أيضاً الكثير من الأواني الرومانية والبريطانية في بئر (كوفنتينا) Coventina على جدار روماني في بريطانيا. وحتى في هذه الأيام وفي الشرق تعلق الرقاع بجانب الينابيع استرضاء لروح الينبوع. ومن يمن الطالع بالنسبة لعلماء الآثار فإن هذا البناء قد أحرق أخيراً. وكانت المناطق المحيطة مغطاة بطبقة من الفحم النباتي هي بقايا الفوارس الخشبية المحترقة التي كانت بداخله. وقد تبين من فحص الفحم الكربوني ١٤ إلى أنه يعود إلى سنة ٧٨٠٠ ق. م. + ٢١٠. وحتى في حدود معرفتنا الحاضرة يجب على الإنسان أن يكون حذراً في استعمال كربون ١٤؛ إذ إن الاعتماد عليه ما يزال تحت تجارب كاملة، وهذا الكربون قد أعطانا لأول مرة نقطة ابتداء ثابتة نسبياً لمرحلة الانتقال في تطور الإنسان إلى حياة المدنية.

ومن المؤكد أن الصفة العامة لبنّائي العصر الحجري المتوسط الذين قاموا بإنشاء هذا البناء هي أنهم كانوا من الصيادين وجامعي الطعام، ولكن كما رأينا من الممكن أن سكان كهوف جبل الكرمل كانوا يقومون بتجارب زراعية، وذلك كشرط أساسي لأية إقامة مستقرة. وتبين المكتشفات التي وجدت في أريحا أن هذه التجارب قد وضعت أسس النجاح للزراعة، وتم في اتجاه مركز التل اكتشاف هام جداً. فقد وجدت سلسلة من الأبنية تعود إلى العصر الححري الحديث وكان بين هذه السلسلة الطبقة الصخرية ركام وعرضه ١٢ قدماً والذي لم يستدل منه على قيام أي بناء متماسك،

وقد أثبتت طبقة مجاورة أن هذا الركام البالغ عرضه ١٢ قدماً قد أقيم على قاعات لا تعد، محاطة بجدبات هزيلة هي كل ما بقي من هذا البناء الهزيل لذلك فقد عاش بعض الأقوام لزمن قصير جانب النبع في أريحا عيشة بدائية تقوم على الصيد. وبعد مضي وقت طويل فقط تبين من عدد القاعات التي دخلت في هذا البناء إلى نواة التل حتى ١٢ قدماً أن هذه الفترة كانت تاريخاً مميزاً بدأ منه هؤلاء الأقوام بإشادة أبنية متينة وراسخة. وأخيراً فإن بعض الموهوبين قادوا الطريق لبناء البيوت الثابتة، ويستطيع الإنسان أن يقول إن أول البنائين الفلسطينيين قد بدأوا في الظهور، وهذه المنازل كان منشأها الملاجئ البدائية؛ إذ كانت مستديرة أو ذات جدران منحنية في نمطها والإعناءات الداخلية لأجسام الجدران القائمة هذه توحي بوجود رفوف مقببة داخلها. وهي انتقال لوسيط رأسي للأكواخ المؤقتة التي سكنتها القبائل البدوية، فمن الشرق كان لها شرفة بارزة حيث وجد مدخل متحدر أو مدرج يؤدي إلى الداخل من طبقة علوية خارجه. وشيدت الجدران بطوب من النوع المعروف (بالمحدب المستوي) مع قاعدة مسطحة وقمة منحنية كثيراً ما كان لها شكل منحدر وفي بعض الأحيان كان يدخل في نقوش هذه الجدران أعمدة أو ركائز من القضبان المجدولة وفترة الاستقرار الانتقالي أو ما يسمى بفجر العصر الحجري الحديث، والذي وجد فيه الركام المؤلف من ١٢ قدماً مع عدم وجود أي بناء أساسي، كانت هذه الفترة في الظاهر غير طويلة؛ إذ وجد الركام في منطقة واحدة فقط، ولكن المرحلة التي تطور فيها البناء الرأسي قد تلاها امتداد أوسع بعدها، فقد وجدت المنازل المستديرة من أول التل إلى آخره على امتداد منطقة يقدر اتساعها عشرة أفدنة.

والأهمية العظيمة لهذا التطور هو تفرد مباشرة من الزيارات الأولى للصيادين الناطوفيين في العصر الحجري المتوسط الذي يستدل عليه من أبنية العصر الحجري المتوسط، فإن نفس صناعة الصوان والعظم والمرتبطة بالحضارة الناطوفية في جبل الكرمل تعود مباشرة خلال مرحلة الانتقال في فجر العصر الحجري الحديث إلى

مدى واسع من الاستقرار، حيث أعطي التصميم العائد إلى ما قبل العصر الحجري الحديث، وعليه فقد قدمت أريحا شاهداً للعملية التي كان يرنو إليها علماء الآثار وهي مرحلة انتقال الإنسان من حياة الصيد إلى عضو في جالية مستقرة.

وبعد أن اتسعت المستوطنة إلى مداها الكامل أحيطت بأسوار قوية لحمايتها. وظهرت بعدها بمظهر المدينة. وكان سور المدينة هذه متيناً ومبنياً من الحجارة المتراصة عرضه ٦ أمتار و٦ إنشات. وفي الطرف الجنوبي والشمالي وجد هدم حتى أساسه، ولكن في الطرف الغربي بقي قائماً إلى علو ١٢ قدماً. وهنا فإن المنطقة المكتشفة تتوافق زمنياً مع موقع برج من الحجارة الكبيرة بني داخل السور الذي ما زال قائماً إلى علو ٣٠ قدماً. ويظن أن هذا البرج قد أنشئ لأجل الدفاع عن المدينة وزود بممر يصعد على اثنتين وعشرين درجة. يبدأ من الطرف الشرقي ويؤدي إلى قمة هذا البرج. والبرج بكامله شيء مدهش في فن البناء.

وللبرج والتحصينات تاريخ طويل. ويمكن التوصل إلى ثلاث مراحل بناء رئيسية للبرج ولسور المدينة. فعلى طول الجدار الثاني للمدينة يمتد خندق منحوت من الصخر عرضه ٢٧ قدماً وعمقه ٩ أقدام. والمرحلة الثالثة والأخيرة لجدار المدينة، وفي الوقت الذي بني فيه ارتفع السطح الداخلي بصورة عامة، وفي جهته الداخلية كان الجزء الأسفل ينهض منفرداً ولكنه بني مسنداً إلى (حشوة) ولا يزال قائماً إلى ارتفاع ٢٥ قدماً، وبالتالي فقد بنيت سلسلة من المنازل على طول المنحنيات خلف البرج والسور والمنزل الثالث في هذه السلسلة المتتالية كان قد أحرق ومن الفحم النباتي الناتج عن احتراق الأخشاب على أرضه نشأت مادة أعطت الكربون ١٤ تاريخاً يعود إلى ٦٨٥٠ ق.م. وهذا التاريخ بالطبع يأتي بعد تاريخ البرج والتحصينات التي تعود إلى ٧٠٠٠ ق.م.

ولذلك فإن أبناء صيادي العصر الحجري المتوسط الذين أقاموا معبدهم بجانب النبع في أريحا قد أنجزوا تقدماً رائعاً. وفي سياق فترة ظهور الفحص للكربون ١٤ التي تقدر بحوالي ألف سنة أتموا مرحلة الانتقال الكاملة من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار، حيث نشأت جالية على جانب كبير من التعقيد؛ إذ إن التحصينات الجليلة هي دليل على وجود جالية منظمة ومقتدرة. وعندما جرت هذه الاكتشافات في أريحا فإن أقدم القرى التي عرفت في أمكنة أخرى يعود تاريخها إلى ألفين من السنين بعدها. وأن أهرام مصر وهو أول بناء عظيم أقيم من الحجارة في وادي النيل هو أصغر بأربعة آلاف سنة من البرج الكبير في أريحا، والأسباب التي أدت إلى هذا التطور هي - وبشكل واضح- ذات أهمية كبرى.

ومن الممكن الاستدلال -ولدرجة كبيرة- على الاحتمال بأن هذه المستوطنة التي تعود إلى ما قبل العصر الحجري الحديث في أريحا قامت على قاعدة ناجحة للزراعة، والشاهد الحقيقي على هذا لم يوجد بعد؛ إذ إن العينات التي كان يؤمل بها أن تقدم معلومات حول الحبوب لم تفحص بعد. وهذا الاستدلال يمكن القيام به من حجم المستوطنة هذه. ومن منطقة بناء مساحتها عشرة أفدنة يمكن على حسب المقاييس الشرقية الحديثة أن تؤوي جمعاً من السكان بما يقدر بحوالي الألفين، ومثل هذا الجمع لا يمكن أن يعيش على موازنة من الحبوب والحيوانات البرية، وعلى التي كانت في متناول يد هذه المستوطنة. وفي مرحلة من مراحل احتلال هذا الموقع والتي تدعو الإنسان إلى الظن بأنها موجودة مع تطورات مركز التل البالغ ١٣ قدماً من الركام، فإن أول التجارب في الزراعة والتي تنسب إلى أسلافهم من ساكني الكهوف جبل الكرمل وأماكن أخرى قد تطورت بفضل الناطوفيين الذين عاشوا في أريحا إلى إنتاج عملي عظيم للطعام، وهذا يقدم بصورة مكتفية مؤناً من الطعام وافية تمكنهم من الاستقرار بشكل دائم في هذا المكان، وبناء المساكن المتتالية والشبيهة بالأكواخ، ولكن ماء النبع في حالته الطبيعية كان يصل إلى منطقة محدودة فقط، واليوم فالواحات

المنتشرة قامت ببناء القاعدة الرئيسية في الري. ويمكن تقديم استدلال آخر على نوع الاقتصاد الذي ساد ما قبل العصر الحجري الحديث في أريحات، وفي المرحلة التي ازداد فيها السكان واحتاج الأمر إلى منطقة كبيرة من الحقول فلا بد أن تكون قنوات للري أنشئت لتحمل مياه النبع إلى مناطق بعيدة.

وهذا الاستدلال له متضمنات مهمة، فنجاح عملية الري تتضمن قاعدة متقنة ومنظمة وهي نظام القنوات الرئيسية التي تزود القنوات الفرعية، والتي تروي الحقول عند إغلاق بوابة التصريف، لذلك فإن القنوات يجب أن تخطط تخطيطاً منظماً؛ إذ يجب أن يحدد الوقت الذي يلزم لكل مزارع لسحب المياه بإغلاق بوابة التصريف، ويجب أن يكون هنالك عقوبات ضد الذين ينتهكون الأنظمة الموضوعة، وعليه فالمتضمنات هي أنه يجب إيجاد منظمة مركزية مكونة من الجالية، والشروع في إيجاد نظام قوانين تقوم المنظمة بتطبيقه. وقد استدل منذ زمن أن العامل الرئيسي في تطورات القرى على ضفاف النيل ودجلة والفرات إلى مدن ودول كان الاعتماد على الري، الذي قدم لهم ازدهاراً عظيماً ومكاناً حافزاً على نشوء حياة المدينة، واستدل على أن شيئاً ما من نفس النوع قد تطور في أريحا.

أما فيما يتعلق بالدليل على وجود الري فلا يمكن أن يكون أكثر من استدلال؛ إذ إن جميع المنطقة المختصة لا زالت مغطاة الآن بالحقول الحديثة وقنوات الري، ولكن الدليل بوجود نظام جماعي مقتدر هو فيما يرى في نظام الدفاع الهائل، والشاهد العيني الذي يقدم حلقات ترتبط مع سلسلة الحجج والبراهين القائمة على مقدار حجم المستوطنة، فاتساع المستوطنة يسبق بناء التحصينات، وهكذا فإن الحاجة إلى الري دعت إلى وجود النظام الذي تدل عليه التحصينات.

وكان هنالك تباينات كبيرة وممكنة بين مستوطنة الناطوفيين في أريحا والمستوطنات الأخرى حيث وجد الشاهد على مراحل المتطورة منذ العصر الناطوفي

الأول. ويظهر أن هنالك خطين لهذا التطور، فقد سكنت جماعات أخرى أقامت مستوطنات لها في أماكن مشابهة، ومن الصعب أن يصدق بأن أريحا قد تطورت بصورة منفردة قبل العصر الحجري الحديث، فيجب؛ إذن أن يكون هنالك أماكن مشابهة لم ينتبه لها، لأنها لم تكن كبيرة. ولكن أبناء عم الجماعات المستوطنة الذين عاشوا بصورة رئيسية في التلال؛ أي في مناطق أقل إمكانية للري، استمروا يحبون نفس حياة العصر الحجري المتوسط، واستمروا كصيادين وجامعين للطعام، وقد قدمت الكهوف والملاجئ التي كانون يعيشون فيها الأدوات التي وصفت على أنها من العصر الناطوفي الأوسط والأخير.

وقد ادعي أن واحدة من هذه الأماكن وهي (الخيام) بالقرب من بيت لحم تبين مرحلة انتقالية جديدة، وصناعة الصوان والتي اعتبرت لمدة طويلة صناعة كلاسيكية في العصر الحجري الحديث في فلسطين دعيت بالصناعة (الطاحونية).

وفي (الخيام) ادعي أن الصناعة هذه قد تطورت عن الصناعة التي عمت العصر الناطوفي الأخير، ولذلك فإن هذا الادعاء يعني أن جماعة العصر الناطوفي هم من سلالات أبناء عم المستوطنين في أريحا، ولم يقبل كل المختصين هذا الاتفاق إطلاقاً، والاقتراح المغاير هو أن العصر الطاحوني قد وضع أقدم من العصر الناطوفي. وفي هذه الحالة يجب علينا أن نأتي بالعصر الطاحوني من الخارج ومن مصدر لم يتبع بعد.

ومع إمكان القول بأن أقوام العصر الطاحوني هم من سلالات أقوام الناطوفيين الذين استمروا لزمن طويل يحبون حياتهم البدوية، فهم بالتأكيد ليسوا من سلالة لأقوام التي استوطنت أريحا. وقد ظهر الطاحونيون هناك ولكن بعد فترة وقت كاملة. وأينما فتشت في مدينة أريحا قبيل العصر الحجري الحديث وعلى طول طرف التل سيظهر أن الطبقات قد عانت تعرية واضحة، ففي الجانب الغربي للتل

يوجد خندق، يظهر منه بوضوح أن الجزء الأعلى من سور المدينة قد تهاوى أخيراً. فالطبقات التي تمثل المنازل المتتابعة التي بنيت أمام طرفها الداخلي قد تآكلت منها مثل قمة البرج أيضاً، ولكن الأنقاض الناتجة عن هذا الخندق تراكمت أمام أساس سور المدينة، وبمضي الوقت وصلت الأنقاض إلى نهايتها وغطت سور المدينة بكامله. وفي الموقع وتجاه الطرف الشمالي لهذا الموقع مثّل قاع الجدول إحدى مراحل التآكل الذي انخفض إلى مستوى المنازل في مراحل ثلاث متوالية قبل أن يمتلئ بالغرين نهائياً، وفي الأماكن الأخرى فالمشاهد مشابهة أيضاً.

ومن المستحيل القول كم هي الفترة من الزمن التي أخذتها المرحلة — مرحلة التعرية هذه، ومن الممكن أنها حدثت بسرعة كبيرة أو قد تكون استغرقت مدة طويلة من السنين، والواضح جيداً بأنها تبين نهاية احتلال سكان قبل العصر الحجري الحديث؛ إذ من الممكن أنهم طردوا ودمرت مدنهم من قبل الأقوام الذين سبقوهم، أو من جراء كارثة كهزة أرضية مثلاً أدت إلى تحويل مصادر الماء مؤقتاً إلى تدمير نظام الري فهجروا الموقع.

وكان حلفاء هؤلاء من أقوام آخرين مختلفين كلية أعطوا اسم ما قبل العصر الحجري الحديث لهم، وكانت صناعة الصوان لديهم طاحونية، وأكثر أدواتهم تقريباً مختلفة أيضاً حتى في شكل المهارس Querns والطواحين الحجرية التي كانوا يستعملونها، ولكن المدهش أكثر من غيره هو الفرق في فن البناء الذي وصف أدناه، والذي يحوي منازل ذات غرف عديدة واسعة مقامة على نمط استقامة الجدران.

ومن ناحية تاريخية فأهم نقطه هنا هي أن الوافدين الجدد قد وصلوا. وقد تطور فن البناء هذا بشكل كامل ومباشر. وفوق الطبقات المادية ظهرت المنازل المصفحة التي بقيت على مدى ما قبل العصر الحجري الحديث فترة في أريحا، وهذا يعني أن الوافدين الجدد كانت لديهم من قبل فترة طويلة وكافية من الوجود المستقر لتطوير

فن البناء، وحتى شكل المنازل كانت بصورة متصلة ويفي بحاجاتهم لآلاف السنين أو أكثر في أريحا. ولذلك فهم ليسوا من السلالات المباشرة للطاحونيين الذين عاشوا في الخيام ولكنهم من أقوام طوروا طريقتهم في الحياة المستقرة. وقد يظن الإنسان أن مستوطناتهم لم تكن. وأن سكان ما قبل العصر الحجري الحديث قد حصنوا مستوطناتهم ضد هؤلاء بالذات، ولكن هنا يدخل الإنسان وبناء الافتراض.

هذا وكأنما منازل مرحلة ما قبل العصر الحجري الحديث ذات تطور مدهش في فن البناء؛ إذ كانت الغرف كبيرة وأبوابها واسعة ومحاطة أحياناً بأعمدة من الخشب، وكأن النمط الذي بنيت عليه هذه الغرف مربع الزوايا مع وجود زوايا مستديرة تقريباً. وكانت الجدران مستقيمة ومتينة، أما الطوب الذي أنشئت منه الجدران فكان مصنوعاً باليد بدون قوالب كما هي العادة فيما بعد وكان شكله كالسيجار المفلطح مع وجود طبقة مضغوطة على سطحها من عظام، ووجود بصمات بشكل إبهام الصانع محفورة عليها. وهكذا فهو يعطي فكرة عن نوع البلاط، كما أنه كان مجهزاً بفراغ مثله مثل الطوب الحديث. ومرة أخرى فهذا الطوب كان مختلفاً كلياً عن الطوب الذي استعمله أقوام المرحلة. وكانت الأرض مغطاة بطبقة من الجص كثيراً ما كان أحمر براقاً. وكانت الغرف الرئيسية محاطة بحجرات صغيرة وكان يستعمل بعضها في الظاهر مخازن، وكان ماء المطر يحفظ في أجران مطلية بالجبص ومقامة أمام الجدران. وكانت المنازل مقامة حول ساحات كانت تستعمل للطبخ؛ إذ وجدت الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الفحم النباتي.

أما أدوات المطبخ التي استعملها هؤلاء الناس والتي بقيت فهي طاسات ماء من الحجر مختلفة الأشكال وأكثرها مطلي بالجبص ومصنوعة بإتقان ومتممة بعناية، وهذه الأدوات بدون شك قد تبعتها أوانٍ أخرى فنيت؛ إذ من المحتمل أنها كانت مصنوعة من الجلد أو من الخشب. وهكذا فالحقيقة التي تدعو إلى الاستغراب أن من هذه الأدوات التي وجدت كان القليل جداً منها ما يصلح للصناعة الخشبية الثقيلة،

والأدوات كانت بصورة رئيسية مصنوعة من الصوان ومن الصخر الصواني. وكان أكثرها نصالاً صنعت من الرقائق التي قد تكون استعملت كمدى من جميع الأنواع والأحجام. أما بعض هذه المدى فكان لها حد رفيع ومسنن. ومن شكلها اللامع الذي احتفظت به أكثر ما يتضح بأنها كانت قد استعملت كمناجل لقطع سنابل القمح أو لقطع الأعشاب. وأكثر هذه المدى كان صغير الحجم، ومن الممكن أنها قد ركبت لها مقابض من الخشب. أما الطويلة منها فقد تكون قد جهزت بأيدٍ كما هو الحال في المدى. وكان هناك أدوات أخرى كالمثاقب والمكاشط لإنتاج أدوات ثقيلة كالفؤوس والمجارف والمعازق. ومن الصعب أن ترى أي الأدوات استعملت لقطع الأشجار، فاستعمال الخشب واضح في فجوات الأعمدة المقامة في الجدران، ولكن من المحتمل -كما يظهر- أن الخشب لم يستعمل بشكل زائد. وبالإضافة إلى أدوات القطع فهناك مطارق من الحجارة لا تعد Pestles وحجارة مصقولة من جميع الأحجام.

ووجود الزراعة واضح بوجود المناجل التي ذكرت من قبل، وباكتشاف عدد كبير من المطاحن اليدوية. وباكتشاف الحبوب والمطاحن اليدوية، فكانت ذات شكل موافق ومستطيلة تقريباً مع وجود حافة مسطحة حول جوانبها الثلاثة. ومن المحتمل أن حراثة الأرض قد تمت بالشاهد المتبقي بشكل الأحجار الثقيلة المثقوبة.

والأدوات التي وجدت تحوي رؤوساً بها كان بعضها مصنوعاً بدقة، ولكنها لا تشكل جزءاً كبيراً من المجموعة. وكان الصيد عنصراً من عناصر الاقتصاد بالنسبة للسكان، ولكن من المحتمل أنه لم يكن عنصراً هاماً. وعلى أية حال فقد وجدت أعداد كبيرة من عظام الحيوانات في الموقع تدل على أنهم كانوا بالتأكيد من أكلة اللحوم، والحيوان الوحيد الذي تدل بقايا جمجمته حسب رأي البروفسور زوينر Zeuner على التدجين هو الماعز. وعلى أية حال فبالإضافة إلى هذا فهنالك عدد كبير من عظام الخنزير والخراف والبقر، وقد توصف هذه على أنها سلالات الحيوانات التي دجنت على نطاق واسع. ولا نعلم للآن وبصورة كافية تأثير هذا التدجين كما ظهر

من العظام، لنقرر فيما لو كانت تلك الحيوانات آنذاك برية لا عمل على تدجينها بجميعها، ومع القيام بصيدها. إلا أن البروفيسور زوينر يظن أنها حتى لو جمعت فلإبقائها تحت مراقبتهم، ولذلك فالسؤال هنا إلى أي مدى كان سكان أريحا هؤلاء رعاة لا يمكن الإجابة عليه. ولكن قلة رؤوس السهام المكتشفة بالمقارنة مع العدد الكبير من عظام الحيوانات (ومع الأدوات الصوانية الأخرى) توحي أنهم كانوا كذلك.

والاقتصاد الذي ظهر بشكل واسع كان طابع الجالية التي عاشت في العصر الحجري الحديث والمؤلفة من مزارعين ذوي اكتفاء ذاتي، مع وجود بعض الحيوانات الأليفة لديهم، ولكنهم كانوا لا يزالون بحاجة إلى بعض الطعام عن طريق الصيد. والاكتفاء الذاتي هذا لم يكن كاملاً: إذ إن بعض الأدوات كانت مصنوعة من الزجاج البركاني الأسود والمحتمل الحصول عليه من الأناضول. وقد اكتشفت أيضاً بعض الكتل من قوالب الفيرور التي لا بد أنها جلبت من البحر المتوسط، وهذه الشواذ كانت شيئاً عادياً جداً في جاليات العصر الحجري الحديث؛ إذ إنه حتى في هذه الأزمنة الضاربة في القدم فإن بعض هذه الأشياء المتفرقة قد حصل عليها كما يظهر من مصادر بعيدة، والشاهد على وجود الزراعة وعلى وجود فن البناء المتقن والمعدات الكثيرة نوعاً (حتى ولو أنها لم تشمل صناعة الفخار) يدل على أن هؤلاء السكان القدماء من سكان أريحا قد شكلوا جالية مزدهرة ومنظمة تنظيماً راجياً، وتوجد أيضاً بعض الشواهد التي تدل على تطورهم الجمالي والروحي.

بدء صناعة التماثيل

وكان الاهتمام الرئيسي لمثل هذه الجالية هو بدون شك استغلال حقولهم وقطعانهم، فقد وجدت بعض لأشكال من نطين تمثل الحيوانات التي من المحتمل أن تكون نذوراً قدمت إلى قوى سماوية كان يظن آنذ ك أنها تسيطر على هذه الأشياء.

وأكثر هذه الأشكال الطينية إثارة للدهشة شكل امرأة طولها ٢ أنش فقط، ويمثل سيدة أنيقة صغيرة السن ترتدي ثوباً هفهافاً عند الخصر وذراعاها مرتكزتان على جانبيها، ويداها تحت ثدييها. ولسوء الحظ فالرأس كان مفقوداً. وبهذا الوضع فإن الشكل هو نموذج يمثل الآلهة الأم التي ظهرت في الثقافات الحديثة. ومن الواضح أن السكان القدماء قد تخيلوا بالفعل الآلهة المجسمة بشكل إنسان.

ومظهر آخر عن تقربهم إلى الآلهة وهو وجود معبد صغير في منزل منفرد. وقد بقي هذا المعبد في فجوات من الطوب أقيمت في جدران إحدى الغرف الكبيرة، وفي أحد الجدران في إحدى الغرف الصغيرة كان هنالك كوة نصف دائرية وضع عند قاعدتها حجر ليكون حاملاً. وفي أنقاض المنزل الكبير الغير بعيدة وجد حجر لافت للنظر وافق حجم تلك الكوة. وكان هذا الحجر من الصخر البركاني جلب من ضواحي البحر الميت، وقد عني بتهذيبه إلى عمود ذي رأس بيضاوي علوه قدم واحد و٦ إنشات. وغرابة هذا الشيء وموافقته لحجم الكوة يوحي بقوة بأن له مظهر التقديس. ومن المحتمل أنه كان يمثل الآلهة. وبهذا فهو يرمز إلى كل عبادة الكنعانيين الغامضة التي امتدت إلى عدة قرون فيما بعد، وإلى الأعمدة الحجرية التي وجدت في مواقع الكثير من المعابد السامية.

وهناك بناء آخر استعمل لغرض ديني، ليتضمن غرفة مركزية طولها عشرون قدماً وعرضها أكثر من ١٢ قدماً، وفي نصفها حوض طلي بالجبص بعناية، وعند كل طرف من أطراف الغرف الرئيسية كانت هنالك حجرات ملحقة ذات جدران مستديرة، فحجم الغرفة ومن ثم الدقة والنمط غير العادي والحوض الأوسط كلها توحي باستعمالها لغرض الاحتفالات الدينية.

وأكثر المكتشفات روعة هي تلك التي وجدت في أريحا: إذ تحوي دلالات دينية وإمكانات سكان العصر الحجري الحديث الفنية. ففي سنة ١٩٥٢ تم اكتشاف

أرض تدل بأن احتراماً خاصاً كان قد قدم إلى الجماجم البشرية. وقد استنتج من حالة جمجمة رجل كبير السن كانت قد وضعت بعناية وبشكل مقلوب تحت أرض بعض الغرف في زاوية التقاء جدارين، والاكتشاف هذا يوحي بأن روح ذلك الرجل قد فقد بقاءها في المنزل للاحتفاظ بحكمته لسكان المنزل. وفي سنة ١٩٥٣ تم اكتشاف قدم شاهداً أكبر على الأهمية المتعلقة بالجماجم وضمن أنقاض أرضية أحد منازل المرحلة (......) قبل العصر الفخاري، ظهر ركام من جماجم بشرية، وقد وجدت جمجمتان أخريان مماثلة فيما بعد في غرفة أخرى من نفس المنزل، وكان الجزء السفلي من هذه الجماجم معطى بالجبس ومسكوب بشكل يعطي الجمجمة الملامح البشرية، وكان كل رأس له شكل منفرد جداً. ولا يستطيع الإنسان التهرب من الانطباع بأنه ينظر إلى صور حقيقية، فالعينان كانت مدرجة في أصداف وفي حالات سفينة من الرؤوس صفت الأعين من الأصداف العادية مع وجود شق عمودي بين كل قسمين لتغطي مظهر البؤبؤ. أما الرأس السابع فكانت الأعين من الأصداف الصفراء والفتحة الأفقية للأصداف هذه تعطيه ملامح الجاثم وبشكل واضح، أما سكب الملامح (تقاطيع) كالفم والأنف والآذان والجفون فكان جيداً وناعماً ويعطي طابعاً بأن القوم الذين شاهدنا رسومهم هنا كانت لهم ملامح (تقاطيع صغيرة ومنسجمة، أما قمة الجمجمة فقد تركت مكشوفة بالرغم من أنها في حالة واحدة قد طليت بخطوط عريضة من الطلاء الأسود، لتمثل على الأرجح غطاء الرأس. وهنالك حقيقة غريبة وهي أنه في حالة واحدة فقط وجد الفك الأسفل قائماً، أما في باقي الحالات فكانت الذقن مسكوبة على الأسنان العليا، ولذلك فالرؤوس كان لها مظهر الجاثم.

وتعطي هذه الرؤوس انطباعاً مدهشاً للجمجمة الصناعية ولقوة الفن من صانعيها وبشكل غير منقطع في مثل هذه الأزمنة القديمة. وهذه الرؤوس ليست أقدم تمثيل للشكل الإنساني، ولا حتى أقدم التصويرات، إذ أمكن القول: أن التمثال كان موجوداً

في العصر الحجري القديم والمتوسط، ولكنها كانت أكثر شبهاً بالشكل البشري من أي أخرى أقدم منها. وفوق هذا فيمكن الادعاء بأنها أقدم التصويرات البشرية والأصل الرئيس للفن الحديث، وأن فن العصور القديمة قد فضل بفترة تقدر ببعض آلاف السنين من التطورات التي تلت، حيث إن المدينة قد تطورت من العصر الحجري الحديث فما فوق بخط متواصل، ويؤدي هذا الخط من الإنجازات الفنية عبر السومريين والعبريين القدماء إلى العصر الهيليني وهكذا إلى العصر الحديث.

وأهمية هذه الرؤوس الفنية واضحة، ولكن مغزاها المحدث هو أكثر عموماً. وعندما وجدت كانت الرؤوس المسبقة الأصلية في كومة مبعثرة، ويظهر أنها ألقيت عندما تهدم البيت الذي كانت مخزونة فيه، وتلتها الرؤوس الأخرى تحت الأرضية التي دفنت فيها، ولم يكن هنالك شيء منها في المنزل الأسفل الذي تم الكشف عنه ليظهر فيما لو كانت قد وضعت في معبد. أو بكل بساطة قد حفظت في بيت لسكن، ولكن ما كشف عنه كان الأصل الذي ولا بد أن تكون الجماجم قد انحدرت منه.

وتحت أرضية المنزل الأسفل وجد عدد كبير من المدافن. والدفن تحت أرضية المنازل كان كما يظهر إجراءً عادياً. والشاذ عن ذلك هو وجود العدد الكبير من الجثث تقدر بأربعين أو أكثر ضمن منطقة صغيرة، وفي بعض الحالات كانت الهياكل العظمية سليمة، وفي حالات أخرى كانت الجمجمة منزوعة تاركة وراءها الفك الأسفل، وفي الحالات الأخرى كان التشويش أعظم، ومن الصعب جداً العثور على جمجمة واحدة. وكانت هذه الهياكل العظيمة تظهر كأنها كومة من الأجساد المتحللة نوعاً ما. والتي عبث بها لغرض نزع الجماجم عنها، ولم يقلل سبب وجود الرؤوس التسعة المكلسة بأي معنى غياب الجماجم الناقصة. ولكن واقع نزع الجماجم بعناية من المقابر قد دل على أن هذه الجماجم قد نالت عناية خاصة، وبالتأكيد فهي المصدر الذي أتت منه الجماجم التسعة.

وقد توحي المعادلات الحديثة في علم الإنسان بأن الرؤوس التي بقيت كانت للأسلاف الموقرين من الأعداء احتفظ بها كغنائم. والضوء الوحيد الممكن إطلاقه هنا أن هذا العدد من المقابر توحي بحدوث كارثة. فعندما دفنت الأجساد كان قد بني في نفس الوقت أول أسوار للمدينة التي تتبع ما قبل العصر الحجري الحديث، وقبل هذا لم تكن مدينة الأقوام (B) كما يظهر قد حصنت بعد، وهذا يوحي بأن مذبحة قد وقعت وقام بها العدو، أوجدت الضرورة لإنشاء التحصينات. فالرؤوس التي بذلت عناية كبيرة لأجلها لتصبح ظاهرة أعلى أنها رؤوس الأعداء لربما كانت لأناس ذوي أهمية قتلوا في المذبحة. ولكن الدليل هنا ضعيف ولا تسنده أي علامات تفسر الإصابات الظاهرة على الجماجم.

وفي سنة ١٩٥٨ وجدت جمجمة أخرى مكلسة بعيداً عن الطرف الشمالي للتل. وفوق ذلك عندما كشف النقاب عن طبقات متتالية في المناطق المختلفة وجدت جماجم نزعت منها جبهاتها، ومع أن عدداً مماثلاً من الجماجم المكلسة لم يكشف عنها بعد، فمن الواضح أن نزع الخوذات من المقابر كان إجراء ثابتاً، ومن الممكن أنها نزعت لتنقل إلى مخزن أو إلى معبد أوسط لم يحدد موقعه بعد، ولذلك فيظهر أن جماجم أريحا هي لأسلاف موقرين وليست غنائم كما أسلفت. ومن هذا الإجراء لحمل تصويرات للرؤوس مع وجود جمجمة حقيقية كقاعدة لها كان هناك تطور في الأسلوب كما يظهر. وإبان الحفريات التي تمت ما بين ١٩٣٠-١٩٣٦ وجد نوع جديد من التصوير البشري مختلف حداً عما سبقه، وهذا يتألف في الظاهر من ثلاثة أشكال من الجبس وبالحجم الطبيعي للإنسان تقريباً. ولكن رأس الجمجمة من بينها فقط استعمل لتثبيت الأصداف لتمثل العيون. وفي معظم الأحيان لم يتعد هذا الأمر، وكان شكل الرأس من الجانب عبارة عن قرص مسطح. وبهذا فهو تصوير أسلوبي. وكان هنالك شيء غير مؤكد وهو فيما: إذا أتت هذه الأشكال من طبقات ما قبل العصر الحجري الحديث (B) أو من طبقات العصر الحجري الحديث الفخاري الذي تلاه، والمكتشفات التي تمت سنة ١٩٥٨ من المحتمل أن تعرض بأنها تعود الى مرحلة ما قبل

الفخاري: إذ إن مكتشفات ١٩٥٩ تمثل درجة أخرى من أساليب الفن، وأنها أتت من نفس القمة لطبقات ما قبل الفخاري. ومن الممكن أيضاً أنها كانت تصويراً كاملاً لأشكال بالحجم الطبيعي للإنسان: إذ وجدت كثير من الشظايا ولكنها الوحيدة التي كانت حقيقة فالرأس والعديد من شظايا الرؤوس قد أعيد تركيبها بصورة كاملة وبشكل مرض يشبه المسحاه دون محاولة إعطاء أي ملامح، ومن ثم طليت بخطوط وبصورة تامة، وعلى أية حال فالأكتاف والجذع سكبت لتطابق الواقع نسبياً، والصورة الثالثة هذه هي شاهد مهم جداً على التطور في الفن البدائي.

وأول مستوطنة قامت قبل العصر الحجري الحديث B في أريحا كانت في الظاهر غير محصنة، وكانت البيوت تمتد نزولاً مع منحدرات التل حيث تبينت المستوطنة الأولى إلى ارتفاع ٢٤ قدماً فوق مستوى السهل. وفي الخندق حيث يمكن دراسة النتائج جيداً كان هنالك طبقة لعشرة منازل متوالية بدون أي أثر لسور يضم هذه المنازل، ومن ثم نشأت الحاجة كما ظهر لإقامة التحصينات، وقد يكون من الأهمية بمكان أن يعرف أن هذا قد يتبع في الحال المقابر العديدة التي أشير إليها... ولكن كما تبين فان الهياكل العظمية لم تقدم أي شاهد على وجود جروح تبرهن على حدوث الموت بيد الأعداء، وكان السور الذي بني للدفاع عن المدينة ضخماً ولم يتم على شكل نظامي كأسوار ما قبل العصر الحجري الحديث، ولم يبق قائماً إلى علو كبير كالسور النهائي لتلك المرحلة ولكن وضع فيه أحجار أكبر حجماً من غيرها وهو كما يظهر كان بناء مستقيماً، واتساع سطحه تقريباً (٥) أقدام بـ (٣) أقدام، وهو كما يحتمل التكملة للحائط الـ ١٤٠ قدم الواقع إلى الشمال في المربع (ML) وكان تقريباً (١٠) أقدام بـ (٦) أقدام، وكان ارتفاع السور إلى العلو الذي وجد عليه.

ويقف السور منفرداً فقط في الجهة الخارجية، وقد أنشئ بقطع مؤخرته إلى مستوى المنازل في الجهة الجنوبية، مزيلاً معه المستويات المماثلة في الجهة الخارجية، والتراب المتراكم الذي أخذ من الجهة الداخلية ليكون مصطبة أمامية، وعلى هذه

المصطبة بنيت المنازل مباشرة إلى علو الجهة الجنوبية من السور. وقد تحدد موقع هذا السور فقط عند المكانين في الجهة الغربية التي ذكرت من قبل في الخندق I والساحة ML وفي الخندقين TTT-IT عند الطرف الشمالي والجنوبي من التل على التوالي كانت منازل تلك الفترة تمتد إلى أطراف الخنادق. حيث فصلت من جراء الكارثة التي حصلت في العصر البرونزي المتوسط. وعليه لا يمكن البرهنة على أنه كان سوراً لمدينة وليس سوراً لقلعة، ولكن التفاف التل يوحي بأنه كان سوراً لمدينة يحيط بمنطقة المدينة كلها، والذي كان أكبر إلى حد بعيد من منطقة المدينة الكبرى في العصر البرونزي، لأن تكسية العصر البرونزي الأوسط كانت القاعدة لمجموعة من التحصينات اتساعها ١٢٠ قدماً في العرض على الأقل. وأن اتساع مدينة العصر الحجري الحديث يزيد على اتساع مدينة العصر البرونزي بذلك المقدار على الأقل في الطرفين الشمالي والجنوبي.

ومن الممكن أن هذا الحائط لم يدم، ففي الخندق تبين بأنه قد تهدم وقد يكون ذلك من جراء نقل التربة إلى المصطبة خلفه، وأن يكون خلفه سور مشابه متقدم عنه ٤٠ قدماً إلى الأمام. ومن المحتمل أنه كان هنالك مرحلة –ثالثة بناء على الشاهد على تقدُم آخر للمنازل والمستويات، ولكن إن حدث هذا فقد اختفى تحت تأثير تعرية لاحقة.

وعليه كان لمستوطنة أريحا قبل العصر الحجري الحديث جميع أشكال المدينة التي تقدمتها في احتلال طويل مستمر في حجمها. وفي الشاهد على جاليتها المنظمة، وقد يكون المعبد الظاهر في الخندق رقم I شاهداً أيضاً على الأبنية العامة التي هي إحدى الملامح التي ضمنت لضرورة دعم الادعاء لموقع المدينة، ومن بناء المنازل بشكله الكبير وخطوطه المنظمة كما يتضح أكثر انتشاراً وتصميماً من ذلك الذي كان في المرحلة (A). ونتائج فحص الكربون ١٤ يعطي بعض الدلالات لتسلسل التاريخي القاطن لتلك المرحلة وفي المربعات.

تتبعنا ١٨ مرحلة للبناء المتتالي من تلك المرحلة. وعلى أية حال فهذه ليست النتيجة الكاملة ما دام التطور الأول في هذه المنطقة قد أزيل في حفريات ١٩٣٠ و ١٩٣٦، وفي المرحلة السادسة عشرة من القاع أعطت المادة التي حصل عليها في طبريا تاريخاً هو ٦٥٢٠ ق.م. وفي الخندق فقد تتبعنا ٢٦ دوراً من البناء وأعطت المادة التي أخذت من الدور التاسع من القاع تاريخاً هو ٥٨٥٠ق.م. وهذه المادة أتت من دور سابق مباشرة بناء سور أول مدينة ما قبل العصر الحجري الحديث.

وهذه التطورات التي حدثت في أريحا كانت وفيرة في فلسطين أو في أي مكان آخر عندما اكتشفت، لذلك فتاريخ تطور المستوطنات في فلسطين اتضح لحد ما عن طريق أريحا وحدها. ولكن كان منتظراً دوماً من أن هذه المكتشفات ستكون دافعاً للبحث عن غيرها. ومن الممكن أن أريحا كانت أهم مستوطنة في فلسطين، ولكن مواقع أخرى (كالبيضاء) مثلاً قرب البتراء هي الآن تحت البحث، والتدقيق والمكتشفات التي وجدت في الأناضول مثلاً وفي (كتال حيوك) توحي بوجود ثقافة ذات معطيات عالية.

ومن جهة أخرى فمن المؤكد حقاً أن جماعات العصر الحجري الحديث في فلسطين ليست كلها قد شاركت في التطورات الرائعة التي ظهرت في أريحا. وقد مر وقت طويل قبل أن تبين الحفريات التي جرت ١٩٣٥ ١٩٣٦ الترابط بين الصناعة الطاحنية مع أقوام استقرت بقوة. فأدوات هذه الصناعة قُبل بها كنموذج لأقوام تعيش في الكهوف والملاجئ وفي مستوطنات صغيرة مبنية فقط بدأه الاقتصاد في العصر الحجري الحديث. وهكذا كما في حالة الناطوفيين فمن الممكن وجود خطين للتطور؛ أولهما جماعة تتقدم تجاه وضعية يستطيع الإنسان أن يدعيها في أريحا على أنها مدينة. والأخرى من الممكن أن يكون اقتصادياً بدلاً من زراعي والإقامة في التلال في وادي الأردن مقدماً شاهداً على المستوطنات الهزيلة جداً التي أقاوها. وكل دليل جديد يظهر يخلق تعقيداً أكبر للقضية.

الفصل الثالث

منذ بدء الاستقرار حتى بداية الحضارة

يمكن اعتبار فلسطين كما تظهر آثار أريحا عن حق وجدارة على أنها إحدى الأماكن التي تطورت الحياة فيها من حياة التنقل والترحال إلى حياة الهدوء – والاستقرار؛ أي إلى ذلك النوع من الحياة الضروري لكل تطور نحو الحضارة والرقي، ولكن علينا أن نحرص بأن لا ندعي أنها كانت المنطقة الوحيدة أو المكان المطلق في العالم الذي حدث فيه مثل هذا التطور.

لقد سبق وقدمنا في مقدمة هذا الكتاب وصفاً مختصراً لمراحل التطور التي دلت عليها التنقيبات الأثرية التي تمت في السنين العشرين الأخيرة تلك المراحل الحضارية التي أدت إلى قيام الإمبراطوريات في أوروبا على الأنهار العظيمة في الألف الثالث ق.م. وإحدى المراحل الهامة في هذا التطور هي سلسلة من القرى امتدت حول الجزء الشمالي من الهلال الخصيب، أي من سفوح مرتفعات إيران حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط. وتلا ذلك اتحادها معاً في الثقافة والاقتصاد، ولكنها اختلفت إلى حد ما في هندستها وطرق حياتها، وقد ظهرت جميعها بشكل مجتمعات ثابتة مستقرة ذات حجم متواضع، وكان استعمال نوع من الفخار البسيط المصنوع باليد هو أحد المميزات العامة لها، وقد وجد هذا النوع من الفخار في كثير من الأماكن بأشكال مختلفة. ومن حسن حظ الروابط الأثرية العثور على نوع متميز من هذا الفخار في معظم الأماكن، وهو يمتاز بسطحه الداكن المصقول وبشكله البسيط الذي يشبه الكيس، ويبدو أن موطنه الأصلي كان سهول كلينيا السورية ومرسين والجديدة

الواقعة في وادي العمق حيث كان النوع السائد في هذه الأماكن، بينما نلاحظ قلة استعماله شرقاً حتى حسونة وجنوباً حتى جبيل إلى أن يصبح نوعاً ثانوياً إلى جانب الأنواع المحلية المتعددة.

لقد تم حفر جميع هذه الأماكن قبل أن يستعمل الكربون – ١٤ في الوصول إلى تاريخ محدد. واتفق على أن حوالي منتصف الألف الخامس ق. م. هو أنسب تاريخ لتلك المراحل التي تلت وامتدت حتى الفترة التاريخية إلى نهاية الألف الرابع ق. م. ويمكننا أن نتتبع في العراق سير هذه المراحل التي تشير إلى تطور هذه القرى بعد تجمعها النهائي في مرحلة التجمع بطلب الغذاء.

وقد عثرنا مؤخراً على صناعة في الكهوف أطلق عليها اسم زرزاني Zarrian وربما تتفق هذه الصناعة في منشأها مع صناعة جبل لكرمل التي أطلق عليها اسم الناطوفي، وبعد هذه الفترة بدأت فترة الاستيطان الحق كما حدث في كريم شبير حيث لا نعثر على أي أثر للسكن الدائم، بل نجد نوعاً من الاستيطان يمثل أول دور في الحياة الزراعية البدائية. وقد ظهرت أول قرية من هذا النوع في جارمو سطر كامل البنيان، وتشبه مظاهر هذه القرية مظاهر أريحا في أدوارها الأولى حيث لم يعثر على فخار فيها بالرغم من أن سكان جارمو لا يمتّون بكل تأكيد بأية صلة إلى أي من الجماعتين اللتين سكنتا أريحا، ودليلنا على ذلك هو أن هندسة بيوتنا وما تحويه من أثاث وأدوات – تختلف تماماً عما هي في أريحا تعتبر هذه المرحلة سابقة لمرحلة ظهرت أثناء ظهور المجتمعات القروية التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة. وأثناء هذه المرحلة لم نجد في العراق أي مكان يقدم لنا الدليل المباشر على تسلسل التقدم نحو الحضارة وترابطه معاً، ولكننا نستنتج أنه كان هنالك دون شك فجوات حضارية متقدمه بين موقع وآخر. أما الوضع "الإجمالي فيتفق تماماً مع الوضع الاكثر تناسقاً وترابطاً في فلسطين؛ ذلك الوضع الذي سبق وصفه في الفصل السابق.

كانت جارمو من أول الأماكن في الشرق الأدنى جرى تحديد تاريخها بطريقة الكربون – ١٤، وقد أثبتت سلسلة من التجارب أن تاريخها يرجع إلى حوالي ٤٧٥٠ ق. م. كما أثبتت بعض التجارب الأكثر حداثة على أن تاريخها يرجع إلى أبعد من ذلك. واشارت اثنتان منها إلى أنه يرجع إلى الألف العاشر بينما أشارت ثلاث أخرى إلى أنه يتراوح بين ٥٩٩٠ و ٧٠٨٠ ق.م. وقد اختار البروفسور بريدود (Brade Wood) هذه التواريخ الأخيرة واعتبرها أنسب تاريخ يدل على فترة جارمو، وقد اعتبر أن الحياة في جارمو حوالي ٦٥٠٠ ق.م. واستمرت حوالي خمسماية سنة، ولكن حججه لم تأت بإثباتات مقنعة تماماً. وبقي تاريخ منتصف الألف الخامس هو الأكثر احتمالاً ليدل على نشوء الاستقرار في القرى التي ظهرت وانتشرت في الجزء الشمالي من الهلال الخصيب.

إن تحديد التاريخ ليس هو النقطة العامة بقدر ما هي الدلائل التي تشير إلى أنه كانت هنالك عدة اتجاهات مختلفة تسير نحو الحضارة، وقد ثبت أن سير تلك الاتجاهات في فلسطين يختلف تماماً عن سيرها في العراق كما كان الاختلاف واضحاً بين سيرها في شمال سوريا وسيرها في العراق أيضاً، لأن المجتمعات القروية فيهما تختلف كثيراً عن بعضها بأساليب البناء، ولكن بقايا النماذج الفخارية التي وجدت فيها تدل على تشابه في المواد القديمة. وتؤكد الحقيقة الفلسطينية التي تلت العصر الحجري الحديث الذي سبق عصر الفخار حقيقة تشعُّب سير الاتجاهات المتعددة نحو الحضارة.

وصلت مدينة أريحا B التي شيدت قبل العصر الحجري الحديث الذي سبق عصر الفخار نهايتها فجأة، وقد حدث هذا كما حدث للمدينة التي سبقتها. لقد كان هذا التدمير ضربة قاصمة للحضارة والمدنية، لأن إعادة البناء دلت على ارتداد وتقهقر إلى الوراء في سلم الحضارة، وبالرغم من أن المستوطنين الجدد كانوا قد جلبوا الفخار معهم إلا أنهم كانوا أكثر بدائية وأقل مدنية ممن سبقهم في جميع

النواحي الحضارية الأخرى، فما حدث عند نهاية المدينة A التي سبقت العصر الحجري الحديث السابق لعصر الفخار حدث ثانية عند تدمير المدينة B: إذ تلت ذلك فترة انجراف وتفتت اختفت فيها المعالم المألوفة للمستويات الواقعة على سطح التل وانهارت الأنقاض، وبعد مدة يستحيل علينا تقديرها ظهرت ثانية آثار القادمين الجدد؛ تلك الآثار التي كانت من نوع غريب جداً، فوجد الفخار في كل مكان من المدينة حتى في الحفر التي حفرت داخل أنقاض المدينة السابقة.

كانت تلك الحفر تنتشر فوق التل في جميع الأماكن التي تم التنقيب فيها. وكان يعتقد عند مراحل التنقيب الأولى أن تلك الحفر كانت محاجر للحصول منها على مواد لصنع اللبن الترابي لبناء مساكن على أنقاض مساكن السابقين، ولكن الاختبار الدقيق دل على عدم صحة هذا الاعتقاد: إذ تبين أن تلك الحفر كانت حفراً سكنية، وقد وجد فيها عدد من المصاطب. وكانت جوانبها مغطاة بجدران غير سميكة من الكلس والحجارة، لذا كان القادمون الجدد عبارة عن أناس يعيشون في باطن الأرض. فحيثما توجد طبقات خارج الحفر ترجع في تاريخها إلى هذه الفترة فإنها تتكون فقط من تراب ومواقد تخلو من أي بناء ثابت. إن حياة من هذا القبيل لهي حياة مدهشة حقاً.

ولكن هذه الدهشة قلّت عندما اكتشف علماء الآثار المساكن السفلى الواقعة تحت سطح الأرض بجوار بئر السبع والتي ترجع في تاريخها إلى العصر النحاسي أهم ما اشتهر به أولئك القادمون الجدد (سكان العصر الحجري الفخاري) هو الفخار. ولا شك أن هؤلاء قد وفدوا إلى المنطقة من أماكن تعرف صناعته. كانت الأواني الفخارية تنقسم إلى نوعين رئيسيين: الفخار غير المصقول والفخار المزخرف المصقول. وكانت أشكال النوعين متشابهة تقريباً وصناعتهما بسيطة وبدائية وأشهر هذه الأواني هي الطاسات ذات القواعد المسطحة والجدران المائلة والمفلطحة إلى الخارج، وهنالك أيضاً الطاسات ذات الجدران المقعرة والمحدّبة. أما الجرار فكانت قواعدها مسطحة

وأجسامها كروية والمسافة قليلة بين الجسم والعنق. أما العنق فكان طويلاً يضيق كلما اقترب من الفوهة التي تخلو من حافة سميكة حولها زخارف، وهنالك عادة يدان صغيرتان عند قاعدة العنق، وأحياناً يوضع حول الجرار والطاسات أفريز وكرات تقوم مقام الأيدي.

كانت الأواني الفخارية غير المصقولة من نوع رديء الصنع، وهذا يدل على أن صناعة الفخار لم تكن قد تقدمت تقدماً ملموساً بعد؛ إذ كان الفخار مليئاً بالحصى والرمال الذي ربما قد أتى من الطين الذي استعمل منه الفخار. وقد مزج الطين الفخاري بالقش والتبن بكميات متفاوتة ليكسبه تماسكاً ومتانة. أما شي الفخار فيبدو واضحاً أنه قد تم في حرارة منخفضة، ونتيجة لذلك كان الفخار هشاً ليناً سهل التفتت. أما السطوح فيبدو أنها كانت تصقل غالباً بضمة حشيش. أما الفخار المصقول فكان يختلف كثيراً في مظهره ولكنه كان أيضاً هشاً ليناً سهل الكسر، ويحتوي على كميات من القش والتبن، ولكنه يمتاز عن غيره بشيه ونقاء تربته. والاختلاف الرئيسي بين النوعين هو عملية الصقل. فسطح الفخار المصقول كان ناعماً أملس ومغطىً بطينة طرية ملونة ناعمة ملساء، ثم تغطي هذه الطبقة بطبقة حمراء وتكوّن الطبقتان معاً زخرفاً جميلاً براقاً يظهر عادة على شكل خطوط ومثلثات. ولزيادة هذا الزخرف جمالاً تصقل الطبقة الحمراء بمادة جميلة براقة فيبدو الفخار بعدها براقاً وجذاباً جداً. وهنا يبدو الفرق واضحاً جداً بين الفخار المصقول وغير المصقول.

لم يتميز سكان العصر الحجري الفخاري عن سلفهم بصناعة الفخار فقط بل كانت حوائجهم وأدواتهم تختلف أيضاً. لقد اختفت بينهم الطواحين اليدوية (الجاروشة) الجميلة، والمدقات والطاسات الحجرية وحلت محلها الأواني والأدوات الحجرية الرديئة الصنع، وقد اختلفت أيضاً الصناعة الصوانية. وأهم اختلاف واضح بين الفترتين هو استعمال المنجل ذي الشفرة الرديئة التسنين بدل المنجل ذي الشفرة الحادة والمسننة تسنيناً جيداً، الذي استعمل في عصر ما قبل الفخار؛ أي

في الفترة B. وقد استمر استعمال المنجل ذي الشفرة الرديئة في فلسطين – طوال العصر البرونزي القديم. لذا ربما كان أحفاد تلك الجماعة هم الذين عمروا فلسطين في العصر البرونزي، علماً بأننا لا نزال نجهل أصل تلك الجماعة.

لقد عثر على هذا النوع من الفخار المتميز والواضح المعالم في حالات نادرة جداً في أماكن أخرى، إذ عثر على قلعة واحدة في كهف في تل دوير في جنوب فلسطين، وعلى قطعتين في وادي رباح على السفوح الغربية في المرتفعات الرئيسية قرب منابع نهر العوجا. وعلى بعض القطع في الطبقات السفلى في مجدو. وبالرغم من قلة هذه القطع فإن لتوزيعها الجغرافي الواسع دلالة هامة تدل على أن سكان أريحا في العصر الحجري الفخاري كانوا قد استوطنوا أيضاً أنحاء مختلفة من فلسطين. لقد انتشرت الحفر التي تحوي الفخار فوق جميع أرجاء تل أريحا، ويدل هذا على أن عدد السكان كان كبيراً، ولكن يبدو أنهم لم يبنوا الأبنية المستقلة الثابتة طوال إقامتهم في أريحا في العصر الحجري الفخاري.

خلف سكان أريحا الأوائل (A) جماعة أخرى أطلق عليها جماعة العصر الحجري الفخاري (B) وكانت هذه الجماعة كسلفها في حالة بدائية تقريباً. وقد بنى السكان (B) أكواخهم في الطبقات العليا من الحفر التي سكنها أجدادهم من قبل. وليس باستطاعتنا أن نحدد بدقة الفرق بين الجماعتين لأنه لم تتوفر لدينا الأدلة الكافية على تحديد هذا الفرق. ولكن ظهر على كل حال نوع جيد من الفخار أرقى من سابقه جلبه القادمون الجدد معهم، ولا ندري إن كانت الجماعة الجديدة قد حلت محل سابقتها أو امتزجت معها.

كان الفخار الجديد أفضل شيئاً وأقل سمكاً واحتواء على القش والتبن. وكانت أنواعه وأشكاله أكثر تقدماً وأفضل صنعاً، وتظهر على الجرار أهم هذه الصفات وأشهرها. فقد كانت الجر ر متعددة الأشكال ذات أطر مقعرة إلى الداخل أطلق

عليها اسم الحرفة القوسية. وذات أيد تميل إلى الخارج عند نقطة التصاقها بجسم الجرة. أما الفخار المزخرف بالطبقة الحمراء التي تعلو الطبقة الملونة فقد اختفى تماماً، ولكن الكثير من الأواني كان مغطى بطبقة حمراء ناصعة إما مصقولة أو غير مصقولة. وأهم مميزات الزخرفة الجديدة التي وجدت على الجرار والأواني هي الأحزمة والخطوط التي تشبه سلسلة عظام السمك، وكانت ترسم تلك الأحزمة أحياناً على شكل أخاديد، وغالباً تعطى بطبقة كريمية اللون. بينما يغطى باقي جسم الوعاء بطبقة حمراء.

ومن دراستنا لهذه الفترة يبدو أن سكان العصر الحجري الفخاري لم يجلبوا معهم فن البناء، ولكنهم تعلموا ذلك بمرور الزمن. فأشادوا المباني الثابتة المستقلة. فبنوا أسس بيوتهم بالحجارة ثم بنوا فوقها البيوت من اللبن المصنوع من الطين المجفف. كان اللبن يصنع باليد وليس بقوالب خاصة. ويختلف تماماً عن اللبن الذي استعمل في الفترة الحجرية الفخارية السابقة: إذ كانت اللبنة المستديرة والمنتفخة عند رأسها والأبنية المتبقية من هذه الفترة بسيطة في شكلها وبنائها وقليلة في عددها، لأنها شيدت فوق طبقات تعرضت كثيراً لعوامل الحتّ والتعرية بعد نهاية هذه الفترة، ويبدو أن بعض هذه الأبنية كان محدداً بجدران مستقيمة. وهنالك عدة مراحل عمرانية وتختص الثانية منها بسور عرضه ٢,٢٥ متراً، وقد اختفى أثره لمسافة تبلغ ١٩ متراً وهو إما سور حول مسكن أو ربما كان قسماً من سور حول المدينة. وفي المراحل المتأخرة بنيت الأبنية بجدران من الحجر، وقد كانت مستقيمة وقائمة الزوايا ولكن القليل من مخططات هذه الأبنية وصل إلينا بحالة سليمة.

وأعظم أهمية لهذه الفترة هي أنها تصلنا في النهاية بمواقع أخرى في وادي الأردن. وقد تم العثور في هذه المواقع على فخار شبيه جداً بفخار أريحا، ويقع أحد هذه المواقع قرب مستوطنة للجولان الواقعة عند ملتقى نهر اليرموك بنهر الأردن إلى الجنوب تماماً من بحيرة طبريا. وما حصلنا عليه من فخار وغيره لم يكن نتيجة

حفريات أثرية منتظمة بل نتيجة حفر خندق صد الدبابات، ونتيجة حراثة الأرض مرات متتالية. وقد وجدت هذه الآثار في طبقة داكنة سوداء تقع فوق رواسب النهر الرملية التي تحوي مخلفات العصر الحجري المتوسط.

لن نعثر في هذا المكان على أي أثر للأبنية السكنية، ولكن تم العثور على كمية كبيرة من الفخار والأدوات الصوانية وعظام الحيوانات، ويعتقد بأن سكان المكان كانوا يحبون القمح، ولكننا لم نتوصل لمعرفة إن كان ذلك ينبت برياً أو يزرع زراعة. ويبدو واضحاً أن سكان المنطقة كانوا يعتمدون لدرجة كبيرة في غذائهم على صيد الحيوانات البرية، وأن حضارتهم وطرق حياتهم لم تكونا على درجة عالية من التقدم والارتقاء. وكان بعض فخار هذه المنطقة شبيهاً جداً بفخار أريحا في العصر الحجري الفخاري الأخير وخاصة تلك الأواني المزخرفة بحزم يشبه عظام السمك. وعموماً لم تكن جميع أشكال الفخار في المكانين متشابهة، ولكن كان بينها بعض الشبه وإن اختلفت العناصر الأساسية الداخلة في صنعها.

وقد تم العثور في الجولان أيضاً على مجموعة من الأشياء تمتاز كثيراً جداً عن غيرها، وهي عبارة عن تماثل من الحصى والصوان الذي هو من المميزات الطبيعية لهذه المنطقة، ولكننا لم نعثر على شيء من هذا القبيل بجوار أريحا، وهذا ليس بالأمر الهام.

إن الترابط بين موقع اليرموك وأريحا شيء يثير الاهتمام، لأن هذه هي المرة الأولى حسبما نعرف اليوم التي يزول فيها انفراد أريحا بالعظمة التاريخية، والأهم من ذلك العثور في جبيل على فخار نقشت عليه حزم زخرفية تشبه عظام السمك.

كانت جبيل القديمة من الموانئ الهامة على ساحل سوريا، وكان ميناؤها هو المنفذ الرئيسي الذي تصدَّر منه موارد لبنان الطبيعية وخاصة خشب الأرز إلى بقية بلدان حوض البحر المتوسط، وكان هذا الميناء هاماً بالنسبة لخلوه من الأشجار، وهنالك

دلائل واضحة تشير إلى قيام علاقات تجارية بين جبيل ووادي النيل قبل عصر السلالات؛ أي في الألف الرابع ق.م.

لقد استمر الجهد في الحفر في التل الواقع قرب المرفأ الطبيعي الجميل لعدة سنوات، وأسفرت النتائج عن وجود طبقتين في قاعدته أطلق عليهما الطبقتين النحاسيتين A ، B – Chalcolighec & Eneolhlhic وكانت السفلى منهما قائمة الزوايا في مخططات بيوتها ذات المصاطب الجيدة والمقصورة قصارة ناعمة وجميلة، وتشبه تلك المصاطب مصاطب بيوت العصر الحجري الحديث B الذي سبق العصر الفخاري في أريحا، وكانت سطوح المصاطب في المكانين مصقولة صقلاً جيداً وهنا يتوقف الشبه. أما الأبنية فكانت بسيطة جداً للغاية؛ إذ ربما كانت تزيد قليلاً عن خيمة من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود. أما فخار هذه الطبقة فيحتوي على كمية كبيرة مذهلة من مختلف الأنواع. وربما يدل هذا على أن سكان جبيل كانوا من مختلف بقاع الأرض، وأن المميزات الطبيعية لموقع المدينة جلب إليها تلك الأقوام المختلفة. وكان أحد هذه الأنواع مزخرفاً بنماذج وحزم من الخطوط معظمها يشبه عظام السمك، وهذا النوع من الفخار يشبه إلى حد بعيد فخار الجولان وفخار أريحا في العصر الحجري الفخاري (B). وقد تم العثور في جبيل على رابطة أخرى هي أشكال الحصى والصوان التي وجد شبيه بها في الجولان، وهذه الرابطة الثانية تزيد من قيمة الرابطة الفخارية. ومن الأنواع الفخارية الأخرى التي تم العثور عليها في جبيل نوع أدكن مصقول سبق وصفه وهو شبيه بذلك النوع الذي وجد في قرى العصر الحجري الحديث التي امتدت حول الجزء الشمالي من الهلال الخصيب.

إن لهذه النقطة مدلولاً هاماً في التاريخ من حيث إنها تعطينا لأول مرة حلقة تاريخية تقريبية مجردة من كل سؤال ممكن أن يطرح حول التاريخ باستعمال الكربون – ١٤، وتربط هذه النقطة بين أريحا وشمال الهلال الخصيب، وهذا يعني أن نوعاً من الحياة نشأ ونما وانتشر من سفوح الهضبة الإيرانية حتى شعاب الأناضول ومنها إلى

فلسطين، كانت تلك الحياة بسيطة في صفاتها ومميزاتها؛ إذ كانت المجتمعات عبارة عن قرى صغيرة ثابتة ذات بنية بسيطة وحياة زراعية متواضعة. والشيء الهام فيها هو الطرق المختلفة التي سلكها أجداد هذه المجتمعات القروية في انتقالهم من حياة البداوة؛ أي حياة التنقل والترحال إلى حياة الحضر، أي حياة الدعه والاستقرار. ولكن ربما حوالي منتصف الألف الخامس (أو ربما قبل ذلك؛ إذا - أخذنا بعين الاعتبار أحدث طرق التاريخ باستعمال الكربون - ١٤ (ك) أخذت تلك الطرق المختلفة تقترب وتلتقي معاً فظهر في المجتمعات نوع متشابه من الحياة. ثم ازداد هذا التشابه باتصال واحتكاك سكان تلك القرى بعضهم ببعض.

كان ذلك النوع الجديد من الحياة ارتداداً إلى الوراء في سلم الحضارة والمدنية، امتد أثره حتى شمل فلسطين الممثلة بأريحا؛ حيث إننا لا نجد في الحياة الجديدة شيئاً مما كان سائداً في أريحا في العصر الحجري الحديث (A . B) الذي سبق العصر الفخاري. ويبدو أن مشعل الحضارة قد خبا لسبب أو لآخر، وأن سكان القرى انحطوا ووقعوا ضحية بعض العوامل البربرية، أو فريسة لأحقاد أقربائهم الذين ما زالوا يعيشون عيشة التنقل والترحال أو فريسة للمغامرين الأقل حضارة منهم، والذين ربما أتوا من منطقة تقع إلى الشمال منهم. أو على العكس من ذلك كله؛ إذ ربما حدث هنالك شيء ما فقلب موازين الحياة الاقتصادية كتغير في المناخ لم يستطع السكان معه تكييف أساليبهم الزراعية. أو ربما حدث شيء ما لمجرى المياه في أريحا. وعلى كل حال فقد خلفت القرى البسيطة المنحطة تلك القرى الزاهرة التي تنتشر شمال الهلال الخصيب، وقامت في أريحا مدينة متقهقرة حلت محل المدينة الزاهرة التي وصلت درجة عالية من التقدم والارتقاء في الفترة الواقعة بين الألفين الثامن السادس.

أما بالنسبة لفلسطين فقد كانت هذه الفترة أيضاً فترة تقهقر وانحطاط، ولكنها بالرغم من ذلك كانت مرحلة جديرة بالاهتمام، لأن جميع السبل المختلفة التي سلكها

السكان تحاه حياة ثابتة مستقرة أخذت تقترب من بعضها، ومن ثم تستجد معاً، فظهرت الحضارة بنوعيها التنافسي والتقليدي. وظهور حياة متشابهة على العموم فوق مساحة شاسعة من الأرض كان دافعاً قوياً للحضارة إلى الأمام، ثم تلا هذه - المرحلة المرحلة النحاسية، وهذا يعني أن معدن النحاس قد أصبح يستعمل تماماً في جميع الأغراض التي كان يستعمل فيها الحجر. وأهمية هذا تذهب أبعد من الحقيقة التي تشير إلى أن الأدوات والأسلحة التي في متناول اليد قد أصبحت أكبر فعالية من سابقتها. وتكمن هذه الأهمية في أن موارد النحاس محدودة - جغرافياً. وبدا ولدت التجارة المنتظمة لتزويد السكان بهذا المعدن الجديد دافعاً هاماً حطم العزلة بين المجتمعات ونشر الحضارة والآراء بينها. وقد سار هذا التغير الاقتصادي جنباً إلى جنب مع تجارة النحاس تحت ستار الحاجة إلى أخصائيين خبيرين بإنتاج وصناعة المادة الجديدة، وقد سبق وأشرنا إلى ذلك في الفصل الأول.

إن صعوبة تحديد نقطة الانتقال من العصر الحجري إلى العصر النحاسي تنعكس على فوضى التسميات القائمة؛ إذ أحياناً يطلق هذا الاسم أو ذاك على الجماعات المتخالفة. والحقيقة هي أن هذا الانتقال حدث تدريجياً ولم يكن ظهوره محدداً ومتميزاً بظهور الأدوات النحاسية فجأة في مكان ما، بل بالقضاء - التدريجي على العزلة بين المجتمعات، وبظهور نتائج انتشار الأفكار والحضارة فوق مساحات شاسعة من الأرض. ففي فلسطين تشير الدلائل إلى أن معدن النحاس كان ذا أهمية بسيطة بين المواد الأخرى التي كانت مستعملة، وقد بقي كذلك حتى فترة متأخرة، أي حتى حوالي نهاية الألف الثالث. ولكن بالرغم من هذا فإن التغير في الشكل العام ينعكس على النمو الانتشار التدريجي للحضارة وعلى التلاحم في حضارة موحدة تضم تلك المجتمعات المعزولة.

تتميز هذه المرحلة في الجزء الشمالي من الهلال الخصيب بظهور حضارة واسعة النطاق تدعى حضارة الحلفية (Halfian) نسبة إلى تل حلف في شمال العراق حيث ظهرت أولاً، ومن ثم أخذت هذه الحضارة تنتشر من مكان إلى آخر فاجتازت بين النهرين واتجهت غرباً حتى وصلت سواحل البحر المتوسط، ونتيجة لذلك اختفت قرى العصر الحجري الحديث ذات طرق الحياة المتعددة، وظهر مكانها قرى جديدة ذات طرق معيشية متشابهة تمتاز بنوع موحد من الفخار مزخرف بأشكال هندسية حمراء رسمت فوق سطح أبيض فاتح. ويظن أن هذا قد حدث في نهاية الألف الخامس، ثم تلت هذه الفترة في العراق فترات تقدمية أخرى أدت إلى قيام الممالك المدينية التي يطلق عليها عادة اسم ما قبل الكتابة Proto-literate.

إن الحضارة الحلفية لم تمتد جنوباً حتى فلسطين. ففي العشرين سنة الماضية لم يكن هنالك أحد يعتقد أنه كان في فلسطين نظير هذه الحضارة. أما اليوم فإن الحفريات تزودنا سنوياً باكتشافات جديدة يمكن بها ملء الفترة الواقعة بين العصر الحجري الفخاري B في أريحا وبداية العصر البرونزي القديم، ولكن لا يزال هنالك الشي الكثير بحاجة إلى معرفة. إننا نعرف العديد من الحقائق المتناثرة غير المترابطة ونعرف العديد من المجتمعات ذات الحضارات المتميزة التي يجب وضعها في مكانها اللائق ضمن إطار ما قبل التاريخ قبل أن نصل إلى فجر التاريخ؛ أي إلى حوالي سنة ٣٠٠٠ ق. م. مسترشدين بحقائق وأدلة معقولة وواضحة كالشمس. وقبل محاولتنا وضع حضارات هذه المجتمعات في أماكنها الحقيقية علينا أن نأخذ درساً من تقدم الأبحاث حول أوروبا ما قبل التاريخ. لقد حاول علماء أوروبا القدامى إرجاع كل حضارة إلى عوامل ونتائج منتظمة، ومن المسلّم به اليوم أن عدة حضارات تمثل تقدم عدة أقطار، وربما يقوم عدد من هذه الحضارات جنباً إلى جنب، ولكن طريقة النتائج والعوامل القديمة تميل إلى إيجاد أسباب واضحة. لذا علينا اليوم أن نقلل

منها كثيراً بعد أن اتضحت الرؤيا وأصبحت الحقائق أكثر تماسكاً من ذي قبل. وعلينا أن نضع هذا نصب أعيننا أثناء محاولتنا جمع شتات عناصر اللغز المحير الذي تمثله معرفتنا اليوم عن فلسطين، وقد أحدث فعلاً بعض عناصر هذا اللغز التي تخرج سنوياً من باطن الأرض أن الصورة الإجمالية لتاريخ فلسطين سوف تكشف يوماً ما عن وجود عدد من المجتمعات التي عاشت جنباً إلى جنب، والتي كان لكل منها حضارة متميزة مع وجود الروابط الكافية التي تربط المجتمعات معاً، مما يشير إلى معاصرة تلك الحضارات بعضها لبعض.

لقد تم في تليلات الغسول الكشف على أول مجتمع حضاري يرجع إلى هذه الفترة، ومن اسم المكان نفسه أخذنا الاسم الحضارة الغسولية. ويحمل فخار هذا المكان بعض صفات فخار أريحا في العصر الحجري الفخاري (B)، ففي المكانين كان الخرافون (صانعو الفخار) يقدمون الفخار ويضعونه على حصير حتى يجف. وقد تم العثور في الغسول على وعاء غريب الشكل يشبه قمع البوظة. وقد وجدت بعض القطع من هذا الشكل في أريحا، وهنالك بعض الصفات الأخرى المتشابهة بين فخار المكانين، ولكن وجد في الغسول العديد من الأنواع والأشكال الخاصة الراقية التي لم يوجد شبيه لها في أريحا، ولا نعرف حتى اليوم إن كان سبب ذلك يرجع إلى اختلاف في الزمن أو اختلاف في الجماعات التي سكنت المكانين. أو ربما ترجع حضارة الغسول إلى فترة كانت فيها فجوة في تاريخ إعمار أريحا، وربما حدث هذا بعد العصر الحجري الفخاري (B) أو أن الغسول كان يسكنها قوم يختلفون عن سكان أريحا.

إن أدق الدلائل الحاضرة تشير إلى أن الغسوليين كانوا جماعة وفدت إلى المكان من خارج فلسطين، ووقوع الغسول بقرب أريحا، وقلة العلاقات بين المكانين يدعم الرأي القائل بوجود فجوة في تاريخ أريحا استمرت معظم فترة إعمار الغسول، أي إن أريحا كانت خراباً إبان ازدهار حضارة الغسوليين. تقع تليلات الغسول كأريحا في وادي الأردن إلى الشمال الشرقي قليلاً من البحر الميت، وتبعد عن نهر الأردن

شرقاً مسافة ثلاثة أميال. إن الموقع ليس مغرياً وجذاباً، وعلى المرء أن يبحث طويلاً وسط الرمال القاحلة قبل أن يأتي على التلال المنخفضة التي تدل على المكان، والتي لا يتجاوز ارتفاعها ستة أذرع. فالمنطقة لا تشجع على السكن فيها ولا يزال معظمها ومعظم الأرض حولها غير مستغل حتى اليوم، والدلالة الوحيدة على وجود الحياة فيها هي خيام البدو المتناثرة هنا وهناك فوقها، أما منابع المياه فليست بعيدة عنها وهي تتدفق من التلال شديدة الانحدار – والواقعة في الضفة الشرقية لوادي الأردن. وتدل الآثار التي تم العثور عليها على أن موارد المنطقة وما جاورها كانت كافية في الماضي لسد احتياجات سكانها.

إن الحفريات التي قام بها المعهد البابوي للكتاب المقدس Pontificial Biblical Insticlnte في السنوات ١٩٣٠-١٩٣٨ تدل على أن أبعاد المساحة التي استوطنت كانت ٨٥٠ × ٤٧٥ ياردة. وأنها كانت مقسمة إلى ثلاث سكنات تقوم كلٌ منها على تل صغير خاص بها. ودلت هذه الحفريات على وجود أربع طبقات سكنية رئيسة تتميز كل واحدة منها بإعادة بناء المساكن السابقة التي – تهدمت كما يبدو واضحاً بفعل الحرائق، وبذا كان يرتفع مستوى التلال فوق أنقاض البيوت السابقة.

لقد تم الحفر فقط في طبقة البيوت. وتدل شواهد هذه الطبقة على أنه كان يعيش فوقها شعب زراعي مستقر في بيوت متلاصقة ذات حجم متوسط. ولكن كان كل من هذه البيوت وحدة سكنية مستقلة بذاتها. ولكننا لم نعثر على أي دليل يشير إلى وجود أسوار حول هذه البيوت. كانت البيوت مختلفة في تخطيطها – وأشكالها وكانت الغرف قائمة الزوايا مربعة أو مستطيلة أو شبه منحرفة. وقد بنيت البيوت فوق أسس من الحجارة، أما الجدران فبنيت باللبن الترابي المصنوع باليد، وأحياناً بقطع صلبة من التراب كانت تضغط وتلصق معاً. وربما يظن من يشاهد هذه البيوت أن عادة زخرفة الجدران بالقصارة المختلفة الالوان قد عادت إلى الظهور. لأنه وجد على قسم من جدار أحد الأبنية صورة لطائر رشيق يشبه الدراج أو الديك البري، كما

وجدت على أجزاء أخرى صور تمثل أشكالاً خيالية ذات هيئات بشرية وصور لأشعة الشمس وغيرها مما يوحي بأن ذلك كان يرمز لإشارات ومعتقدات دينية.

أما أثاث البيوت فيبدو أنه كان متشابهاً، حيث كان في كل بيت حفرة بنيت بناء جيداً لتكون مخزناً، وكان في كل منها عدد من الجرار الكبيرة لخزن القمح والحبوب وغيرها من الأطعمة. وكان في كل بيت مساحة وفسحة منبسطة ومبلطة ربما كانت جرناً (بيدراً) لدرس الحبوب، وقد وجد فيها عدد من طواحين اليد (جاروشة) لطحن الدقيق. أما عملية الطبخ فكانت تتم في مواقد مكشوفة أو داخل أفران يتم تسخينها بواسطة حفر حفرت في الأرض تحتها، وهذا يدل على تقدم في استعمال النار. وقد وجد القمح مخزوناً داخل حفر البيوت، وأهم من ذلك وجد مخزوناً معه عجم التمر والزيتون. وأهمية هذا هو أن الغسوليين توصلوا إلى زراعة الأشجار، وهذا يعني ضرورة البقاء والاستقرار في المكان الواحد أكثر مما تتطلبه زراعة القمح والحبوب، لأن الأشجار تحتاج إلى وقت أطول؛ أي سنة كاملة حتى تؤتي أكلها. ولكننا نلاحظ اليوم أن زراعة الزيتون ليست مزدهرة في وادي الأردن بالرغم من إمكانية زراعته. لذا ربما كان ذلك الزيتون قد وصل إلى الغسوليين عن طريق التجارة مع إحدى الجماعات القاطنة فوق التلال التي تزرع الزيتون. وإن صح هذا الاستنتاج فإنه يدل دلالة هامة على تحطيم الاكتفاء الذاتي. أما شجر النخيل فإنه ينمو جيداً في عدة مناطق من الوادي حيث يتوفر الإرواء الجيد.

أما أثاث البيوت والأدوات والأسلحة التي استعملها الغسوليون فتختلف اختلافاً كبيراً عن مثيلاتها في أريحا طوال عصورها المختلفة. وحتى أحجار طواحين اليد كانت مختلفة؛ إذ كان شكلها يشبه السرج بوجه عام، وكانت عبارة عن قمة بسيطة من الحجر ذات سطح مقعر للطحن. وهي تختلف عن مثيلاتها في أريحا والتي سبق وصفها. أما نقاط التشابه القليلة بين الفخار الغسولي والفخار الريحاوي في العصر الحجري الفخاري (B) فقد سبق وأتينا على وصفها. أما الحاجيات والأدوات

المختلفة الأخرى فكانت أكثر تقدماً ورونقاً؛ إذ كانت معظم الأواني رقيقة ومن فخار صلب شوي شياً جيداً. أما أشكالها فكانت حقاً مدهشة وقد أطلق على أحدها اسم جرة الطير. كان لهذه الجرة يد في كل جهة من جهتيها وجسم يشبه جسم الدجاجة الراقدة ومن وسط هذا الجسم تخرج رقبته. وقد استنتج البعض معتمداً على ما يراه اليوم عند العرب أن هذه الجرة كانت مخصصة للبن واستخراج الزبدة وذلك بتعليقها إلى شيء ما ثم هزها.

كان عند الغسوليين نوعان من الزخارف امتاز الأول منها باستعمال حزم من الخطوط تتعرج أحياناً بشكل أهلّة وأحياناً بشكل أفاع، وقد كان الحفر على – أجسام الأواني شائعاً أيضاً. أما في النوع الثاني فكان يستعمل الطلاء الأحمر الأشقر الذي يدهن فوق سطح أبيض فاتح أو أصفر أو وردي اللون، وكانت الزخارف هذه تظهر بأشكال هندسية بسيطة.

أما الأواني الحجرية فكانت من النوع الجيد المتقن الصنع. وكان بينها العديد من الصحون الحجرية الممتازة وأهمها ذلك النوع الذي يشبه الجمرة أو النجرة ذات القاعدة المخروطية المخرمة. وقد صنع هذا النوع من حجر البازلت القاسي مما يدل على مهارة ودقة في الصنع.

أما صناعة الصوان فكانت راقية ومشققة. وكان أهمها تأثيراً على النفس المكشط الذي يشبه مروحة السيدات، وهو عبارة عن شظية كبيرة ورقيقة يشبه أحد أطرافها نصف الدائرة، تقتطع هذه الشظية من صفيحة من الصوان بحيث تبقى قشرة الصفيحة على سطح الشظية، وبعدها يكشط الطرف النصف دائري كشطاً جيداً وجميلاً حتى يصبح حاداً. وقد شاع أيضاً إلى جانب المكشط استعمال نصال السكاكين والمناجل المسننة والقدوم ذي الشكل الجميل. ونظراً لأحجام القدوم المختلفة فقد استعمل كأداة من أدوات النجارة أو معزقة (مجرفة) في الزراعة، أما

رؤوس السهام التي تم العثور عليها فكانت قليلة. مما يدل على أن الصيد لم يكن جزءاً هاماً في الحياة الاقتصادية.

ومن الأشياء الهامة التي تم العثور عليها فأسان بسيطان من النحاس، مما يدل على أن هذه الحضارة كانت قائمة في العصر النحاسي، وفي الفترة التي بدأ فيها ظهور هذا المعدن. وعندما كشفت حفريات المعهد البابوي للكتاب المقدس لأول مرة عن حضارة الغسوليين بدا وكأن هذه الحضارة تمثل ظاهرة مقفلة ومنعزلة عن غيرها من الحضارات الرئيسية المعاصرة لها. ودل الإتقان وجودة صنع الكثير من الأدوات على أن هذه الحضارة ترجع إلى العصر البرونزي القديم، أي إلى الألف الثالث. ولكن الاكتشافات التالية وإعادة النظر فيما وجد سابقاً أثبتت أن الشعوب التي كانت لديها مثل هذه الحضارة كانت تنتشر فوق كل أرض فلسطين. وقد تم العثور على فخار من النوع الغسولي في أماكن تبعد كثيراً عن أريحا مثل العفولة الواقعة في مرج بن عامر. وفي السهل الساحلي وبجوار بئر السبع في الجنوب. وهذه أماكن قليلة من كثير غيرها. وقد وجد في الخضيرة في السهل الساحلي فخار شبيه بالفخار الغسولي، وقد وجدت عدة أواني منه تحوي عظام الموتى. وكان بعضها يشبه نماذج البيوت ذات السطوح المستديرة أو الهرمية. وهذا يعطينا دليلاً قيّماً عن شكل بيوت تلك الفترة، ويكشف لنا عن الاعتقاد السائد آنذاك عن أن الموتى بحاجة إلى مساكن كالأحياء.

ومن الأماكن الجديدة بالاهتمام التي لها علاقة بهذه الحضارة تلك التي تقع في وادي غزة في جنوب فلسطين، والتي لا تبعد كثيراً عن مدينة غزة. وقد نقّب السير فلاندرز بتري في عدد من هذه المواقع ووجد أن الكثير من آثار هذه الأماكن شبيه بآثار الغسوليين، وقد وجد تلك الجرار الخاصة التي تشبه الجرة الطائرة أو – المخصة، كما وجد النماذج التي تشبه أقماع البوظة[1] ووجد الفخار المزخرف بنفس زخرفة

(١) كان هذا النموذج سائداً في فلسطين في منطقتي بيسان وحنين وكان يصنع في قرية فقوعة ويسميه السكان المعطاس ويستعملونه في الحليب واللبن وهو من الفخار الأسود المشوي شيا جيداً.

المسولين، ووجد بين الأواني الحجرية الصحن الذي يشبه المجمرة والمكشط الشبيه بمروحة السيدات والقدوم الحجري الذي يشبه المزقة.

ولكن هذه الموجودات الأثرية لم توجد في أماكن تشير الدلائل على طول مدة عمرانها مثل الفسول، بل وجدت في أماكن لا تحوي أي دليل على إقامة الأبنية فيها، بل تشير الأدلة على أنها لم تكن في الحقيقة سوى مخيمات وقتية سكنها جماعات متجولة، وربما كانت تستقر فيها لتمارس دورة زراعية، وتطول المدة أو تقصر طبقاً لهطول المطر وانحساره ثم ترحل من المكان إلى غيره دون أن تستقر فيه مدة طويلة كافية لتشعر خلالها بضرورة بناء مساكن ثابتة لها.

إننا نلاحظ فرقاً واحداً بين أدوات هذه الأقوام غير المستقرة وبين أدوات سكان الفسول، وهو كثرة رؤوس السهام الصوانية لدرجة كبيرة، وهذا يناسب دون شك حياة التجوال والترحال.

تل أبو مطر

وأحدث مستوطن عثر عليه له صلة بالفسوليين هو تل أبو مطر الواقع إلى الجنوب تماماً من بئر السبع. ويعد هذا الاكتشاف أهم حدث تاريخي حديث. إن هذا الموقع عبارة عن تل طبيعي يتكون من طبقة رملية غرينية ومن طبقة رسوبية قديمة، وتتحد الطبقتان معاً إلى عمق يبلغ ١٤ قدماً فوق قاعدة التل الصخرية. وفي هذه الطبقات حفرت سلسلة من الكهوف الاصطناعية لتكون مساكن للسكان. وكان يتم الوصول إلى بعضها عن طريق ممرات أفقية حفرت عند أطراف التل، بينما يتم الوصول إلى البعض الآخر عن طريق حفر عمودية حفرت في جوانبها أماكن للأرجل والأيدي تقي المرء من خطر الانزلاق والسقوط، ومن هذه الحفر تخرج ممرات أفقية تؤدي إلى الكهوف. كان معدل سعة الكهف الواحد حوالي ١٤ × ١٠ قدماً وكان يتصل بممرات

أو دهليز تؤدي إلى غرف عددها خمس أو ست أو سبع، ويوجد على طول جدران هذه الغرف عدد من الحفر كان بعضها يبطن بالقصارة تبطيناً جيداً، مما يدل على أنها كانت تستعمل آباراً لخزن الماء. وكان يقوم وسط هذه الغرف أو في الممرات الموصلة بينها صوامع الغلال الحميلة الشكل التي تتسع لحوالي ٤٠ إلى ٥٠ بوشل (مكيال إنكليزي للحبوب يساوي ٣٦,٢٥ كيلو غرام) وكانت الحفر ومواقد النيران تنتشر فوق سطح التل. وتشير غرف السكن الرئيسية إلى عدد من الطبقات السكنية التي ينتشر فوقها الرماد والأدوات المنزلية، ويفصل هذه الطبقات بعضها عن بعض رواسب رملية. أما الحفر والصوامع فيمكن أن تنسبها إلى الطبقات المتعاقبة. ويبدو أنه كان هنالك أطوار بدائية متعاقبة، وذلك بسبب طبيعة الرمل الناعم اللين الذي حفرت فيه الكهوف التي كانت آيلة للسقوط والانهيار من آن لآخر. لذا كان يقوم على أنقاض المسكن المنهار مسكن آخر جديد، أو يقوم المسكن الجديد في الحفرة التي تكونت من انهيار الكهف السابق، وغالباً ما يتكون المسكن الجديد من بناء يكون جزء منه فوق سطح الأرض. وقد أمكن تتبع ثلاث مراحل سكنية تقع تحت سطح الأرض، أما المرحلة الرابعة فتشير إلى تغير عظيم في البناء الذي أقيم فوق الحفر التي امتلأت خلال تعاقب الحقب القديمة، وكانت بيوت المرحلة الرابعة ذات جدران قائمة ومستقيمة بنيت فوق أسس من الحجر. ويبدو أن هذا المجتمع الغريب من سكان الكهوف والذي نستنتج من العشرين بيتاً التي تم العثور عليها أنه كان يتكون من حوالي مائتي نفس كانوا يعيشون مبدئياً على الزراعة، ولم يمارسوا الصيد، بدليل عدم وجود رؤوس سهام ضمن صناعتهم الصوانية، بينما تشير صوامع الغلال الكثيرة على محصولهم الوافر بالرغم من بيئتهم القاحلة. والشيء الغريب عنهم أنهم كانوا من العاملين في النحاس، وقد وجدت أدلة كافية على العملية برمتها.

كانت تتم أولى عمليات صناعة النحاس في مواقد مكشوفة، وبعدها تصهر الخامات في أفران أنشئت خصيصاً لهذا الغرض. وكانت الأفران دائرية يبلغ قطر أحواضها

من قدم إلى ١٨ إنشاً، وكان لها جدران سميكة من التراب الممزوج بالقش والتبن. وقد لوحظ أن القسم الداخلي منها كان مقصوراً بمخلوط من المادة المنصهرة والسليكا (الرمل) والمادة المتخلفة عن الصهر. بعدها تنقى الخامات في بواتق خصوصية ثم يصب النحاس النقي في قوالب. بالرغم من أننا تتبعنا العملية منذ بدئها إلا أننا لم نعثر على قوالب مطلقاً.

تقع أقرب مناجم للنحاس يمكن الحصول منها على خاماته إلى الجنوب من دير أبي مطر على بعد ستين ميلاً تقريباً. لذا يجب أن تكون هناك تجارة منتظمة بخامات هذا المعدن، كما يجب أن يكون سكان تل أبي مطر قادرين على إنتاج الموارد الغذائية الكافية لتزويد العاملين بالنحاس، وتزويد الجماعات التي تسافر جنوباً لتستخرج خاماته أو تشتريها من تجار متجولين. ولما أصبح العمل بالنحاس مهنة المتخصصين أصبح لزاماً على المجتمع تزويد هؤلاء بالمنتوجات الغذائية لتأمين سير العمل بانتظام. وهذا يقدم لنا دليلاً هاماً على مرحلة الانتقال الهامة من حياة الاكتفاء الذاتي في العصر الحجري الحديث إلى حياة التخصص والاعتماد على الغير، كما يدلنا على أن استعمال المعدن لم يصبح بعد عاملاً مسيطراً على الحياة، حيث نلاحظ أن أدوات وحاجيات سكان تل أبي مطر لا تزال في معظمها صوانية، وأن الأشياء المصنوعة من النحاس والتي تم العثور عليها لم تتجاوز عدداً من رؤوس الصولجان (ربما كانت هذه لأغراض دينية وليست حربية) والدبابيس والخواتم والأسطوانات وأدوات الزينة، ويدل هذا على أن المعدن كان لا يزال غالياً جداً لا يمكن استعماله في الأغراض اليومية البسيطة.

لا يوجد هنالك أدنى شك في أن هؤلاء السكان كانوا على صلات بسكان الغسول. وقد لوحظ أن صناعة الصوان لم تكن متشابهة في المكانين. لأن معظم أدوات المطريين لم تكن مصقولة صقلاً جيداً، وأنها صنعت من الصخور المتوفرة محلياً. ولكن كان

بينها عدد قليل جداً من المقاشط الجميلة التي تشبه مراوح السيدات والتي كانت منتشرة في الغسول. وقد استعمل المطريون أيضاً المعاول الغسولية ذات السطح النافر كسنام الجمل. أما أدواتهم الحجرية فتشمل أواني البازلت (حجر ناري أسود) ذات القواعد الشبيهة بالمجمرة. وكان هذا النوع خاصاً بالغسول وبالأماكن الواقعة في وادي غزة. أما الفخار فلم يكن ليشبه الغسولي، ولكنه يحتوي على عدد من أشكاله وخاصة الجرة القربية الشبيهة بالطائر أو المتخصة.

ويظن أن البيوت القائمة الجدران التي شيدت في أواخر مرحلة من مراحل تل أبي مطر كانت معاصرة لبيوت الغسوليين التي ترجع إلى المرحلة الرابعة. وربما توجد في الطبقات السفلى من تل الغسول التي لم تكشف بعد كهوف سكنية تشبه كهوف المراحل الأولى في تل أبي مطر. ولكن هذا الظن شيء ممكن وليس مؤكداً، لأنه كما سبق وأشرنا في الفقرة السابقة إلى وجود عدة اختلافات بين الجماعتين.

ومن معرفتنا الدقيقة بالحضارة الغسولية وغيرها يمكننا أن نستنتج ثلاثة استنتاجات هامة:

١ - أنها كانت دخيلة وليست أصلية في فلسطين. بالرغم من أن فخارها الذي تطور تطوراً مذهلاً لم ينقل من مكان آخر بل كان موجوداً كما نعرف في فلسطين من قبل، وكذلك صناعة الصوان وخاصة في غسول نفسها: إذ هي هنالك فريدة في نوعها. وقد جرت محاولات شتى لإيجاد شبيه لصناعتي الصوان والفخار ولكنها جميعاً باءت بالفشل. ولكن يمكننا أن نجد بعض الشبه في مصر، ولكنه شبه عام جداً يستطيع المرء بسهولة أن يستنتج منه أن الشعب المطري لم يأت من تلك الجهة. أما ما يمكننا أن نستنتجه فهو أن الشعب المطري قد أتى من الشرق أو من الشمال الشرقي، وأن أدواتهم التي استعملت في هذه الفترة لا تزال مجهولة بسبب قلة الحفر والتنقيب.

٢- وجود عدد آخر من المجتمعات إلى جانب المجتمع المطري، ولكن الروابط بينها كانت واهية. إذ لا نجد أي شبه في الأدوات وطرق الحياة بين الغسوليين وسكان وادي غزة أو المطريين. ويظن أن هذه الجماعات كانت تسكن في أطراف المناطق. ولكن علينا أن لا ننسى شدة خصوبة وادي الأردن عندما يسيطر شعب يستقر فيه على مصادر المياه، وأن لا ننسى أيضاً التأثير العظيم الذي يسيطر على المرء القادم من الجنوب عندما يقترب من بئر السبع في فصل الربيع، وهذا يفسر لنا لم: إذا اعتبر الإسرائيليون فلسطين بلداً تدر السمن والعسل. أما من الناحية الثانية فإن منطقة وادي غزة منطقة تقع على حافة الصحراء الحقيقية.

أما المقارنة الاقتصادية بين مجتمعات هذا الوادي وبين الغسوليين والمطريين فقد دعمتها كمية رؤوس السهام الكثيرة التي وجدت ضمن آثار مجتمعات الوادي، ولكن وجدت رؤوس سهام أيضاً في مناطق الشمال مثل العفولة الواقعة في مرج بن عامر والحضيره الواقعة في سهل شارون (سهول فلسطين الساحلية) بالرغم من أن هذه المناطق غنية جداً بالزراعة. من هذا نستنتج أن الجماعات الرحل قد استوطنت كل أنحاء البلاد، وتشير الدلائل الحديثة إلى أنها وجدت في الجنوب أكثر منها في الشمال. وقد كيفت كل منها طرق حياتها حسب البيئة التي نزلتها.

٣- بالرغم من أن الدلائل تشير إلى أن المطريين كانوا يعيشون حياة انتقال نحو التقدم العظيم جهة العصور المعدنية إلا أنهم قد أسهموا قليلاً في حضارة فلسطين، وهذا مما يدعو للدهشة والاستغراب. كما أننا لا نجد أي دليل على صناعة الغسوليين في الطبقات السفلى في أي من المواقع التي تطورت وأصبحت مدناً فيما بعد، ويدل هذا على أن المجتمع الغسولي قد انقرض دون أن يرتبط كثيراً بغيره، فالأشكال الفخارية والصوانية التي نعرفها عند الغسوليين لم نجد لها أي أثر في العصر البرونزي القديم. لذا يجب علينا أن نبحث عن أصل بناء مدن العصر البرونزي القديم في غير

هذه الأمكنة. وحتى الآن لم يتوفر لدينا أي دليل مباشر يدل على تاريخ قيام الحضارة الغسولية. أو كل ما لدينا هو أننا لا نزال ندرس فترة قديمة نسبياً تقدمت التجارة فيها حتى شملت فلسطين بأسرها، ولكنها لم تشمل مساحة كافية لإنشاء علاقات قوية مع كل من مصر وبين النهرين شبيهة بتلك التي قامت فيما بعد. ويظن البعض أن الفخار الغسولي ذا الأشكال الهندسية الحمراء التي رسمت فوق سطوح صفراء اللون يشبه الفخار الخلفي الذي ظهر في زمن الحضارة النحاسية الواسعة الانتشار في الجزء الشمالي في الهلال الخصيب. فإن صح هذا وقبلنا بتأخر زمن انتشار هذه الحضارة جنوباً فيكون ذلك قد حدث في مطلع الألف الرابع، فالأشكال الفخارية التي أشرنا إليها هي روابط مدعاة للشك، ولكن يعتقد البعض أنه ظهرت في النصف الأول من الألف الرابع فترة حضارة جديدة. هنالك رابطة فخارية بسيطة مع فخار أريحا الذي ظهر في العصر الحجري الحديث (B) حيث نجد الأواني ذات الأشكال القمعية، بينما لا نعثر على بقية الأشكال الغسولية الأخرى. وعلى هذا تكون الفترة الرئيسية في الحضارة الغسولية قد ظهرت أثناء فجوة في حياة أريحا القريبة منها. أما من ناحية ثابتة فتشكل الأواني القمعية حلقة وصل مع مكان آخر سيكون قريباً موضع اهتمام ودراسة هو تل الفارعة الواقع قرب نابلس. وقد تبين أن تاريخ هذه الأواني يرجع إلى العصر النحاسي المتوسط. أما العصر النحاسي الحديث فيقع كما سترى في الثلث الأخير من الألف الرابع.

تشير الدلائل عموماً إلى أن الحضارة الغسولية قد تسربت إلى فلسطين في النصف الأول من الألف الرابع.

نستنتج مما تقدم أن الغسوليين كانوا دون شك جماعة من المهاجرين، وأنهم بكل تأكيد لم يحتكوا بجميع المجتمعات الأخرى التي أخذت الحفريات تظهرها تدريجياً إلى الوجود، والتي عاشت في الفترة الواقعة بين العصر الحجري الحديث والمراحل التي سبقت نهاية العصر البرونزي. ويمكن اعتبار بعض هذه المجتمعات أحفاداً محليين

لسكان الحولان وأريحا في العصر الحجري الفخاري وتدل الحفريات في المستويات السفلية في بيسان ومجدو وأريحا على شيء من هذا القبيل. بينما تدل الدراسات الحديثة في وادي الأردن على وجود عدد من الأماكن القديمة التي كانت قائمة في هذه الفترة العامة. وعلينا أن نتصور أن فلسطين كانت في مطلع الألف الرابع مأهولة بعدد من المجتمعات المختلفة الأصل والتي كانت تعيش معاً جنباً إلى جنب.

وفي نهاية العصر الألمي نصل إلى فترة زودتنا الحفريات عنها بالأدلة الكثيرة، حيث نصل إلى فترة أسست فيها المدن الكثيرة التحالفية، وقد سبق وأشرنا إلى أننا لم نجد أي شيء غسولي مهما كان نوعه في قواعد هذه التلال. بل وجدنا مواد جديدة في الطبقات السفلى في عدد من المواقع الهامة، استطعنا بها أن نحصل على وصف كامل مباشر للعصر البرونزي. لذا فإننا على عتبة فترة تاريخية جديدة.

الفصل الرابع

العصر الأول للمدن

واكب هذا العصر الجديد غزو عدد من الأقوام الجديدة التي تواترت أخبارها عند الكلام عن تاريخ فلسطين. وقد وصل هؤلاء بصفتهم رجال قبائل مهاجرة ربما من مناطق مختلفة، وحملوا معهم مدنية قائمة لعصر المدن. وكما يتبين في الفصل الأخير فقد نمت النزلات التي أقامها هؤلاء إلى مدن، وذلك في العصر البرونزي القديم. وقد حدث هذا الغزو في الثلث الأخير من الألف الرابعة ق.م. ولأسباب سيجري بحثها فيما بعد وجد أن أفضل تسمية لهذه المرحلة التي وجدوا فيها هو عصر المدن الأول.

ويأتي أول شاهد على وجود هذه الأقوام الجديدة من القبور التي وجدت؛ إذ تشهد مقابرهم على وجودهم بأعداد كبيرة وفي منطقة واسعة في الشمال ووسط البلاد، ولكن الشاهد على معالم نزلاتهم الحقيقية كان ضئيلاً إلى حد ما. ووجدت على عدد من المواقع التي تمت فيما بعد إلى مدن كتلال مجدو وأريحا وبيسان وتل الفارعة مجموعة فخارية ومعالم لطبقات الاحتلال على أساسات ركام المدينة، إلا أن الأبنية كانت قليلة. وفي مواقع أخرى كتل النصبة مثلاً الذي يبعد أميالاً قليلة شمال القدس والسامرة، وجدت دلائل على هذا الاحتلال. إلا أن المواقع هذه قد هجرت في كلتا الحالتين في العصر الحديدي فيما بعد، وربما انصهر أول سكان للقرى في مدينة ما في مكان آخر.

وينبعث مظهر القبور نفسها على الاهتمام، وهي شاهد آخر قوي فوق أشكال الفخار الجديدة على وصول أقوام جديدة كاملة. وقد شقت القبور لأول مرة في فلسطين في الصخر. واستعملت الكهوف الطبيعية ووضعت بداخلها مدافن عديدة تقدر بثلاثمائة أو أربعمائة من الأفراد. على مدى طويل من الزمن. أما في أريحا فالتباين واضح جداً ففي جميع المنطقة الواسعة التي جرى التنقيب فيها عن القبور لم يظهر قبر واحد من عصر أقدم من هذا العصر: إذ دفن سكان العصر الحجري الحديث قبل الفخاري من كلا الجمعين تحت أرض منازلهم. ولم يوجد شاهد يدل على الكيفية التي تخلص بها كل من أقوام العصر الحجري قبل الفخاري من أمواتهم. ومن هذا يمكننا أن نستنتج بأنهم لم يدفنوا بشعائر رسمية، إلا أن الأجساد كانت ببساطة مكشوفة ما عدا تلك التي دفنت في قبور بسيطة لا تتطلب الحاجات التي يتطلبها القبر؛ إذ وجد في الأرض المحروثة شرق وجنوب التل والتي تتشابه تقريباً. وهناك رأى بأن مدافن الغسوليين لها علاقة مع أنصاب ما قبل التاريخ التذكارية. ولكن الشاهد على هذا غير واضح للان. ومع الوافدين الجدد في الجزء الأخير من الألف الرابعة ظهرت إجراءات الدفن الجماعي المتعددة في القبر الواحد. ولفائدة علماء الآثار كانت لهذه العملية علاقة بعملية وضع الهدايا مع الأموات. ويظن أن هذه الهدايا كانت في الأصل طعاماً وشراباً. ولربما الروائح والعطور. ولكن الذي بقي منها هي الأوعية الفخارية، وتقدم هذه الأوعية لنا الشاهد لنعرف الثقافة التي اعتنت بها الجماعة التي استعملت القبر، وبوجود هذه الأوعية في القبور والتي كثيراً ما كانت سليمة في الوقت الذي وجدت فيه فقط الشقف المكسورة في المواقع التي جرى فيها الاحتلال دليل على أن رواسب القبر هي عنصر هام في نطاق معرفتنا للفخار. وعلى أية حال يجب أن نذكر أنه لم يجر وضع جميع أشكال الأوعية في القبور (مثلاً فقدور الطبخ كانت نادرة دائماً) ولهذا فقد ظهر اختلاف بين شكل الأشياء التي وجدت في القبور وتلك التي وجدت في رواسب الاحتلال المعاصر.

ومن المحتمل أن الوافدين الجدد قد قدموا من الشمال والشرق؛ إذ إن اكتشاف الشاهد القليل حتى الآن على وجودهم قد ظهر في جنوب فلسطين ما عدا موقع (جازر) السهل الوصول إليه من السهول الساحلية. ففي هذه المنطقة فقد يفترض أن خلفاء السكان الغسوليين استمروا يعيشون جنباً إلى جنب معهم. وأصبحت أريحا البوابة الطبيعية لدخول الأقوام الوافدين من الشرق، ويوحي الشاهد بأن بعضهم قد أتى في الواقع بهذه الطريقة.

واحتوت دستة القبور في أريحا على فخار من نفس الأشكال الجديدة. وهذه القبور شقت في حجر ملس ناعم في المنحدر الذي يحيط بالنزلة. أما سقوفها فقد اختفت في هذا العصر، وهذا يدل على وجود تآكل كبير متعاقب للصخر. وهذه النقطة سنعود إليها بالذات فيما بعد. أما ما بقي قائماً منها فكانت الأساسات وجدران الغرف الكبيرة والتي تبلغ مساحتها ٥ × ٤ × ٣ أمتار مع الأجزاء السفلية لفتحات المداخل التي اتسعت لهم. أما من حيث بناء هذه القبور بشكل عام فقد وجد تشابه بينها وبين القبور التي أتت بعدها والتي كان تاج المدخل فيها عمودياً وبشكل دائري خشن. وذلك من القاعدة، حيث يقود مدخل إلى غرفة القبر في هذا العصر. وهذا الاستنتاج يعود إلى بقاء الجدران قائمة على علو مترين.

وكانت إجراءات الدفن في هذه القبور غريبة. فقد حوت بمجموعها بقايا عدد كبير من الأجساد. وفي حالة واحدة حوى أحد هذه القبور مائة وأربعين جسداً، وفي حالة أخرى حوى قبر أربعمائة من الأجساد. ومع إمكانتنا القول بأن أربعمائة جسد كانت ممثلة فليس لدينا مثل البقايا الكاملة للأربعمائة جسد هذه، وقد جرى عدّ هذه الأجساد بناء على الجماجم التي وجدت. وهذه الجماجم نجدها في أغلب الأحوال قد فصلت فصلاً تاماً عن الأجساد ووضعت كاملة حول حافة القبر. وفي وسط القبر كان هنالك خليط من عظام أخرى أكثرها مبعثرة؛ إذ إنه في بعض الأحيان يجد الإنسان

طرفاً متماسكاً كاملاً ساقاً كان أم ذراعاً وفيما: إذا كان مستقلاً عن باقي الجسد، وفي أحد هذه القبور جرى حرق هذه العظام في المنطقة الوسطى منه، وقد لحقت النار القليل من الجماجم القريبة من الحافة وإن لم تكن من العظام المحترقة، ولكن لم توجد أدلة ثابتة على وجود النار في القبور الأخرى، وهنالك حقيقة ثانية لافتة للنظر وهي عدم وجود عظام طويلة كانت تتساوى مع عدد الجماجم، وتشير كل هذه إلى أن المدافن كما وجدناها كانت ثانوية في الواقع، وهذا يجعلنا نقول إن العظام كانت موضوعة في نفس وضعها عندما تحلل لحم الجسد، ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت المراحل الأولى، وهل كانت العمية طويلة من وحي وجود المدافن المستمرة في كل قبر، وعندما كانت الأجساد تتحلل ويوضع فوقها موتى جدد ومن ثم توضع الجماجم حول الحافة وتترك باقي العظام في الوسط أو تجمع الهياكل على فترات من قبور أخرى، أو ببساطة بعد تكشفها ومن ثم توضع الجماجم وبعض العظام الأخرى في القبور (المعظمة) مستودع تحفظ به عظام الموتى —وعلى العموم فالعملية الأخيرة تظهر على أنها أكثر احتمالاً؛ إذ لو كان هناك استعمال طويل مستمر من غير المحتمل أن الجماجم القديمة كما ظهر لم تسحق في هذه العملية، بينما لا يزال بعضها يحتفظ بالعظام الهشة للوجه، ومن جهة أخرى ففي القبور التي أتت متأخرة في العصر البرونزي القديم فقد ظهر بوضوح أن المدافن كانت تحوي أجساداً سليمة، وعندما جرى تهيئة المكان لموتى الجدد فقد نفدت الكثير من العظام الطويلة، وعلى أية حال لم يجر في هذه المرحلة عادة ترتيب الجماجم بهذا الشكل، لذا من الممكن أن العملية لم تكن مشابهة، وبقي السؤال دون جواب لهذا الوقت.

ولم تعطِ الأوعية الفخارية التي وضعت في هذه القبور سلسلة كبيرة من الأشكال، وتتألف الأغلبية الكبرى من كؤوس مسطحة ذات جوانب منمقة قليلاً وأباريق صغيرة ذات شكل منتفخ ويد كبيرة ترتفع في بعض الأحيان فوق حافة الوعاء وبعض الكؤوس والأباريق كانت عليها نقوش بسيطة بالخطوط الحمراء والسمراء. وبالإضافة إلى

هذه كانت هناك بعض الجرار ذات أيد ناتئة وبعضها الآخر ذات أفواه بارزة، وفي أحد القبور والذي يمكن اعتباره ممثلاً لهذه المجموعة وجد وعاء على شكل خلية النحل وله فم ويدان على كل جانب منه.

وهذا النوع من الفخار وجد في قبور في عدد من الأماكن الأخرى، وفي تل نصبه ظهر أن سلسلة الأشكال التي وجدت في قبور ٣٣ و٥٢ و٦٧ كانت متشابهة، وأن نفس الجماعة من السكان قد خرجت من أريحا إلى أواسط البلاد، ولكن ظهر في قبر آخر في نفس الموقع، فالكهف ٥-٦ الذي استعمل قبراً وفي موقع الذي لا يبعد عن تل نصبه في قبور...... نفس الفخار الذي له علاقة مع نفس الشكل المميز لم يوجد في القبر رقم ٩٤ أ في أريحا مع المجموعة المتخالفة، وهذا النوع عرف بزخرفته وبالنماذج المتقنة من الأطواق المتجمعة التي تختلف عن الخطوط البسيطة الجافة التي هي كل ما وجد في المجموعة الأخرى، فأشكال الكؤوس العميقة والأواعية التي صنعت على شكل السلال ذوات الأيدي مع وجود رقم عمودي لها والقرب ذات القاعدة المستديرة كانت مختلفة أيضاً.

ويتضح هذا التمييز أكثر بواقع أن القبر الوحيد رقم ١٢أ في أريحا قد وجد على الطبقات السفلى التي حوت فخاراً مثل ٩٤أ، وبناء على شاهد الخزف فلدينا جماعتان من السكان فسكان ٩٤أ يمكننا تسميتهم بسكان عصر المدن الأول (أ) وسكان ١٢أ بسكان عصر المدن الأول (ب) ففي أريحا وفي بعض قبور تل النصبة تظهر هاتان الجماعتان بصورة مميزة، ولكن لا بد أنهم كانوا يعيشون جنباً إلى جنب، وبناء على الشاهد الذي وجد في تلك النصبة وهو الكهف رقم ٥-٦ الذي استعمل قبراً وعلى قبر عالٍ فلا بد أنهم اختلطوا في الوقت المناسب، فقد وجد فخار السكان (ب) في موقع أوفيل وهو أنف الجبل الذي يقع شمال مدينة القدس حالياً والتي كانت موقع أقدام نزلة ولكن من غير المؤكد: إذا كانوا قد اختلطوا هنا مع السكان الأول أم لا.

وقد وجد سكان عصر المدن الأول في الشمال أيضاً، إذ بدأت بعثة من أتباع الكتاب المقدس التابعة للآباء الدومانيكان في القدس بإجراء الحفريات في سنة ١٩٤٦ في موقع تل الفارعة الضخم. ويجب أن لا نخلط هنا بين الموقع الذي يحمل نفس الاسم (والذي أشير إليه في هذا الكتاب على أنه تل فارة وذلك للتمييز بينهما) في جنوب فلسطين ويقع في وادي الفارعة والذي هو أحد الأودية الرئيسية التي تشير إلى الجهة الغربية من وادي الأردن قرب نابلس، ولهذا الموقع تاريخ طويل وإن لم يصادف فراغاً من العصر الذي نتكلم عنه إلى العصر الحديدي. عندما كان له مركز ذو أهمية خاصة بالنسبة لصلته بتاريخ التوراة (الفصل (١١))، وبالإضافة إلى أن هذا الموقع يقع على الطريق الهام بين الهضاب الوسطى والأردن فله امتياز بفضل وجود نبعين عظيمين عند سفح الرابية (التل) حيث قامت النزلة.

وقد تم الكشف عن منطقة صغيرة جداً من التل الكبير حتى بطن الصخر، وقد سمي الأب (دي فو) أول احتلال بأنه يعود إلى العصر النحاسي الأوسط، وفوق هذا أول الاحتلال هذا طبقة تعود إلى العصر النحاسي الأعلى، وتبين أن بقايا البناء في هذا العصر لم تكن متينة ولكنها تفسر وجود احتلال ثابت ومستقر. أما معظم المكتشفات (الموجودات) فقد أتت من قبور وجدت في كهوف كبيرة في المنحدرات التي تحيط بالتل. وظهر أن هذه القبور من طراز قبور هذا العصر، وذلك لاحتوائها على مدافن متعددة تشابه في شكلها قبور أريحا، ولكنها كانت مشوشة تشويشاً أكثر، وذلك من جراء الاستعمال المتعاقب لها.

وجدت هذه القبور فخار مشابه للفخار الذي دفن في قبور عصر المدن الأول (أ) في أريحا. ووجدت فيها نفس الأباريق العديدة ذات الشكل المنتفخ ونفس الكؤوس المسطحة أيضاً ذات الجدران المنحنية، ونفس الجرار ذات النتوءات الجانبية في الجرار التي تشبه خلية النحل، والتي لها بروز في جانبها وجدت أيضاً في هذه القبور.

وعلى أية حال فقد ظهر بعض الاختلافات؛ إذ كانت الأشكال أكثر زخرفة وأيدي الأباريق أكثر علواً، وبعض الكؤوس تطور صنعها فأصبح لها مقبض مخروطي الشكل في وسطها. ونوع من الجرار ضغطت عنه حافتها وهناك اختلاف آخر وهو أن قسماً كبيراً من الأوعية كان له لون أحمر لامع قوي. وهذا يندر وجوده في أريحا.

وقد يوحي هذا الاختلاف إلى أن قبور تل فارة وهي أحدث من الأولى، ما دامت هذه الأجزاء قد أصبحت معروفة في العصر البرونزي القديم.

وهناك اختلاف آخر أكثر أهمية. فقد وجد مع فخار عصر المدن الأول (أ) نوع لم يوجد في أريحا أو في مواقع الهضاب الوسطى حيث استقرت جماعة عصر المدن الأول (أ و ب)، وهذا النوع ذو شكل مميز بسطحه المائل الرمادي اللامع. وقد وجد هذا النوع في عدة مواقع في جنوب فلسطين: إذ عرف أولاً في مجموعة من المواقع في مرج ابن عامر. وعرف عادة باسم خزف مرج ابن عامر. وفي تل الفارعة فالقبور التي حوت فخار عصر المدن الأول (أ) قد حوت خزف مرج ابن عامر كما حوت أيضاً طبقات العصر النحاسي الأعلى في هذا التل، ولذلك فقد ظهر بأنها تتبع نفس الثقافة. وبين الشاهد في أريحا على أن هذا ليس ضرورياً دوماً، ولذلك يمكننا التعرف على مجموعة ثالثة تدل على عصر المدن الأولى (جـ).

وفي هذه المرحلة نأتي أولاً إلى موقع مجدو الكبير حيث وجدت نفس الصلة بين عصر المدن الأول (أ و ب وجـ)، وربما تمثل هذه المدينة القديمة التي ذكرت مراراً في التوراة أعظم تل مثير للإعجاب في جميع فلسطين اليوم. وهذا التل عبارة عن ركام بيضاوي الشكل يتجه شمالاً ويطل على مرج ابن عامر، وأهميته العظيمة في أزمنة التاريخ هي في الواقع حراسة الطريق الذي يمر عبر المنخفض الضيق بين جبل الكرمل صعوداً حتى البحر وبين سلسلة الجبال الوسطى، ويشكل هذا الطريق جزءاً من الممر التاريخي الطويل والهام بين مصر وسوريا. فاهتمام مصر في السيطرة

على مجدو قد ذكر في عدة مراحل في السجلات المصرية. وعلى أية حال فقد بينت الحفريات أول احتلال لهذا الموقع يعود إلى ما قبل الإمبراطورية المصرية وقد بدأ بإثارة الاهتمام في الاتصالات الخارجية.

وأصبحت مجدو كأريحا موضع اهتمام أكثر من بعثة من بعثات الآثار. وأكبر محاولة طمحت للتنقيب كانت الحفريات التي بدأ بها المعهد الشرقي في شيكاغو سنة ١٩٢٥، وكانت الخطة هي أن يجري الكشف عنه كاملاً من القمة حتى القاعدة، ولكن ركام مجدو هذا يغطي عند قمته مساحة (١٣) أكر وعمقه في الوسط هو ٥٥ قدماً تقريباً. وبرهنت الخطة على أنها أكبر من الإمكانية المعدة حتى إمكانية المعهد الشرقي، ونتيجة للموقع المالي السيء في سنة ١٩٣٠ تبينت خطة أقل من الأولى، وبالنهاية فقد جرى التنقيب عن قاع الركام في منطقة محدودة جداً.

وفي هذه المنطقة الصغيرة امتد الركام على منحدرات التل أيضاً والتي يقوم فيها التل منطقة أخرى جرى تنظيفها (الكشف عنها) قبل تراكم التراب عليها، وظهر شاهد لوجود مدينة قديمة قبل أن تصبح مجدو مدينة ذات أسوار. وأول احتلال لهذا الموقع كان غريباً نوعاً؛ إذ وجد في كهف على سطح الصخر؛ إذ حوت الرواسب فقط أدوات من الصوان والعظم دون وجود فخار على الإطلاق. ولكن الصوان كان من نفس نوع أول احتلال على سطح الصخر والذي له علاقة كما سنرى مع فخار النصف الثاني من الألف الرابعة، ولذلك ربما لا يكون أقدم من هذه المرحلة، ولكن ثقافة استعمال الفخار بصورة كاملة هذه المرة بالطبع والتي وصفت لنا وجدت منتشرة بشكل واسع في فلسطين. ومن الغرابة وجود مجموعة قائمة في مجدو قبل مرحلة استعمال الفخار، وقد يكون هناك بعض التفسير لاستعمال مثل هذه الكشف بشكل خاص، أو أن يكون تصويراً آخر للأقوام المتفرقة التي عاشت في فلسطين والتي تقدمت كل منها نحو المدنية بنسب مختلفة.

ومع أن هؤلاء السكان القدماء في مجدو عاشوا في الكهوف كما يظهر، ومع أنه لم توجد أبنية في المنطقة التي جرى التنقيب فيها والتي يمكن نسبتها إليهم، فقد كانت أدواتهم بدائية على الإطلاق.

ومن بين الأدوات المصنوعة من الصوان أو (من الصخر الصواني) التي وجدت كانت هناك رؤوس رماح بينت أن الصيد قد لعب دوراً في اقتصادياتهم. ولكن كان هناك أيضاً عدد من أنصال المناجل توحي بأنهم كانوا يتعاطون الزراعة، وبينت مجموعتان كاملتان من أسنان المناجل بأن طول أطرافها القاطعة كانت ٣٢ سنتم، وهناك أيضاً عدد من العصي المصنوعة من العظم تبعث على الاهتمام، وقد جرى كشطها من عظام طويلة ومدببة من طرف واحد ومثقوبة من الطرف الآخر. ومن الممكن أن هذه قد استعملت (كابر مكوك) في أعمال النسيج لشد (اللحمة) ما نسج عرضاً من خيوط الثوب، ولا بد أن القماش كان خفيفاً ما دامت الأدوات رفيعة، وقد يكون صنع من مادة تشبه الكتاب. ووجدت أدوات مشابهة (في غسول) حيث تبين أن قطعة من القماش ربما نسجت من بعض خيوط النبات.

وكانت هناك ثقافة بدائية واضحة للسكان الذين وفدوا فيما بعد وعاشوا على سطح الصخر. أما ما بقي من الأبنية فكانت الأساسات الطفيفة غير المنتظمة والمنصكة التي توحي بأبنية مهلهلة، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عدد من الحفر شقت في الصخر وكان بعضها بدون ريب يماثل في وظيفته كحفر للخزين، الحفر الفسولية — المكسوه بالطوب والحجارة. وقد يكون قد استعمل البعض الآخر منها لبعض الأغراض كمعصر الزيتون لاستخراج الزيت: إذ كثيراً ما وجدت حفرتان متصلتان بقناة بينهما. ولا بد أن الاحتلال كان واسعاً جداً في هذا العصر؛ إذ إن المنطقة التي وجد عليها تمتد إلى منحدرات التل. وظهر أن المادة التي استخرجت من طبقات التل السفلى كانت متنوعة: إذ لم تحلل الرواسب الطبقية تحليلاً صحيحاً. وتحوي هذه مادة لها صلة مع العصر الحجري الحديث الفخاري أ. ب في أريحا

-ومع رقائق العصر النحاسي والتي لها بعض العلاقة مع الغسوليين وفي الطبقات السفلى للاحتلال القديم أيضاً والذي انتشر في أسفل منحدرات التل قبل أن يجري التعرف على النزلة الأخيرة التي تكون النواة- وجدت أوعية من خزف مرج ابن عامر ومن مادة عصر المدن الأول (أ) (وإن لم تكن ذات صلة في الواقع) وكان بعض هذا الاحتلال قد وجد في الكهوف؛ إذ وجد في كهف ٩٠٣ وأمكنة أخرى نفس الفخار في طبقات الاحتلال تحت مدافن العصر الذي تلاه.

ووجد فخار عصر المدن (جـ) في موقعين أخريين في مرج ابن عامر وهما العفولة وبيسان، ففي العفولة كان الشاهد ضعيفاً، ويعود ذلك إلى طبقة الحفريات. أما في بيسان فالطبقات السفلى للتل الكبير التي تمثل المدينة المنافسة لمجدو في الأهمية وفي تاريخ لاحق قد فحصت إلى عمق بسيط فقط، وحوت الطبقات السفلى والرواسب التي وجدت في الحفر والطبقة الثامنة عشرة مادة يمكن أن تنسب إلى فخار العصر الحجري الحديث، وقد تمثل العصر النحاسي المحلي الذي وجد جنباً إلى جنب مع العصر الغسولي الذي تم فيه اتخاذ الحفر مساكن للسكن، وفي الطبقة السابعة عشرة ظهر خزف مرج ابن عامر وكان أكثر وجوده في الطبقة السادسة عشرة. وعلى أية حال ففي هذا الموقع لا توحي المادة التي وجدت إلى نماذج مع عصر المدن الأول (أ) وتعد بالأحرى مع العصر النحاسي المحلي المتقدم، وهذه دلالة إضافية على الهوية المتباعدة لجماعة عصر المدن الأول (جـ).

ولم يوجد فخار عصر المدن الأول (جـ) في أريحا سوى في القبور أو في التل، ولكن وجد مع الفرابة الثامنة بكميات ضخمة في راسب تحت أريحا يعود إلى أيام هيرودوس، وعلى بعد ميل جنوب تل السلطان. والشاهد الذي وجد لم يكن واضحاً جداً، ولكن لم يتصور أي طابع لأشكال المدن الأول (أ) وقد تعود المادة المصاحبة إلى العصر النحاسي المحلي أيضاً، وبما أن شاهد تل الفارعة بين باب الجماعتين لا بد

أنهما كانتا متعاصرتين، فقد يوحي التباين الكامل بين الموقعين المتتاليين بقيام العداء بينهما في هذه المنطقة.

وبين التشابك بين جماعات عصر المدن الأول الثلاث وبين العصر النحاسي المحلي المفترض أن امتزاجاً داخلياً ومعقداً قد حدث وقد تكون العملية بسيطة بالطبع؛ إذ بين (رايت) بأنه من المحتمل جداً أن المراحل المتتالية لشكل كؤوس مرج ابن عامر يمكن تمييزها دوماً عما وجد في بيسان وفي تل الفارعة وقبور تل الفارعة ومع ما وجد في مجدو فيما بعد. قد أوحت أن قبور تل الفارعة قد وجدت بعد قبور عصر المدن الأول (أ) في أريحا وقلما زادت المادة من الإمكان إظهار نتائج كاملة.

وحتى الآن فقد بحثنا العناصر المختلفة والتي لها علاقة مع مجموعات أشكال الفخار المختلفة، وبينت أعمال التنقيب عن الآثار المتراكمة بأن مجموعة مميزة من أشكال الفخار كانت الشاهد. في الواقع وفي بعض الأحيان الشاهد الوحيد الذي بقي مجموعة مميزة من السكان. ولذلك يمكننا تقسيم فخاريا أ، ب، جـ إلى ثلاثة مجموعات من السكان الذين ظهروا في فلسطين في هذا الوقت، فقد ظهر هؤلاء السكان كمجموعات مستقلة كما بين الشاهد في أريحا، وحينما توغلوا في البلد امتزج بعضهم مع السكان الأصليين، وربما كانت الجماعتان (أ، ب) منفصلتين كما بينت مقابر أريحا؛ إذ كانت أريحا في الواقع منفذ الدخول لهاتين الجماعتين والتي تدل على أنهم وفدوا من الشرق كما فعلت عدة جماعات في تاريخ فلسطين فيما بعد.

ومن ثم فربما توغلوا في السفر باتجاه نجود البلاد حيث استقر بعضهم مع بعض في تل النصبة وفي موقع عالٍ، ويمكن أن البعض من جماعة (أ) تحولوا إلى شمال وادي الأردن ومن ثم غرب وادي الفارعة حيث قابلوا جماعة (جـ). ومن المؤكد أن الآخرين قد وفدوا من الشمال من منطقة نجود لبنان مباشرة أو ربما من داخل سوريا إلى الشمال الشرقي منها عابرين وادي الأردن بالقرب من بحيرة طبريا إلى

سهل مرج ابن عامر، ولسوء الحظ لا يمكن التعرف بصورة مرضية على أي موطن من مواطن هؤلاء الأقوام ما دمنا لا نستطيع الإشارة إلى نفس شكل الفخار في مكان آخر، ولكن هناك شك قليل بأننا سنتمكن بالتالي من الوصول إلى أهدافنا عندما نفحص الطبقات السفلى لمواقع الاحتلال في البلاد التي تتاخم حدود فلسطين إلى أن نعرف موطنهم بشكل أعم فيجب أن نقتنع الآن بإبقاءهم مجهولين وأن نشير إليهم بالأحرف الأبجدية.

ولم يذكر شيء للآن بالنسبة لتاريخ هذه المرحلة. أما بالنسبة للمرحلة التي سبقت وهي مرحلة الثالثة لأريحا والغسوليين فقد اقترح لها مؤقتاً النصف الأول من الألف الرابعة. أما هذه المرحلة فلدينا شاهدان واضحان لا لبس فيهما عليها. بالشاهد الأول الفحم النباتي الذي وجد في قبر من عصر المدن الأول في أريحا حيث جرى حرق بعض عظام الموتى، قد تعرض إلى تجارب الكربون – ١٤ وأعطى تاريخاً يعود إلى ٣٢٦٠ ق. م. أما الشاهد الثاني فقد أتى من مجدو فهي مراحل العصر النحاسي الثلاث، وقبل ظهور الشاهد الأول للمرحلة التالية وجدت عدد من الأختام مطبوعة على الجرار. وهذه من النوع التي حددها العلماء الموثوقون بأنها تعود إلى عصر (محمد بن نصر في العراق من ٣٢٠٠ ٢٨٠٠ ق.م.) ولهذا يظهر أن التاريخ الأوسط هو من ٣٢٠٠ ق.م. في هذه المرحلة قد يتوافق مع الشاهد الذي وجد.

ولذلك ففي القرون الأخيرة للألف الرابعة وفد إلى فلسطين عدد من الأقوام يمكن التعرف على ثلاث منها، ومن المحتمل جداً أن أبحاثاً أخرى ستزيد عدد هؤلاء الأقوام وإننا لنعرف الآن القليل من نوع معيشتهم؛ إذ إن معظم شواهدهم حصلنا عليها من القبور، ولكن هذه الحقيقة نفسها تخبرنا عن بعض الأشياء، فقد وجدت بعض الدلائل عن منازلهم في مجدو وتل الفارعة، وفي أريحا وجد شاهد من الفخار الذي وجد أيضاً في الحفريات القديمة بيَّن بأنهم عاشوا على جزء من الموقع وليس على الموقع بكامله وكانت منازلهم تافهة في كل مكان أقاموها، ولم يوجد شاهد على

أنهم عاشوا في مدن ذات أسوار وكانوا سكان قرى لا مدن، وبصرف النظر عن ذلك فإننا نعرف أنهم وضعوا الأموات في قبور على دفعات متعددة وكبيرة، وقاموا بإجراء طقوس غاية في الغرابة، ولكنها كانت على نطاق ضيق.

وفي مجدو شاهد آخر صغير، ولكنه يتصل مرة أخرى بالطقوس أكثر من اتصاله بشكل معيشتهم، وهذا الشاهد هو بناء وجد في الطبقة الثانية ما فوق بطن الصخر، وهو عبارة عن بناء مشين وربما كان معبداً. فهو يحوي غرفة اتساعها ٤ × ١٢ متراً مع مدخل في أحد الجوانب الطويلة، وفي مقابل الباب مذبح منخفض علوه نصف متر ومبني من الطوب المصنوع من الطين ومطلي بالجبص، وشكله مستطيل مع وجود عتبة منخفضة على أحد جانبيه، ومجموعة الحجارة المسفحة التي وجدت على أرض المعبد ربما كانت أضعف من أن تحمل أعمدة لدعم السقف. ولهذا فمن الممكن أيضاً وجود بعض المظاهر الدينية لها. وقد جرى تكبير المذبح فيما بعد فتخطت ما قادته صف الحجارة في وسط الغرفة. ويمكننا أن نأخذ مظهر هذا البناء على أنه بين التطور في حياة الجالية، وعلى ازدياد التجارب الزراعية، ولكن السكان كانوا لا يزالون من أهل القرى.

وقد تراكمت المعلومات الخاصة بهذه المرحلة في تاريخ فلسطين – تدريجياً على مدى العشرين سنة الماضية أو ما يقاربها. وعندما قام (رايت) – بدراساته التمهيدية عن المادة القديمة فقد صنف خزف مرج ابن عامر على أنه من العصر النحاسي، وعلى أن الفخار المزخرف الذي وجد في الموقع عاي وأوفل وجازر هو من العصر البرونزي القديم. وقد صنف الأب دي فوم مادة تل الفارعة على أنها من العصر النحاسي الأخير، ويمكن الآن بيان بأن جميع هذه الأقوام هم على الأقل متعاصرون نسبياً. ولذلك فضل (رايت) تسميتهم على أنهم من العصر البرونزي القديم؛ إذ شعر بعدم وجود فراغ بين هذه المرحلة وبين العصر البرونزي القديم بكامله في حين أن (دي فو) يفضل الآن أن يدعو أقوام أ. جـ بأقوام العصر النحاسي وأقو م (ب)

بأقوام العصر البرونزي القديم، لأنه يشعر بأن العصر البرونزي القديم قد انتشر فوق أرض فلسطين بفضل الأقوام التي كانت متوغلة في الجنوب.

وأما وجهة نظري الأصلية فقد ندعوهم أنهم كلهم يعودون إلى العصر النحاسي: إذ يظهر أنهم بإجمعهم يمثلون بعض الشيء نفس شكل احتلال المهاجرين الذين وصلوا مؤخراً والذين عاشوا في نزلات، مع شاهد ضئيل عن فن البناء وفي مدن لا أسوار لها، وذلك كطابع العصر البرونزي القديم بكامله.

وهذا الاختلاف في التسميات قد يكون كما يظهر مصدراً للتشويش. وهذا هو أحد الأسباب للاقتراح بإيجاد اصطلاح عصر المدن الأول. والسبب الثاني هو أنه يوحي بالمرحلة الاقتصادية الحقيقية لهذا التطور، وبرز من الأقوام المركبة لهذه المرحلة السكان الذين طوروا مدنية العصر البرونزي القديم، ومرحلة التطور هذه تماثل المراحل التي سبقت عصر الإمبراطورية المصرية وعصر السلالات القديمة في العراق، وفي مصر عرف هذا العصر على أنه السلالات الأولى وفي العراق وصلنا إلى اصطلاح عصر الحروف الأول مؤخراً. وفي فلسطين لم يلي أي عصر سواء عصر السلالات أو عصر الحروف، ولكن لحق بعصر يشكل تطور المدن. ومثل عصر السلالات الأول وعصر الحروف الأولى والذي غطى مثلها والقرون الأخيرة من الألف الرابعة في العصر ذو أثر فعال لتقدم المدنية، وعليه فإعطاء تسميات مشابهة هو على ما يظهر شيء مناسب جداً.

الفصل الخامس

الممالك المدنية في العصر البرونزي القديم

يمتاز الألف الثالث بظهور أولى الإمبراطوريات العظيمة في العالم القديم. كما يمتاز ببدء الحقبة التاريخية حيث أصبحت الوثائق الخطيّة تتّسم بما يجيء به علم الآثار. وأصبحت الحركتان متلازمتان معاً؛ إذ منذ أن تطوّر النظام الاجتماعي أصبحت الحاجة ماسة إلى إيجاد بعض الوسائل التي تمكن السلطة المركزية من تدوين المهام الملقاة على عاتقها وعاتق الرعية، بالإضافة إلى الحوادث والأمور التي تهم المجتمع. ومن بداية الألف الثالث ظهر هناك نظام للكتابة استعمل في أودية النيل ودجلة والفرات. وقد رافق هذا النظام وضع نظام للتاريخ (الرزنامة) دونت الحوادث بموجبه حسب تسلسلها الزمني. وقد استعمل هذا النظام في مصر ربما حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. بدافع الحاجة إلى معرفة بداية الفيضان السنوي لنهر النيل. ويعتبر نظام التاريخ المصري جسد تاريخنا الحديث وعليه تعتمد جميع التواريخ الأثرية.

تعكس هذه التطورات المختلفة مدى التقدم الذي فاقت به مدن الواديين العظيمين غيرها من مدن الهلال الخصيب. وقد أجمع العلماء على أنه كان هناك سببان رئيسيان دفعا بهذه المدن نحو التقدم، وكلاهما ناجم عن البيئة المحلية للمجتمع المعقد المتعدد للمطالب والحاجيات يختلف تماماً عن مجتمع بدائي تنتج فيه كل عائلة ما يكفيها من طعام وأدوات ضرورية لاستعمالها الخاص. فالمجتمع المعقد يعتمد على نسبة السكان فيه القادرين على إنتاج الطعام الكافي لإعالة الصنّاع والتجّار والعاملين في استغلال الموارد الطبيعية كالمحاجر والمناجم، إلى إعالة تلك الفئة من سكان المجتمع التي لا تنتج طعامها الخاص.

وقد أتاحت سهول أودية الأنهار الفرينية الخصبة الفرص لإنتاج الفائض من المحاصيل الزراعية، لذا أصبحت العوامل الحافزة على ظهور مجتمعات معقدة في هذه الأماكن أكثر من غيرها في الأماكن الأخرى، ولكن لا يتم استغلال هذه السهول الفرينية الخصبة على الوجه الأكمل إلاّ إذا تمت السيطرة على مياه أنهار الأودية، وأصبح بالإمكان تزويد السهول بما يكفيها من الماء وتصريف الزائد عن حاجتها.

لذا أصبحت عملية الري عملية حيوية أساسية تحتاج إلى نظام يهيمن عليها ويخطط لها ويبني القنوات ويضع النظام والقوانين حول كيفية استعمال المياه والإفادة منها. وقد تمركزت القوة المسيطرة على جميع نواحي الحياة في المجتمع بما فيها الناحية الدينية بيد السلطة المسيطرة على نظام الري، مما يؤكد أهمية الزراعة في المجتمع. وبذا تكدس الفائض من المنتوجات الزراعية بأيدي هذه السلطة.

أما السبب المحلي (البيئي) الثاني فهو أن هذه الأودية تفتقر إلى الكثير من المواد الخام، لذا أصبح من المحتمل على سكانها جلب هذه المواد الضرورية من الأخشاب والمعادن وأحجار البناء وحتى الصوان الذي تصنع منه الأدوات الحجرية من أمكنة بعيدة. فقد جلب المصريون مثلاً الأخشاب من لبنان والنحاس من شبه جزيرة سيناء وذلك لسد حاجاتهم الضرورية. وكان عليهم أن يدفعوا أثمان هذه المواد من الفائض عن حاجتهم من المواد الغذائية، أو عليهم أن يزودوا بالأطعمة التجار الذين يذهبون لإحضارها. لذا توفرت في أودية الأنهار دوافع غريبة لإنتاج الفائض عن الحاجة من المواد الغذائية.

أما المناطق التي افتقرت لمثل هذه الدوافع والظروف فقد أخذت في نهاية الألف الرابع تتخلف إلى الوراء، وقد استطاع العلماء اقتفاء أثر قيام مجتمعات زراعية ثابتة في فلسطين سارت قدماً على قدم المساواة مع تلك التي قامت في مصر وبين النهرين،

ففي فلسطين استقر البدو الرحل في قرى تحولت في نهاية الألف الرابع إلى مدن هامة. ويمكننا أن نرجع أصل الكثير من هذه المدن الهامة في الفترة التاريخية إلى مرحلة التحضر والاستقرار، أي إلى الفترة التي أخذ فيها عدد محدود من البدو الرحل يستقرون في بعض الأماكن ويبنون لأنفسهم قرى خاصة بهم، ولكننا لا نستطيع القول إن هؤلاء السكان قد تخطوا المرحلة المدينية وبقيت فلسطين بلداً تسوده الممالك المدينية، إلى أن جاء داود ووحد العبرانيين سنة ١٠٠٠ ق.م. في مملكة متحدة واحدة قصيرة الأمد.

كانت كل مدينة من مدن العصر البرونزي محاطة بأراضيها الزراعية الخاصة، وكانت هذه الأراضي تضم أحياناً بعض القرى التابعة لهذه المدينة. وكان الفائض من محاصيلها الزراعية يكفي لسد احتياجاتها الضرورية عن طريق التجار المتخصصين بالأعمال والحرف. وقد كشفت المخلفات الأثرية عن مدى بساطة تلك الحاجيات.

كان النحاس والبرونز نادرين في العصر البرنزي القديم، ولم ينتشر استعمالهما إلا في النصف الثاني من الألف الثاني. أما في الألف الثالث فقد أصبحت البضائع المستوردة قليلة، وأصبحت الحاجة إلى الصنّاع المتخصصين من مختلف الأنواع قليلة، وأصبحت حقول المدينة الزراعية تنتج فقط المحاصيل الكافية لسد حاجة سكانها، ولم يعد في قدرتها إنتاج الفائض العظيم الذي كانت تضعه في السابق تحت تصرف حكامها المحليين. لذا ضعفت سلطة هؤلاء الحكام ولم يعد في قدرتهم القوة الكافية للانفراد بالسلطة.

إن معظم ما أتينا على سرده في هذه العجالة هو من قبيل الحدس والتخمين بني على استنتاجات وتفسيرات أثرية، وبسبب افتقار مدن ساحل البحر المتوسط إلى مثل الدوافع والظروف التي توفرت في أودية الأنهار فإن قيام نوع من الكتابة فيها قد تأخر مدة ألف وخمسماية سنة. واستناداً إلى الوثائق الكتابية نستطيع القول إنه لم يكن في

فلسطين في هذا الوقت قوة سياسية ذات أثر فعال؛ إذ لو وجدت مثل هذه القوة لورد ذكرها في السجلات المصرية.

أصبحت مصر قوة عظيمة عند قيام الإمبراطورية القديمة، فامتدت وتشابكت مصالحها خارج حدودها، ومن هذا الوقت فصاعداً أصبحت فلسطين هامة جداً بالنسبة لمصر (للمصر)، وذلك لوقوعها على الطريق الذي يربط وادي النيل بغيره من العالم المتمدن. فالطريق التي ربطت آسيا بمصر عبر سنين طويلة تمر مصعدة في الساحل الفلسطيني، ثم تنحرف إلى الداخل عبر مرج ابن عامر بوادي الأردن. وأصبحت المدن الفلسطينية الواقعة على جانبي هذا الطريق العالمية تحت نوع من السيطرة المصرية طوال المدة التي كانت فيها مصر ذات قوة وسيادة. وقد وردت أسماء هذه المدن أو أسماء حكامها في السجلات المصرية، ولكن مصر لم تحكم فعلاً كل فلسطين في أي وقت من الأوقات، بل ربما كانت لها حاميات في بعض المدن مثل بيسان. ولكن مصر كانت في أغلب الأحيان تنتخب حكام هذه المدن الموالين لها.

قامت هنالك دون شك منافسة وحروب بين حكام تلك المدن المختلفة. ونستنتج ذلك من الأسوار التي بنيت حول المدن لحمايتها. وهناك سبب آخر لبناء مثل هذه الأسوار، هو أن الشريط الضيق الخصيب نسبياً الذي تتكون منه فلسطين كان دائماً وأبداً منطقة فاصلة بين الصحراء والأراضي الزراعية. وقد مر معنا أن مهاجري الفترة الحضارية الاستقرارية الأولى كانوا أصلاً من البدو، وبالرغم من أن أجدادهم قد اتخذوا موطناً ثابتاً لهم إلا أن أقوامهم من البدو والرعاة الرحل بقوا يسكنون في الأراضي النصف صحراوية الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي منهم. وكان هؤلاء البدو الرحل يلقون من آن إلى آخر نظرة جشع وريبة على الحياة السعيدة والغنية القائمة فوق الأرض الساحلية. وقد بقي هؤلاء البدو في أماكنهم طوال العصر البرونزي القديم، لأن استمرار التقدم الحضاري في هذه الفترة من تاريخ فلسطين يدل على أمن وسلام وعدم حدوث غارات رئيسية شاملة على البلاد. ولو حدث شيء

من الغارات البسيطة فإن البلاد قد تحملته دون أن يؤثر في مجرى تاريخها.

كانت أريحا بشكل خاص في مركز خطر لسهولة الإغارة عليها من الشرق، ونحن نعرف أن البلاد بقيت في زمننا الحاضر دون طريق رئيسي يربط جنوب البلاد بشمالها حتى عام ١٩٥٨م، عندما أنشئت الطريق الجديدة العظيمة وسط الجبال الشرقية المتاخمة لوادي الأردن وأصبح في قدرة المرء أن يجتاز وادي الأردن بواسطة هذه الطريق من البحر الميت جنوباً إلى شمال البلاد. أما أريحا فتقع على أفضل طريق تصل شرقي البلاد بالمرتفعات الرئيسية الغربية. وقد سلك العبرانيون هذه الطريق بقيادة يوشع بن نون بعد أن أرسل يوشع جواسيسه للتجسس خلال الديار، وبعد أن زودهم بالتعليمات قائلاً لهم (استطلعوا البلاد وخاصة أريحا) وقد دلت الحفريات الحديثة على مدى الأهمية التي كان يعلقها سكان أريحا على أسوارهم وتحصيناتهم.

تتوج أسوار أريحا قمة التل الذي بنيت عليه المدن المتعاقبة في العصر الحجري الحديث الذي سبق عصر الفخار، وترتفع هذه الأسوار حوالي خمسين قدماً في الجهات الشمالية والغربية والجنوبية، ففي الجهة الغربية بنيت الأسوار تماماً فوق قواعد أسوار مدينة العصر الحجري الحديث الذي سبق ظهور الفخار. وتفصل بين الأسوار الحديثة وقواعد الأسوار القديمة طبقة سميكة من الأنقاض. أما في الشمال والجنوب فقد تراجعت الأسوار إلى الداخل حوالي ١٠٠ و٨٠ قدماً على التوالي داخل جدران الأسوار السابقة، وسبب ذلك هو دون شك الحصول على منحدر شديد الميل خارج الأسوار، أما في الجهة الشرقية فقد تم إتلاف الجزء الأكبر من هذه الأسوار بسبب الطريق الحديثة التي أنشئت محاذية لقاعدة التل. ويدل على خط سير هذه الأسوار في الجهة الشرقية وجود برج عظيم مستطيل الشكل تم اكتشافه على يد البروفسور جارستانج أثناء الحفر صدفة عن مصدر للمياه لأغراض عسكرية. ويقع هذا البرج تماماً جنوب المربع ويمتد على خط مستقيم يقع إلى الشرق تماماً من

المربع ويتضح من هذا أن التل حتى في هذه المرحلة كان يميل في امتداده جهة الشرق، ومن البديهي أن تمتد الأبنية دائماً جهة مصادر المياه.

إن الأبنية لم تشيد بأية حال من الأحوال في تلك الفترة بقرب مصادر المياه، سواء كانت المياه داخل الأسوار أو خارجها. لذا يجب أن تكون هنالك وبكل تأكيد بوابة رئيسية في الجهة الشرقية تفضي إلى مصادر المياه وإلى الحقول الزراعية الواقعة إلى الشرق من المدينة.

بنيت أسوار أريحا من الطوب المجفف الذي هو مادة البناء الطبيعية في المنطقة حتى أيامنا هذه، ويشبه الطوب القديم الطوب الحديث المستعمل اليوم إلى حد بعيد، ولكنه يختلف عن النوع الذي استعمل في الفترات التالية من العصر الحجري الحديث. لقد صنع الطوب الذي استعمل فيما بعد باليد وكان يختلف في شكله من فترة إلى أخرى، فمنذ العصر البرونزي القديم وبعده أصبح شكل الطوبة قائم الزوايا، حيث تصب الواحدة منه في قوالب خاصة. كان سمك الطوبة ٣٥ إنشاً وطولها ١٤ وعرضها ١٠ إنشات. أما البناء فكان يتم بإلصاق الطوبة بالأخرى بالطين الممزوج بالجير فتملأ به المسافات الضيقة التي تفصل بين الطوبة والأخرى، ويبدأ استعمال الطوب في البناء فوق أساس من الحجر يكون عادة مدماكاً أو اثنين، أما سمك الأسوار في المراحل القديمة فكان حوالي ٣ أقدام و٦ إنشات.

إن أسواراً بهذه الصيغة تستطيع أن تكون حاجزاً قوياً ومنيعاً، ولكنها تحتاج دائماً إلى عناية وإصلاح لتبقى بحالة سليمة. ويجب أن تكون قممها صلبة تمنع تسرب الماء داخلها، كما يجب قصارة سطوحها لمنع تآكلها ومنع تأثير عوامل التحات والتعرية، كما يجب منع تسرب المياه تحت أو خلال قواعدها، وبالإضافة إلى خطر السقوط والانهدام الذي كان يهدد أريحا دوماً كان هناك خطر خاص ناجم عن قوى الطبيعة. إن وادي الأردن بأكمله معرض للاضطرابات الزلزالية. وقد حدثت

هناك زلازل عظيمة بمعدل أربع هزات عظيمة في القرن الواحد. وكشفت الحفريات عن دليل واضح يدل على الانهيارات التي سببها أحد الزلازل في أحد جوانب السور الذي سقط إلى الأمام بأكمله. ونشاهد ظاهرة عريبة في بناء السوار ربما قصد بها تفادي أخطار الزلازل، وهي وجود تجاويف على أبعاد متساوية ويعرض السور نفسه يبلغ اتساعها ثلاثة أقدام. لم تكن هذه التجاويف ذات سعة كافية لنعتبرها نوعاً من الأدراج، وهي بكل تأكيد وجدت لحصر ضرر الزلازل أو منعها من الامتداد من مكان لآخر، وقد عثر المنقبون من بعض الأماكن على خراب امتد حتى أساس الجدران، بينما الأجزاء الملاصقة لها بقيت سليمة وقائمة إلى ارتفاع بضعة أقدام، وذلك بسبب هذه التجاويف (PL20).

وإجمالاً فقد نزل الخراب بأسوار أريحا دون شك في عدة مناسبات نتيجة لغارات الأعداء، وقد لاحظ المنقبون في جميع الأجزاء التي تم فحصها أن جدران الأسوار تعرضت ولو مرة واحدة على الأقل لحريق مدمر، ومن المحتمل أن لا تكون النيران قد التهمت جميع الأجزاء في وقت واحد، لأن الجدران المتضررة لا تلتقي فيه النيران في هدم الأسوار. ونجد في الطرف الجنوبي من التل أصدق دليل على أن العدو حرق هذه الأسوار عن عمد وعن سابق تخطيط، إذ نجد مقابل الوجه الخارجي للسور طبقة من الرماد سمكها ثلاثة أقدام نتجت عن احتراق الأكوام الهائلة من الأغصان والحشائش التي وضعها العدو عمداً مقابل السور (PL21) وقد كان عرض السور في هذه الفترة حوالي ١٧ قدماً، وقد حرقت النيران جميع طوب السور بالرغم من سماكته، وإحالته إلى طوب أحمر اللون. وقد ساعد على سرعة وسهولة الاحتراق وجود الخشب في البناء الذي كان يربط الطوب معاً. وربما كان وجوده أيضاً لدرء خطر الزلازل.

إن هدف إشعال النيران بالأسوار لم يكن المقصود به هدمها، لان نتيجة الحرق كانت تقوية الأسوار ومناعتها بسبب تفحيم موادها، ولكن الهدف الرئيسي هو حرق

المدينة داخلها. ففي كل مكان أزيلت الأنقاض عن وجه السور الداخلي نلاحظ أن البيوت قد بنيت ملاصقة تماماً لهذه الأسوار. لذا فقد نتج عن حرق الأسوار حرق هذه البيوت بأكملها، ومنها انتشرت النيران إلى باقي أنحاء المدينة لكثرة استعمال الخشب في بنائها، ولأن سقوفها كانت من القصب.

كان لأسوار أريحا تاريخ حافل يختلف من جهة لأخرى، ففي الجهة الغربية من التل يمكننا اقتفاء أثر ١٧ مرحلة متتالية من إعادة البناء، وهذا لا يعني بالطبع أن السور بأجمعه قد هدم وأعيد بناؤه هذا العدد من المرات، ولا شك أنه حدثت هنالك بعض الكوارث المحلية التي هدمت جزءاً من السور فأعيد بناؤه. وليس باستطاعتنا معرفة عدد مراحل البناء ما لم تكشف تماماً عن هذه الأسوار؛ إذ أحياناً كان يجدد البناء لزيادة سمك الجدران فيبني السكان جدراناً أخرى مقابل السطح الداخلي أو الخارجي للجدران القديمة. وأحياناً لا يسقط الجدار بأكمله بل يبقى جزء منه بشكل الحرف (U) المقلوب ويتم إصلاحه بالبناء فوقه وعلى نفس أسس الجدار الأساسي السابق، فيحجبه تماماً. ويبدو هذا الجزء وكأنه جدار جديد، لذا فالوصول إلى تاريخ كامل لهذه الأسوار يحتاج إلى عدد كبير جداً من الحفريات. ونتيجة للحفريات المتعددة توصل علماء الآثار إلى عدد من الميزات الهامة لهذه الأسوار. ففي الجهة الغربية عثر المنقبون على برج خارجي يشبه نصف الدائرة له أهمية كبيرة تشبه إلى حد بعيد أهمية الأبراج في القرون الوسطى. ويعتبر وجود هذا البرج حدثاً عظيماً لم نكن نتوقعه في الماضي في وقت لم تكن القذائف فيه قد استعملت بعد. ولا يبدو من بناء هذا البرج أنه قصد به زيادة فعالية وسائل الدفاع، لأن الأقواس والسهام لم تكن قد استعملت في ذلك الحين. كما لا يوجد أي دليل على استعمال الحجر والمقلاع، وقد وجد بالجهة الشمالية من التل برج خارجي أخر كان قائم الزوايا في إحدى مراحله ثم حول إلى نصف دائرة. وربما كان يرتبط هذا البرج بأحد الأبواب، لأن انحدار التل في هذه الجهة أقل منه في الجهة الغربية. ويستدل من خطة الدفاع عن المدينة أنها

كانت تشبه مخلب الطائر، ويدخل فيها بالإضافة للأسوار الأبراج الخارجية الخارجة عنها. لذا يحتمل جداً وجود أبواب فصل بين الأسوار والأبراج، ويشبه البعض خطة الدفاع هذه بعظم الترقوة في كتف الإنسان. وهي الخطة التي كان يستعملها الرومان في حماية حصونهم. ولكن المنقبين لم يستطيعوا إزالة الأنقاض تماماً للكشف عن السور والتأكد من وجود أبواب تصل بين السور والأبراج.

إن أهم ميزة لم نكن نتوقعها في الخطة الدفاعية هي حفر خندق خارجي في عدد من الأماكن لحماية السور. وقد حفر مثل هذا الخندق في الأماكن الغربية الشديدة الانحدار، وقد استطاع المنقبون اقتفاء أثر أربعة أماكن منفصل بعضها عن بعض تم حفرها لهذه الغاية. ويرجع تاريخ حفرها إلى المراحل الأخيرة من تاريخ هذا السور، ومن المحتمل أن تطمس إعادة الأخيرة كل أثر لمراحل الحفر السابقة.

ان العلاقة التاريخية بين وسائل الدفاع والمدنية داخل الأسوار لم تتحدد تماماً بعد، لأنه لم يكن بالإمكان الحفر في مساحة واسعة محاورة وملاصقة للأسوار، لذا فالعلاقة بين مراحل الأسوار والأبنية المتعاقبة داخلها تعتمد على ما فيها من فخار من المحتمل لم يتم استخراجه بعد. ومن المحتمل أن تبرز أمامنا ثلاث نقاط رئيسية هامة؛ إذ من المحتمل قيام مرحلة حضارية عالية قبل أن تسور المدينة فعلاً، حيث نلاحظ في الجهة الجنوبية أبنية هامة تمتد على سفوح التل إلى مساحة بعيدة عن الأسوار التي بنيت فيما بعد، وقد حدث مثل هذا في الطرف الشمالي من المدينة، ولكن يجب أن نفترض دائماً إمكانية طمس معالم الأسوار كلية عند الأطراف لتعرضها لعوامل التحات والتعرية.

أما النقطة الثانية التي نلاحظها فهي وجود تغير عظيم في هندسة البناء طوال هذه الفترة فالأبنية القديمة كانت ضخمة وقوية ذات غرف واسعة وجدران سميكة، ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن منتظمة البناء وهي تختلف بهذه الصفات عن الأبنية

التي تلت حيث كانت أطراف الغرف مستديرة على الغالب وفي بعض الأحيان كانت الغرف بأكملها مستديرة. ويبدو من هذا أنه يكن هنالك نظام عام لتخطيط المدينة. فالأبنية متناثرة في جميع الاتجاهات، وقد طرأ تغير على اتجاه محاور البيوت في المراحل التالية. ويبدو أن الحياة العامة لم تكن راقية بسبب وجود أكوام ضخمة من النفايات والأوساخ في أماكن متعددة وسط المدينة، مما يدل على أنه كان يسمح لهذه النفايات والأوساخ أن تلقى وتتراكم في الشوارع والساحات العامة.

ومن المحتمل أن تكون المرحلة الأخيرة من حياة المدينة هي أطولها مدة. وقد دلت الحفريات في جميع الأماكن التي تم حفرها على أن البيوت كانت أدق هندسة ونظاماً من سابقتها. وكانت محاورها تتجه دائماً من الشمال إلى الجنوب، وبالرغم من أن جدرانها كانت أقل حجماً من بيوت المرحلة السابقة إلا أنها كانت قوية ومتقنة البناء. وتمتاز هذه المرحلة بكثرة الصوامع[1] التي بنيت من اللبن والتي كانت كل منها على صلة بأحد البيوت، حيث كانت تخزن فيها الغلال من سنة لأخرى. ويدل هذا على قيام مجتمع زراعي زاهر. ويبدو أن سكان هذه الفترة لم يسمحوا للنفايات والأوساخ بالتراكم في الشوارع والساحات وحول البيوت بل كانوا يلقونها خارج الأسوار، وخاصة في الجهة الشمالية الغربية. ويدل هذا العمل على مبلغ اهتمام السكان الزائد بالصحة العامة وليس على عمل ذي صلة بالأعمال الدفاعية.

استعمل سكان هذه الفترة الخشب كثيراً في أبنيتهم، والدليل على ذلك وجود الدعائم الخشبية المحترقة بكثرة ملقاة على أرض الغرف. كما استعملوا الخشب أيضاً في السقوف والسطوح. وقد عثر المنقبون على عدد من الحفر حيث كانت ترتكز الدعائم الخشبية. ولكن السكان لم يستعملوا هذه الدعائم دائماً في دعم السقوف الواقعة وسط البناء. أما نعرف فلم تكن في أغلب الأحيان واسعة جداً تتطلب مثل هذه الدعائم.

(١) مخازن الحبوب.

أما النقطة الثالثة التي نلاحظها فهي أن الأبنية كانت قد انتشرت فوق منحدرات التل التي كانت قائمة في السابق، مع محاولة قليلة لتسوية هذه السطوح المائلة ببناء الجدران الاستنادية، وخاصة في الجهة الشرقية الغربية من مصادر المياه حيث تنحدر الأبنية بشدة إلى أسفل من الغرب إلى الشرق (لم تصل بيوت الفترة السابقة هذه المنطقة) بمقدار يسمح فقط بالوصول إلى نبع الماء. ونلاحظ أيضاً وجود منحدر آخر عند القمة يتجه في انحداره نحو الأسوار، وتتناثر البيوت فوقه على شكل سلاسل من المصاطب.

لذا فصورة أريحا في العصر البرونزي القديم تدل على قيام مدينة زاهرة ذات أبنية قوية ومتراصة. وقد حافظت المدينة على شكلها العام في الفترة الثانية، ويبدو أن أسوارها سارت في نفس اتجاه أسوار الفترة السابقة، ولكن طرأ تغير طفيف على حجمها، ففي الطرف الشمالي زحفت الأسوار في إحدى الفترات بعض الأقدام جهة أسفل المنحدر، ولكن يبدو أنها أعيدت إلى خط سيرها الأصلي في فترة متأخرة.

أما في الجهة الغربية فقد بقيت الأسوار القديمة في أماكنها بينما تقدمت الخمس عشرة مرحلة من مراحل البناء حوالي ٢٢ قدماً و٦ إنشات جهة أسفل المنحدر، وبذا ازدادت مساحة المدينة زيادة ملحوظة في المراحل المتأخرة.

تل الفارعة:

لقد حدث في تل الفارعة نفس ما حدث في أريحا؛ إذ تطور المكان من مدينة بدائية إلى مدينة راقية زاهرة في مطلع العصر البرونزي القديم. وساعد على هذا التطور وجود موقع مناسب جداً لظهور مدينة هامة عليه؛ إذ يقع المكان على تل منحدر بشدة في الشمال والجنوب بينما يقل هذا الانحدار في الشرق. ويكاد يتلاشى تماماً في الغرب حيث يتصل التل بسلسلة الجبال المجاورة. وتوجد الينابيع الوافرة العذبة عند

أسفل الجهتين الشمالية والجنوبية حيث تنعطف الأودية حول قاعدة التل لتلتقي معاً وتكوّن وادي الفارعة. ويشرف المكان نفسه على هذا الوادي الذي يعتبر الممر الوحيد الواسع الذي يصل بين وادي الأردن وداخل فلسطين. ويتصل بهذا الوادي واد آخر بوادي إلى نابلس الواقعة على الطريق الرئيسية الممتدة شمالاً وجنوباً على محاذاة سلسلة الجبال الواقعة وسط البلاد. وهنالك طريق آخر من تل الفارعة تتجه شمالاً وتؤدي إلى بيسان. أما سفوح التلال والأودية المحيطة بالمكان فهي من أجود الأراضي الزراعية، لذا أصبح المكان ممتازاً جداً من الناحيتين العسكرية والاقتصادية.

لقد تم التنقيب عن طبقات العصر البرونزي القديم في مكانين آخرين متباعدين تماماً عن بعضهما داخل مدينة تل الفارعة. ويدل هذا على أن المدينة كانت كبيرة، ولكننا لم نعرف تماماً مدى اتساعها. وقد اتضح في كل من المكانين أن المدينة نمت وترعرعت قبل أن تكون هنالك أية وسيلة دفاعية.

كانت غرف أبنيتها منتظمة وقائمة الزوايا وكان معظمها ذا سعة مناسبة، ويدل ما بقي من جدرانها على أن معظمها كان مبنياً من الحجر بينما بني البعض الآخر باللبن. وقد عثر المنقبون في الغرف الكبيرة منها على صفوف من الصفائح الحجرية التي كانت توضع فوقها الدعائم الخشبية التي تدعم السقوف. وفي حالات أخرى كانت تبلط سطوح الجدران الداخلية للغرف بهذه الصفائح. وقد وجد المنقبون في كثير من الحالات مقاعد منخفضة بجانب جدران الغرف. ونتيجة لهذه الحفريات اتضح وجود خمس طبقات من الأبنية المتعاقبة تتشابه كثيراً بهندستها وموجوداتها الأثرية، ويرجع تاريخ الطبقتين الأوليين إلى العصر البرونزي القديم الأول بينما يرجع تاريخ الطبقتين الأخيرتين إلى العصر البرونزي القديم الثاني، وتأتي الطبقة الثالثة في فترة الانتقال من العصر البرونزي القديم الأول إلى العصر البرونزي القديم الثاني. وقد لاحظ المنقبون في الجهة الشمالية أن بيوت العصر البرونزي

القديم الأول قد التهمتها النيران بينما لم يحدث مثل هذا في الجهة الغربية، وربما يدل هذا على حدوث كارثة محلية.

أما التغير العظيم فقد طرأ في الفترة الرابعة؛ أي في مطلع العصر البرونزي القديم الثاني عندما أحيطت المدينة بسور لأول مرة. بني هذا السور في الجهة الشمالية بأحجار ضخمة وبلغ عرضه أكثر من ٢٧ قدماً، ولا يزال ارتفاع الجزء الباقي منه حوالي ستة أقدام. وقد قصر وجهه الخارجي بالقصارة الصلبة الملساء. أما في الجهة الغربية فقد كان السور أكثر عظمة وأشد متانة، وقد بني هذا الجزء بالطوب المجفف وكان سمكه مناسباً. ويبلغ ارتفاع بعض أجزائه الباقية حوالي ١٣ قدماً وهو يحتوي على بابين عظيمين وجميلين وعلى برجين، ويستطيع المرء أن يستنتج من كل هذا أن الأمور أخذت تضطرب وتسوء في مطلع العصر البرونزي القديم الثاني، وربما كان سبب ذلك غارات البدو الرحل القادمين من الشرق، لأن موقع وادي الفارعة على الطرق الرئيسية يجعل المدينة عرضة لمثل هذه الغارات. ولكن هنالك سبب آخر أكثر احتمالاً من سابقه مرده إلى المنافسة الشديدة المتزايدة بين الممالك المدينية التي كان عددها آخذاً بالازدياد في هذه الفترة.

ومن الموجودات الأثرية التي تثير الدهشة والاستغراب التي وجدت في أبنية الفترة الثالثة؛ أي فترة الانتقال من العصر البرونزي القديم الأول إلى العصر البرونزي القديم الثاني وجود فرن من الفخار (PL.22A) توقد النار في مكان أسفله، وتوجد دعائم مثبتة في الأرض تمر وسطها المداخن الأتربة من مكان الاحتراق في الأسفل. ويعتبر هذا النوع من الأفران تحسناً عظيماً طرأ على عملية شي الأواني الفخارية، حيث يوضع الوقود حولها من جميع الجهات، وبذلك تشوى شياً جيداً ومناسباً، وهذه الطريقة لا تزال تستعمل حتى اليوم.

لقد هجرت مدينة تل الفارعة تماماً قبل بداية العصر البرونزي القديم الثالث، وتداعى سورها الترابي في الجهة الغربية في نهاية الفترة السكنية الخامسة، وتبعثرت

أجراؤه فوق بيوت هذه الفترة. ثم بنيت فوق الأنقاض بعض البيوت من نفس الطراز، ولكنها كما يبدو لم تعمر طويلاً: إذ سرعان ما هجرت تلك البيوت، وهنا بدأت فجوة تامة في تاريخ عمار المكان امتدت حوالي سبعماية سنة. وباستطاعة المرء أن يستنتج من تاريخ الأماكن الأخرى أن هذا لم يحدث بسبب الأحداث السياسية: إذ ربما حدث نتيجة أوبئة الملاريا، لأن المكان كان معرضاً لمثل هذا الوباء. ونلاحظ أن سكان القرى المجاورة كانوا يعانون جداً من هذا المرض حتى زمن قريب جداً: أي حتى استطاعت وسائل الطب الحديث أن تضع حداً لهذا الوباء الفتاك. وربما كان هذا هو السبب الذي حدا بموقع هام كهذا أن يؤول إلى الخراب في فترة ازدهرت فيها مدن أخرى كثيرة في أماكن أخرى من البلاد.

مجدو:

قامت في مجدو كما قامت في أريحا وتل الفارعة في العصر البرونزي القديم مدينة جديدة على أنقاض المساكن الحضرية البدائية. والموقع عبارة عن تل عظيم جداً، وترينا الصورة الجوية الفوتوغرافية (PL. 19B) ضآلة المساحة BB بالنسبة للمدينة كلها. وهذه المساحة هي الجزء الوحيد الذي تم كشفه من المدينة الرئيسية حتى الطبقات السفلى، لذا لم يتوفر لدينا إلا النزر اليسير من تاريخ هذا المكان في هذه الفترة. ومن سوء الحظ ظهرت الصورة أقل وضوحاً مما يجب أن تكون بسبب الطرق الموجزة في الحفر، وظهر نتيجة حفر هذه المساحة أن المكان كان معموراً خلال العصر البرونزي الأول والثاني، وأنه كان يضم مجتمعاً متحضراً جداً، ولكن لم يصل إلينا من مخلفاته سوى الشيء القليل غير الواضح المعالم. كما لم يعثر المنقبون على أي دليل على وجود أسوار حول المدينة في هذه الفترة. أما في العصر البرونزي القديم الثالث فقد تطورت هندسة المدينة تطوراً عظيماً، وأخذت الأبنية تزحف من قمة التل فوق المنحدرات نحو القاعدة، وقد بنيت في هذه الفترة بعض الجدران الاستنادية

الضخمة وسوت الأرض خلفها وتكونت المصاطب المستوية التي بنيت فوقها المدينة الجديدة وقد أقيم على أحد هذه المصاطب القريبة من القاعدة بناء تذكاري عظيم يحتوي على عدة غرف واسعة قائمة الزوايا، وشقت فوق إحدى المصاطب العليا طريق أحاطت بها الأبنية من كلا الجانبين، وقد تم حتى الآن التنقيب عن جانب واحد منها فقط. وقد عثر المنقبون بين هذه الأبنية على بناء من الحجر مخروطي الشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب يبلغ ارتفاع الجزء الباقي منه حوالي ١،٤٠ متر، وتبلغ سعته عند هذا الارتفاع حوالي ثمانية أمتار. كما عثروا على مجموعة منه تؤدي إلى قمته (PL. 23) ويمكننا أن نستنتج أن هذا البناء كان مذبحاً، وذلك من الأنقاض المحيطة به والمملوءة بعظام الحيوانات التي كانت تقدم أضاحي وقرابين. وقد اعتبر المنقبون الجدار الاستنادي السفلي بمثابة سور للمدينة. وبالرغم من أنه كان عظيماً وقوياً لدرجة يصلح معها أن يكون سوراً (PL. 22B) إلا أن جدران البيوت بنيت ملاصقة تماماً لوجهه السفلي، ولم يكن ليحدث مثل هذا لو أن هذا الجدار بني لأغراض دفاعية. أما عظم هذا الجدار الذي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، فقد بلغ سمكه ما يقرب من خمسة أمتار. ومن المحتمل جداً أن يكون هنالك سور في مكان ما لمدينة عظيمة ذات موقع هام كمجدو، ولكن المنقبين لم يعثروا عليه بعد.

لقد اختفت معالم البيوت والأبنية أسفل هذا الجدار الاستنادي العظيم بسبب عوامل التعرية، وربما اختفى معها سور المدينة أيضاً.

بيسان:

أما المدينة الثانية الهامة التي تقع في مرج بن عامر فهي مدينة بيسان التي يدل على موقعها اليوم تل عظيم شبيه بتل مجدو (PL. 24) وفي سنة ١٩٢١م بدأ متحف جامعة بنسلفانيا بسلسلة طويلة من الحفريات في هذا المكان. وقد استمر الحفر حتى

الطبقات التي قامت فوقها مدينة العصر البرونزي المتوسط، ثم حفرت حفرة تحت هذه الطبقة بلغ عمقها حوالي ٢٤ متراً واتساعها ١٦ متراً حتى وصل المنقبون إلى أرض بكر. وقد كشفت هذه الحفرة عن طبقات العصر الحجري الحديث والعصر النحاسي وعصر الاستقرار البدائي ثم العصر البرونزي القديم، لذا يكون الإنسان قد استقر في هذا المكان منذ القدم؛ أي منذ أن استقر في مجدو، وأنه قامت فوقه كما في مجدو مدينة هامة في العصر البرونزي القديم.

إن المنطقة التي تم حفرها لم تكشف عن الشيء الكثير عن حالة علاقة بالمراحل التالية، كما لم تنشر تقارير مفصلة عن الموجودات الأثرية التي وجدت. وقد أوضحنا في وضعنا للمواقع الأثرية الأخرى أن مدن العصر البرونزي القديم قد تطورت رأساً من المساكن الحفرية البدائية التي دلت الحفريات على أنها كانت مبنية من اللبن، ويظهر التحول نحو العصر البرونزي القديم من الفخار الذي وجد في الطبقة الرابعة عشرة عندما حلت محل البيوت المتناثرة فوق الطبقات السابقة مبانٍ ذات غرف متلاصقة وهندسة قائمة الزوايا ومستقيمة الجدران.

كانت هذه المباني كما كانت الحال في أريحا وتل الفارعة مبنية من اللبن، ويرجع تاريخ بنائها إلى العصر لبرونزي القديم الثاني، وقد أتلفتها النيران، ولكن لا يوجد لدينا أي دليل يدل على حدوث كارثة عامة أو خاصة. أما الطبقات الثانية عشرة والحادية عشرة فلم تكن هندسة مبانيها لتثير الدهشة لأن بيوتها كانت صغيرة وحقيرة. ولكنها تشتهر بالظهور المفاجئ لنوع جميل من الفخار الخاص المستورد الذي يعرف باسم فخار خربة الكرك، نسبة إلى مكان يقع إلى الشمال من بحيرة طبريا، حيث وجد هذا النوع من الفخار بكثرة، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد ويدل هذا الفخار على التأثير الأجنبي على البلاد. أما في بيسان فلم يعثر المنقبون على شيء يدل على أن هذا النوع من الفخار قد جلبه الغزاة معهم، بل كانوا يجدونه دوماً

جنباً إلى جنب مع الفخار المحلي، كما لم يلاحظ المنقبون أيضاً أي تغير في هندسة البناء.

إن الطبقة الحادية عشرة هي آخر طبقات العصر البرونزي القديم في بيسان، ومن الصعب جداً أن تحكم بثقة عن فخار هذه الطبقة، لأن جزء يسيراً منه قد درس وعرض، ولكن يبدو أن فخار خربة الكرك لم يستمر استعماله حتى نهاية العصر البرونزي القديم. وتشير الدلائل على أن فخار العصر البرونزي القديم قد ظهر واستعمل قبل الفخار الذي وجد في (عاي) الواقعة بجوار القدس.

وجد المنقبون بين الآثار التي وجدت في الطبقتين الثانية عشرة والحادية عشرة أواني ترجع في تاريخها إلى بداية الفترة الثانية من العصر البرونزي المتوسط، وقد تمت دراسة هذه الأواني ومن ثم عرضت في المتاحف، كما وجدوا أواني ترجع إلى العصر البرونزي المتوسط. وهذا يشير بوضوح إلى أنه كان هنالك غزو خارجي، ولكن يبدو أن مدينة العصر البرونزي هذا قد زالت في منتصف العصر البرونزي المتوسط لسبب لا يزال مجهولاً، ولم تقم بيسان ثانية كما حدث في تل الفارعة إلا في العصر البرونزي المتوسط الثاني.

خربة الكرك:

وهنالك مدينة هامة أخرى تقع في شمال فلسطين تدعى خربة الكرك، وقد ظهرت هذه المدينة في العصر البرونزي القديم، وقد أطلق اسمها على نوع من الفخار المصقول الجميل الشكل ذو لون أحمر وأسود. وقد ظهر هذا الفخار في فلسطين في العصر البرونزي القديم الثالث، وقد عثر البروفسور البربت Albright على قطع كثيرة منه على سطح الأرض سنة ١٩٢٥ قبل أن يبدأ الحفر.

يقع هذا المكان إلى القرب تماماً من المكان الذي يخرج فيه نهر الأردن من بحيرة طبريا، وقد انتشرت آثاره على مساحة تبلغ ٥٠ فداناً (الفدان ٤٨٤٠ ياردة مربعة) وقد تم الحفر فيه في مكانين صغيرين فقط أحدهما في الطرف الشمالي والآخر في الطرف الجنوبي. واستمر الحفر في المكانين حتى طبقات العصر البرونزي القديم، ومن المحتمل أن تكون مدينة هذه الفترة قد امتدت فوق الموقع كله. وقد استوطن الإنسان هذا المكان لأول مرة في فترة التحضر والاستقرار البدائية حيث وجد في طبقة هذه الفترة فخار مرج ابن عامر الرمادي المصقول الخاص بفترة التحضر والاستقرار الأولي.

أما الأشياء الأخرى التي عثر عليها فلا تزال غير معروفة، لأنها لم تعرض على الملأ بعد. وقد اهتم الباحثون بالحفر داخل الأكواخ التي كان نصفها غائراً في الأرض كأكواخ المواقع الأخرى التي يرجع تاريخها إلى هذه الفترة والفترة التي سبقتها.

يلي طبقة فترة الحضارة والاستقرار البدائية طبقة أقيمت عليها بيوت ترجع في تاريخها إلى العصر البرونزي القديم الأول، وقد وجد مع هذه البيوت فخار يرجع لنفس الفترة. وبذا يتوفر لدينا دليل مباشر آخر يدل على تطور وانتقال مدينة العصر البرونزي القديم من مساكن يتم بناؤها أولاً في فترة التحضر والاستقرار البدائية، وقد علا هذه البيوت بيوت أخرى يرجع تاريخ فخارها إلى العصر البرونزي القديم الثاني، وقد عثر المنقبون في عدة أماكن حول هذه البيوت (التقرير غير واضح حول هذه النقطة) على آثار سور حول المدينة عرضه حوالي ثمانية أمتار بني من الطوب المجفف، كما عثروا في أنقاض هذه البيوت على كثير من الأواني الفخارية من نوع فخار الكرك، لذا فإن تاريخ هذه الفترة يرجع للعصر البرونزي القديم الثالث، وقد نسب بعض العلماء بناء سور حجري حول المدينة إلى هذه الفترة، ولكن تبين فيما بعد أن السور الحجري يرجع للعصر البرونزي المتوسط.

ومن أهم مباني هذا المكان بناء عظيم تبلغ مساحته حوالي ٣٠ متراً مربعاً ويرجح أنه كان أحد الأبنية العامة، ولكن لم يتضح الهدف الأساسي من بنائه. وكان إلى جانبه ثمانية أبنية مستديرة يبلغ قطر الواحد منها ثمانية أمتار وله جدران خارجية عظيمة يتشعب منها إلى الداخل كما تتشعب مجاور عجلة العربة أربعة جدران فرعية لم تصل حتى منتصف الدائرة (أي كان مدار العجلة أو قبيها قد نزع) وكان داخل هذه الجدران العظيمة قائمة مستطيلة مبلطة أرضها بالحجارة وبقربها ساحة واسعة يبلغ طولها حوالي ٢٥ متراً تتصل بباب في الجدار الخارجي. وقد وجد المنقبون في هذه الأبنية أفراناً وأواني وعظام حيوانات محترقة مما دعاهم إلى الاعتقاد بأن هذه الأبنية كانت معابد، ولكن بعضهم اعتقد أنها كانت مخازن عامة.

عاي:

إن جميع الأماكن التي سبق وضعها تقع في شمال فلسطين عدا أريحا، ويعزى هذا إلى حد كبير إلى طبيعة الحفريات التي وجهت أنظار علماء الآثار في السنوات السابقة إلى التلال العظيمة الواقعة في شمال البلاد. وقد أهمل المنقبون الكثير من المواقع الواقعة في القسم الجبلي لصعوبة الحفر فيها. وأما الموقع الهام الواقع في الجزء الجبلي والذي تم الحفر فيه مؤخراً فيدعي (عي) وهو يشتهر بالآثار التي تدعى التل، وقد غطت آثار المكان سطح تل يبعد حوالي عشرة أميال إلى الشمال من القدس.

قام بالحفر في هذا المكان مدام ماركت كروز موفدة من قبل البارون ادموندي روتشلد في السنوات ١٩٣٣ - ١٩٣٥، ومن سوء الحظ توفيت مدام كروز قبل أن تستطيع نشر نتائج عملها بالتفصيل، وظهر كتابها الحاوي لما قامت به من أعمال عبارة عن سجل عمل ميداني مبهم.

إن موقع عاي عام من الناحية التاريخية، لأن التوراة تروي أن يوشع بن نون قد استولى على عاي بعد استيلائه على أريحا. ودلت الحفريات على أن المكان قد هجر في نهاية العصر البرونزي القديم ولم يستوطن ثانية إلا في العصر الحديدي، وهنالك رأي يقول إن هنالك خلطاً بين تاريخ عاي وتاريخ الموقع المجاور لها المدعو بيت إيل.

إن آثار عاي هامة من الناحية التاريخية بالنسبة للعصر البرونزي القديم، ومن سوء الحظ يستحيل علينا أن نستفيد منها كما يجب، لأنها لم تعرض بطريقة مناسبة. وتدل آثار المقبرة التي سبق وأشرنا إليها على أن الموقع كان هاماً في فترة الاستقرار والتحضر الأولى؛ إذ امتزجت فيه الجماعات أ، ب التي استقرت وتحضرت.

وقد قام في المكان خلال العصر البرونزي القديم مدينة ذات حجم مناسب، ويمكننا اقتفاء وجهة سير ثلاثة أسوار حجرية أقيمت حول جزء من المدينة، واقتفاء وجهة سير اثنين آخرين في مكان آخر. ولكننا لا نستطيع تعيين تواريخها من المادة التي عرضت أو القول إن كانت هذه الأسوار معاصرة بعضها بعضاً. ومن المحتمل أن يكون السور الداخلي أقدمها. وعندما نقل السور في فترة لاحقة إلى الخارج أقيم فوقه قلعة عظيمة بقيت بكل تأكيد مستعملة في العصر البرونزي القديم الثالث.

وقد بني الهيكل مقابل الجهة الداخلية من السور تبين أنه بقي مستعملاً حتى آخر مراحل هذه الفترة، وقد استعمل هذا الهيكل في فترتين سابقتين، ولكننا لا نستطيع تحديد تاريخهما بدقة. والشيء الغريب جداً بالنسبة لهذا الهيكل هو أن أقسامه المختلفة قد استعملت في نفس الأغراض التي استعملت فيها أقسام هيكل سليمان فيما بعد.

كانت إحدى حظائر الهيكل الخارجية واسعة نوعاً ما، وإليها كان يأتي أولاً جميع أولئك الذين يشتركون في طقوس تقديم الضحايا والقرابين. وكان في أقصى ناحية الشمال اليمنى منصة توضع عليها القرابين. وعليها أيضاً محرقتان للبخور صنعتا

من الفخار. وإلى جانب المنصة يوجد باب يمضي إلى درج يؤدي إلى الأعلى داخل الهيكل. ويوجد على يمين الباب مباشرة منصة ثانية وعليها ثلاثة عشر صحناً من النوع الذي يستعمل في تقديم النذور السائلة، ولكن هذه الصحون كانت تستعمل على الغالب مصابيح للإضاءة. ويوجد في الجهة اليسرى من الباب قدس الأقداس (الدير) وإلى جانبه في تلك الزاوية مذبح مغطى بالقصارة ربما كان مذبحاً للبخور. ويستطيع المتعبدون رؤية قدس الأقداس وهم جلوس في القاعة الخارجية، وعند قدس الأقداس يستشير رجل الدين الآلهة. وقد وجد على المذبح بعض الأواني الحجرية والمرمرية التي جلبت دون شك من مصر. لأنها تشبه تماماً الأواني الخاصة بالسلالتين الثانية والثالثة. وكان خلف المذبح بعض الخوابي والصناديق حيث تخزن الهبات المقدمة للهيكل. وقد وجدت في الهيكل أيضاً أشياء أخرى مثل عظام الضحايا الحيوانية ومحارق البخور. ويد سكين من العاج جميلة الصنع وعدد من الأطباق والكؤوس الجميلة ذات الجوانب المفلطحة. وكان التأثير المصري يظهر واضحاً على الكؤوس التي كانت نم اذج منقولة على الكؤوس الحجرية الخاصة بالسلالة الرابعة التي حكمت مصر في السنوات ٢٦١٣-٢٤٩٤ ق.م. وربما تدل هذه التواريخ على تاريخ الهيكل. أما الأواني الحجرية والمرمرية البديعة الصنع فلربما أخذت من أحد الهياكل القديمة. وسنرى في فصول قادمة أن الآثار التي وجدت تباعاً في فلسطين ترجع إلى العصر البرونزي القديم الثالث.

لقد نزل الخراب بعاي فجأة في نهاية العصر البرونزي القديم، ويظن البعض أن البدو الغزاة الذين سنأتي على وصفهم في الفصل التالي هم الذين خربوا المكان دون أن يستوطنوا فيه.

أما بالنسبة للمواقع الأثرية الهامة الأخرى الواقعة وسط فلسطين، فمعلوماتنا هنا قليلة، لأن التنقيب لم يتم عن أي منها في السنوات الأخيرة، ولأن فنون وأساليب الحفر والتنقيب القديمة لم تستطيع حل المشاكل، والأدلة القليلة التي اعترضت

العلماء. ويجمع العلماء على أن القدس كانت مستوطنة في فترة التحضر والاستقرار البدائية، لأن المنقبين عثروا فيها على بعض النماذج الفخارية الجميلة جداً التي ترجع في تاريخها إلى فترة التحضر والاستقرار البدائية (B). وقد وجدت هذه الآثار في قبر يقع على منحدرات جبل أوفل Ophel الواقع إلى الجنوب من المدينة الحديثة، والذي كان نواة للمدينة التي سبقت قيام المدينة الإسرائيلية. ونتيجة للحفريات على المنحدرات وقمة هذا الجبل حصل العلماء على فخار يرجع للعصر البرونزي القديم، ولكنهم توصلوا إلى القليل من الطبقات السكنية. لذا لا نستطيع القول إن كانت هنالك فعلاً مدينة قائمة، ولكن المساحة الواسعة التي وجدت فيها الآثار تدل على إمكانية قيام مدينة.

جازر:

لقد تم الحفر في جازر منذ عدة سنين، ولكن العلماء لم يستطيعوا دراسة آثارها دراسة وافية. وقد اتضح من الآثار التي وجدت داخل القبور أن الاستيطان في هذا المكان بدأ منذ عصر الاستقرار والتحضر البدائي واستمر طوال العصر البرونزي القديم، بينما لم يستوطن الإنسان في تل النصبة والسامرة الواقعة إلى الشمال من جازر طوال العصر البرونزي القديم بالرغم من وجود قرى فيهما في فترة الاستقرار والحضارة الأولى.

رأس العين:

أما الحفريات التي جرت في رأس العين في التلال الواقعة جنوب غربي القدس فتدل على أهمية الحقائق التي يمكن أن يتوصل إليها العلماء في الحفريات القادمة. يقع رأس العين قرب منبع نهر العوجا. ولم تجر الحفريات فيه بصورة منتظمة، وكل

ما وجد فيه من آثار كان نتيجة حفر لتوصيل المياه إلى مدينة القدس.

وقد أسفرت الحفريات عن وجود سور حول المدينة يبلغ عرضه حوالي ٢,٥٠ متر، وعثر بجانبه على فخار يرجع للعصر البرونزي القديم، وحتى الآن لم يدرس هذا الفخار دراسة وافية. ولكن صوره تدل على أنه قديم، وربما يرجع في تاريخه للعصر البرونزي القديم الأول. ولكن أوصافه لا تدل على حصره في هذه الفترة، كما لم يلاحظ العلماء أي شيء من الأوصاف التي ترجحه للعصر البرونزي القديم الثالث.

لم يجد العلماء الأدلة الكافية أثناء الحفر عن الآثار إلا عندما ينتقلون إلى جنوب فلسطين وبالرغم من ذلك فإن هذه الأدلة لا تزال قليلة.

تل الدوير:

إن تل دوير الذي ورد ذكره في التوراة باسم لاخيس هو أعظم تلال فلسطين (BI.-25): إذ تبلغ مساحة قمته ١٨ فداناً وهي مساوية لمساحة تل جازر ولا تزيد عليها إلا مساحة تل حازور الأحداث تاريخاً. والذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٤٠ متراً، وبذا يكون أعظم تل من صنع الإنسان.

يرجع الاستيطان في المنطقة المجاورة لتل دوير للعصر النحاسي. ويبدو أن جماعات فترة التحضر والاستقرار الأولى لم تصل لهذه المنطقة، ولكن أثناء العصر البرونزي القديم بدأ الاستيطان يتمركز على تل المدينة. ومن سوء الحظ توقفت الحفريات في التل قبل الوصول إلى الطبقات السفلى، وكل ما جمعناه من معلومات عن آثار الحقب القديمة جاء من الكهوف والقبور ومن مكان واحد فقط تم حفره في أحد جوانب التل. ويبدو من الأدلة المتوفرة أن تاريخ تل دير بدأ متأخراً في العصر البرونزي القديم؛ إذ لم يعثر المنقبون على أية أداة خاصة بالعصر البرونري القديم الأول، وهذا يدل

على أن حضارة العصر البرونزي القديم لم تكن قد وصلت إلى جنوب فلسطين في مراحل العصر الأولى. أما في العصر البرونزي القديم الثاني فكان لا يزال هنالك بعض السكان الذين يعيشون في الكهوف مثل كهوف ١٥١٩-١٥٢٥، ولكن الحفريات في الطبقات السفلى من التل لم تكن كافية بحيث نستطيع القول إن موقع المدينة بدأ إعماره في هذه الفترة.

أما في الفترة التالية فقد استعملت تلك الكهوف لدفن الموتى، ويدل هذا على تغير هام في أساليب السكن. وتدل الحفريات في الطبقات السفلى الواقعة على طرف التل أن السكن أخذ يتمركز في تلك المنطقة. وقد وجد في أسفل هذه الطبقات أنواع من الفخار وجدت في أماكن أخرى يرجع تاريخها إلى نهاية العصر – البرونزي القديم الثاني وإلى بداية العصر البرونزي القديم الثالث، وقد وجد شبيه لهذا الفخار في الأسس الصخرية لخربة الكرك. لذا فانتشار مساكن المدينة التي قامت فيما بعد إلى أبعد مدى لم يحدث بكل تأكيد إلا في بداية العصر البرونزي القديم الثالث. ولم يعثر المنقبون على أي دليل يدل على سعة المدينة وهل كانت مسورة أم لا. ولم تدل أية مجموعة من القبور التي درست وعرضت على أنها تخص بنوع خاص المراحل الأخيرة من العصر البرونزي القديم الثالث. كما لم يتوصل العلماء إلى معرفة هل توقفت الحياة في تل دوير كما توقفت في بيسان قبل نهاية العصر البرونزي القديم.

تل مرسيم:

يقع تل مرسيم كتل دوير في أطراف المنطقة الجبلية في منطقة نصف قاحلة تجود محاصيلها فقط في السنوات الغزيرة المطر. ويمكن لمكان كتل دوير أن يعيد سكاناً آخرين لا يشتغلون في الزراعة منذ نشأته في أواخر مرحلة العصر البرونزي القديم حتى نهاية العصر الحديدي القديم الثاني. لذا لم يجذب المكان سكاناً إليه حتى

فترات متأخرة من العصر البرونزي القديم. وآثار هذه الفترة لا تزال قليلة وكذلك الفخار الذي تم درسه وعرضه. وتبين أنه ليس من السهل ربط هذا النوع من الفخار بأي نوع وجد في أماكن أخرى، ولكن تشير الدلائل على أنه استعمل فعلاً في فترات متأخرة من العصر البرونزي القديم الثالث. ولم يعثر المنقبون على أي أثر لسور حول المدينة. كما أن الآثار التاريخية التي تم العثور عليها كانت عبارة عن شظايا وقطع صغيرة.

تل حسي:

أما تاريخ تل حسي الواقع في نفس المنطقة المجاورة فيشبه إلى حد ما تاريخ كل من تل دوير وبيت مرسيم. وقد بدأ الحفر فيه السير فلندرز بيترى منذ فترة طويلة ترجع لعام سنة ١٨٩٠. وفي هذا المكان تم وضع الأسس للحفر في طبقات الأرض ولدراسة علاقة الفخار بأزمنة البناء.

لذا فالسجلات التي وضعت آنذاك تحتاج إلى كثير من المراجعة والتصحيح والتعديل، ولكن تبرز هنالك حقيقة هامة بالنسبة إلى أقدم استيطان في المنطقة، حيث عثر المنقبون على عدد من الأسلحة النحاسية في أسفل الطبقات من بينها رأس فأس يشبه الهلال، وهو شبيه تماماً برأس فاس يرجع تاريخه للعصر البرونزي القديم الثالث وجد في قبور أريحا. وهذا يجعلنا نرجع أقدم استيطان في تل حسبي إلى العصر البرونزي القديم الثالث. كما يقدم لنا الدليل الهام على انتشار استعمال الأسلحة النحاسية في هذه الفترة بالرغم من أنها كانت لا تزال قليلة ونادرة حتى ذلك الوقت.

يبدو أن امتداد حضارة العصر البرونزي القديم إلى جنوب فلسطين لم يكن على نطاق واسع ففي تل فارة وتل العجول حيث تم حفريات واسعة لم يعثر المنقبون

على أي أثر للاستيطان في هذه الفترة، بالرغم من قيام مدن هامة فيها في العصر الهيليني الثاني.

إن هذه العجالة القصيرة عن تاريخ المواقع الأثرية المختلفة تدل دلالة واضحة على أنه لا يزال هنالك الكثير من تاريخ فلسطين في العصر البرونزي القديم بحاجة إلى بحث واستقصاء. ففي جميع المواقع التي تشير الدلائل على قيام مدن هامة فيها في هذه الفترة لم يتم التنقيب إلا في مساحات محدودة، أو أن أساليب وطرق الحفر لم تستطع الوصول إلى صورة واضحة جلية. ولكن الآثار المبعثرة هنا وهناك وتعيين طبيعة الأماكن الأثرية قد أكدت انتشار الحضارة فيها. وقد أدى اكتشاف طبيعة الأرض في شرقي الأردن على وجه التخصيص إلى تعيين كثير من الأماكن الأثرية التي ترجع لهذه الفترة، ولكن لم تبدأ دراسة أي منها حتى الآن. أما في فلسطين نفسها فترجع قلة الشواهد والأدلة إلى طبيعة حضارتها؛ إذ في كثير من الحالات كانت مدن العصر البرونزي القديم أجداداً للمدن الحديثة التي قامت فيما بعد. ولذا فآثار مدن العصر البرونزي القديم لا تزال مدفونة في الأعمال أسفل المدن الحديثة التي قامت فيما بعد.

تليلات الغسول:

إن الصورة الماثلة أمامنا اليوم هي أن المدن الرئيسية التي قامت في الماضي السحيق واستمر قيامها أمداً طويلاً تقع في الشمال والوسط. بينما المدن التي قامت فيما بعد تقع في جنوب فلسطين. ويرجع سبب ذلك إلى تاريخ المنطقة القديم، لأن حضارة فترة الاستقرار الأولى التي تم وضعها في الفصل السابق لم تصل إلى جنوب فلسطين، حيث وصلت حضارة الغسوليين والجماعات المتحدة التي قامت في العصر النحاسي فيما بعد. ويدل الفخار على أن حضارة العصر البرونزي القديم قد نشأت

من حضارة فترة الاستقرار الأولى. ويبدو أن جماعة الغسوليين كانوا يفتقرون إلى الدوافع التي تدفعهم إلى تكوين المدن، وأن فكرة تكوين المدن انتشرت من الشمال إلى الجنوب، وربما لم يحدث ذلك قبل العصر البرونزي القديم الثالث. والسبب الثاني الذي دفع بالشمال نحو التطور هو اتصاله بمدن الساحل السوري التي سارت قدماً نحو الحضارة منذ القدم، لأن تلك المدن الفينيقية كانت تعتمد على التجارة في حياتها وليس على الزراعة، وقد قامت بينها وبين مصر علاقات طيبة منذ القدم. ويرجع تاريخ أول مدينة أنشئت في جبيل إلى حوالي ٣١٠٠ قدم. وهنالك كثير من التشابه بين شكل وصناعة فخار جبيل وفخار فلسطين في هذه المرحلة. لذا فالدوافع نحو حياة مدنية في البلدين ربما جاء من مصدر واحد وهو مصر.

إن خلاصة الشواهد والأدلة التي حصلت عليها من الأماكن التي تم الحفر فيها لا تستطيع أن تقدم لنا صورة واضحة عن حياة سكان فلسطين في هذه الفترة؛ إذ ليس هنالك أي دليل على مخطط وافٍ لإحدى المدن تستطيع معه القول إن كانت البيوت جميعها على نفس المستوى، وكان بعضها يفوق البعض الآخر حجماً، مما يدل على فرق في الثروة والحياة الاجتماعية، ولكن تدل الشواهد على العموم على أنه كان هنالك ازدهار ملموس وليس ثروة طائلة. أما المجتمع فكان معظمه زراعي، وهنالك شواهد قليلة تدل على نشاط تجاري، وعلى قيام بعض العلاقات مع مصر. وسنأتي على ذكر ذلك عندما نبحث العلاقة بين فخار البلدين. وقد لاحظ المنقبون أن معظم الأشياء التي عثروا عليها كانت من إنتاج محلي. والدليل الذي يثير دهشة عظيمة هو ندرة المعدن.

يطلق على هذه الفترة اصطلاحاً العصر البرونزي القديم، ولكن في الحقيقة لا يوجد أي شاهد حقيقي يدل على استعمال البرونز، وحتى النحاس لم يكن استعماله شائعاً. وكما مر سابقاً بدأ استعمال النحاس في فلسطين في العصر النحاسي، وقد تم العثور أحياناً على بعض الأدوات النحاسية التي صنعت في ذلك العصر وما بعده، ثم

وجدت حبات خرز نحاسية في قبور العصر البرونزي القديم الثالث. وتدل الأسلحة التي وجدت في أريحا وتل حسي في هذه الفترة على أن استعمال النحاس كان آخذاً في الشيوع، ولكن السكان بكل تأكيد لم يعتمدوا عليه في استعمالاتهم اليومية، بل بقي الصوان أكثر المواد شيوعاً في استعمال الأدوات والأسلحة.

أما الأدلة الدينية فهي قليلة جداً. ويعطينا هيكل (عاي) الدليل الحقيقي الوحيد الواضح على قيام أبنية دينية. وهو يرمز إلى مخطط الهيكل اليهودي في القدس وقد سبق ذكر ذلك، ولكن من الخطورة بمكان أن نظن أن عناصر الديانة السامية كانت قد نبتت جذورها وتأصلت في (عاي)، لأن علم الآثار لم يثبت لنا حتى الآن عن وجود حلقات وصل عبر ألف ونصف الألف تصل بين الفترتين: أي بين قيام عاي وقيام المملكة الإسرائيلية المتحدة زمن داود وسليمان؛ إذ لم يصنع طوال هذه الفترة أي تمثال شخصي يمثل الآلهة. كما لم يعثر علماء الآثار على أي شيء يمت للعقيدة الدينية بصلة كالتماثيل الصغيرة التي ترمز للآلهة والمعبودات.

أما طرق دفن الموتى فلا تشير إلى أية عقيدة معقدة تؤمن بالحياة بعد الموت، بالرغم من الاعتقاد بأن الموتى كانوا بحاجة إلى بعض الأشياء. وقد حصلنا على أفضل دليل على ذلك من مجموعة القبور التي اكتشفت في أريحا، والتي تغطي تقريباً جميع تاريخ فترة العصر البرونزي القديم. وقد تم دفن الموتى طوال هذه الفترة في قبور تعدد الدفن فيها؛ إذ بلغت عملية الدفن في القبر الواحد عشرين مرة ثم ارتفعت إلى خمسين ومائة فيما بعد. ونلاحظ أنه كانت توضع مع الموتى الأواني والكؤوس التي ربما تحوي الزيت أو البخور. وكانت الحيلة الشخصية الوحيدة التي وجدت داخل هذه القبور هي حبات خرز من العقيق الأحمر والعظم والصدف والحجارة البراقة. وكانت هذه القبور عبارة عن غرف كبيرة قطعت في الصخر. وكانت سقوفها ومعظم الممرات المؤدية إلى داخلها قد اختفت بفعل عوامل الحتّ والتعرية المتعاقبة، لذا فلا يمكننا أن نكوّن صورة كاملة وواضحة لشكلها.

أما عمليات الدفن فكانت تتم بعملية غريبة. حيث كانت توضع الجثة بأكملها في القبر. وعندما يمتلئ القبر بالجثث يطرح الكثير من عظام الجثث السابقة خارج القبر. وقد وجدت معظم العظام منفصلة ومبعثرة ومتباعدة عن بعضها، وإذا وجدت جثة تامة داخل القبر فغالباً ما تكون ناقصة بعض الأعضاء. وقد عثر المنقبون على عدد كبير من الجماجم مجمعة أحياناً بجانب أحد جدران القبر. أما عدد العظام الطويلة فلم تكن تتناسب مع عدد الجماجم. ويبدو أن سكان هذه الفترة لم يعتقدوا بضرورة احترام جثث الموتى، وحتى قبل أن تتحلل وتتلف لحومها تماماً. أما الجماجم وحدها فهي التي كانت عندهم جديرة بالاحترام لذا هي وحدها التي بقيت دوماً داخل القبر.

عثر المنقبون على كثير من الشواهد والأدلة التي تشير إلى تدمير مدن العصر البرونزي القديم وتواريخها، وقد وصلت إلينا هذه الشواهد والأدلة عن طريق الفخار الذي وجد بكثرة في جميع مواقع هذه الفترة. ومن الناحية الفنية فإن أجود الفخار هو أحسنها مادة وأجملها منظراً. فالمنظر الجذاب مرده عادة للشكل وللسطح المصقول صقلاً جيداً. أما الصقل فكان يتم دائماً بواسطة اليد. وتمتاز هذه الفترة بصفة خاصة بالأواني المصقولة التي هي على الغالب حمراء أو سوداء، والتي غالباً ما يصقل جميع سطحها. وأحياناً تزخرف بخطوط متقاطعة أو نماذج هندسية. وقد توصل الإنسان إلى عملية الصقل هذه خلال فترة التحضر والاستقرار البدائية، ولكننا لم نعثر على هذا النوع من الفخار في فترة التحضر والاستقرار البدائية (A) في أريحا، وكان نصف الفخار الذي عثر عليه في قبور تل الفارعة مصقولاً بالطريقة التي مر وصفها. ولكن طريقة الصقل لم تصل أوجها إلا في عصر البرونزي القديم. وهنالك عملية أخرى كانت تجري على السطوح الفخارية وخاصة سطوح الجرار، وهي الزخرفة التي كانت على شكل حزم من الخطوط الحمراء أو البنية. ففي شمال البلاد كانت تظهر الزخرفة على شكل عروق كأنها شعر الفرشاة ويعرف هذا النوع من الزخرفة باسم عروق العسل.

أما في وسط وجنوب فلسطين فكانت الحزم تتكون من خطوط مستقيمة وقد اقتبس فن الزخرفة هذا عن فخار فترة التحضر والاستقرار البدائية (B).

الفخار:

إن أحد الأسباب الداعية إلى تحسن طرق صناعة الفخار ترجع سبباً يتعلق بالفخار الذي وجد في تل الفارعة والذي سبقت الإشارة إليه. وهو استعمال أفران خاصة لشي الفخار ذات غرف خاصة للاحتراق. لذا فمعظم فخار هذه الفترة قد شوي شياً جيداً ومتساوياً. أما السبب الثاني لتحسين صناعة الفخار فهو انتشار استعمال الدولاب الفخاري. وقد جرت أولى المحاولات لاستعمال دولاب بدائي في فترة التحضر والاستقرار الأولى عندما كانت معظم أطر وحواف الأواني ملساء ذات سمك واحد. ويبدو أن جسم الوعاء كان يصنع أولاً باليد لأن القسم السفلي منه غير منتظم. وبعدها يوضع على دولاب يدور بشكل دائري لجعل الحواف ناعمة ملساء. ثم تطور هذا العمل خلال العصر البرونزي القديم؛ إذ تحسن شكل الدولاب وازدادت سرعته. ولكنه لم يصبح دولاباً حقيقياً سريعاً لأن صناعة جزء من الوعاء باليد استمرت مدة طويلة. وفي العصر البرونزي القديم فقط استطاع الإنسان أن يصنع بعض الأواني الصغيرة كلية بواسطة الدولاب، وبقيت الأواني الكبيرة تصنع باليد طوال هذه الفترة عدا حوافها. وبالرغم من هذا فقد كانت الأواني المصنوعة ذات حجم كبير جداً، وهذا يفسر سبب عدم بقائها في حالة تامة سليمة.

إن نوع الجرار المعروف باسم الجرة ذات الفم الحجر Hole mouth jar هو نوع لا عنق له، وتنحني حواف فتحته البسيطة إلى الداخل. وكان هذا النوع يستعمل لطبخ والخزن ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة أقدام، أما لجرار الخاصة بالخزن فكانت ذات أعناق قصيرة، وغالباً ما يكون لها حواف مجدولة وعدد من الأيدي المتساوية الحجم.

إن تطور الفخار هو أساس كل دليل بني عليه تاريخ المواقع المختلفة التي سبق وأشرنا إليها في هذا الفصل. ولكن درجة تحديد هذا التاريخ لا تزال غير دقيقة، لأن ترتيب المجاميع الفخارية ترتيباً دقيقاً لم يتم تماماً حتى الآن فثمة نماذج انتخبت من مجموعة القبور في أريحا والتي يبدو أنها ترجع للعصر البرونزي القديم الأول والثاني والثالث وإلى الثالث المتوسط. ففي المجموعة الأولى نشاهد بعض الأشكال كالأواني والقوارير التي ترجع في تاريخها إلى فترة التحضر والاستقرار البدائية (B) كما نلاحظ وجود هذه الأشكال في المجموعة الثانية إلى جانب أشكال أخرى انتقلت من فترة الاستقرار والحضارة الأولى (A) مثل القوارير التي تشبه الكيس والجرار.

وقد وجدت أشكال لاحقة مثل الطاسات ذات الحواف المقلوبة والقوارير الكمثرية الشكل.ففي مجموعة العصر البرونزي القديم الثالث اختفت الأشكال القديمة مثل القوارير ذات القواعد المستديرة والقوارير الشبيهة بالكيس، وأصبحت القوارير الكمثرية الشكل شائعة جداً، بينما أصبحت أنواع الطاسات القديمة نادرة واقترحت أنواعها بغيرها من الأنواع والأشكال، وظهرت أنواع جديدة من الأباريق والقوارير وكانت الطاسات ذات القواعد المستديرة تستعمل غالباً للإضاءة، وقد شاع استعمالها لهذا الغرض. كما استعمل للغرض نفسه الصحن المسطح القاعدة، وقد وجد جنباً إلى جنب من الفخار المحلي أو أي قطع فخارية من فخار خربة الكرك، وقد سبق وأشرنا إلى ذلك.

لقد تم صنع هذه الأواني باليد، ويظهر أعظم صقل مؤثر في النفس على واحدة منها؛ إذ نشاهد مناطق محددة حمراء وأخرى سوداء وثالثة بنية فاتحة، وقد زينت سطوح هذه الأواني أحياناً بحفر وخطوط تظهر ككشكش الثياب، وقد وجد هذا النوع من الفخار أيضاً في شمال سوريا، ولكنه كما هو الحال في فلسطين دخيل على المنطقة، وقد رافق ظهوره في سوريا ظهور مشاكل واضطرابات توحي بغزو خارجي مؤكد، أما في فلسطين فلا يوجد أي دليل واضح يدل على غزو من هذا القبيل، لذا يمكن أن

نستنتج أن هذا الفخار دخل البلاد عن طريق التسلل أو التجارة. وقد وجدت أكبر كمية منه في بيسان وخربة الكرك، وكلا المكانين يقع على الطريق الواصل بين سوريا وفلسطين عبر الأردن. وبعد هذين المكانين تأخذ كميته تقل تدريجياً غرباً وجنوباً حتى تقل كثيراً من أماكن تقع في أقصى الجنوب مثل تل دوير.

لقد اختفت الأشكال القديمة تماماً في مجموعة العصر البرونزي القديم المتوسط الثالث. وأخذ يقل عدد الطاسات ذات القواعد المستديرة بينما يزداد عدد الصحون ذات القواعد المنبسطة، ويبدو أن نوع الصحون هذه أخذ يحل محل الطاسات القديمة. كما شاع استعمال الجرار ذات الفم المستدير والميزاب الجانبي (مزراب أو بزبوز) ولهذا النوع من الجرار صلة قرابة بالمجموعات القديمة. ويمثل الفخار الذي وجد في هيكل (عاي)، وفي قبر في أريحا المراحل الأخيرة من العصر البرونزي القديم الثالث. وقد حلت كلية في هذه المجاميع الصحون ذات القواعد المنبسطة والأطباق الكبيرة محل الاشكال القديمة. كما اختفت الأشكال المصقولة سواء منها المحلي أو الخاص بخربة الكرك.

يمكننا أن نتتبع تصور الفخار في فلسطين في العصر البرونزي القديم بالاعتماد على دليل محلي. أما تعيين تاريخ قاطع محدود فلا يمكن الوصول إليه إلا بالاعتماد على علاقة فلسطين بمصر؛ إذ يمكننا أن نجد علاقات واضحة ومناسبة. ويمكننا أن نشاهد دورقاً من الفخار الصلب الرقيق السمك المصقول بلون أحمر صقلاً جيداً. ويعرف هذا النوع من الفخار عادة باسم الفخار المعدني وقد وجدت نماذج منه في مجدو وتل الفارعة وأريحا وغيرها من الأماكن، ولكن الأدلة التي توصلنا إليها في مجدو لم توضح أصل وعلاقة هذا النوع من الفخار بغيره. أما في تل الفارعة فقد عثر المنقبون في طبقات العصر البرونزي القديم الثاني على هذا النوع من الفخار، كما وجدوه في أريحا ضمن المجموعة التي استمرت حتى العصر البرونزي القديم الثالث، ووجدت نماذج من هذه الدواري في مصر داخل قبور الأسرة الأولى التي يرجع تاريخها

إلى حوالي ٢٩٠٠ ق.م. ويعتقد البعض أنها ربما استوردت من سوريا أو فلسطين. ونستنتج من هذا أن العصر البرونزي القديم الثاني في فلسطين يرجع تاريخه إلى نفس تاريخ فترة هذه الأسرة ويمكن تقدير ذلك بالاعتماد على هذا الدليل وعلى فترة الحضارة والاستقرار البدائية السابقة التي سبقت العصر البرونزي القديم الأول.

بدأ العصر البرونزي القديم الثاني في فلسطين حوالي ٣١٠٠ ق.م. وقد سبق وأشرنا إلى العلاقة بين هيكل عاي والسلالة الرابعة في مصر. وأشرنا إلى أن تاريخ الفخار الذي وجد في هذا الهيكل والذي يرجع إلى العصر البرونزي القديم الثالث يمكن إرجاعه إلى ٢٦٠٠ ق.م. ويصعب علينا من الأدلة المتوفرة اليوم أن نحدد مدى استمراره؛ إذ من غير المحتمل أن تكون الفترة الرئيسية الثانية: أي العصر البرونزي القديم المتوسط قد بدأت قبل سنة ٢٣٠٠ ق.م. بكثير وليس لدينا إلا الشيء القليل لملء هذه الفجوة، ولكن يمكننا أن نرد جزءاً من هذا إلى سلسلة التغيرات المحلية التي حدثت حول هذا الزمن، وتدل الشواهد على حدوث انجراف عظيم في أريحا في نهاية العصر البرونزي القديم أزال جميع شقوق قبور فترة الحضارة والاستقرار الأولى، بالإضافة إلى قبور العصر البرونزي القديم. وتدل بداية تحدب هذه السقوف والقطع المتساقطة منها على أن القبور كانت في الأصل فعلاً ذات سقوف. أما من الناحية الثانية فإن قبور الفترة المتوسطة التالية من العصر البرونزي القديم المتوسط لها سقوف بالفعل. لذا نستنتج أن الانجراف العظيم قد جرف ستة أقدام أو أكثر من الصخر اللين الواقع على منحدرات التل حيث حفرت قبور هذه الفترة. وقد عثر المنقبون في أحد هذه القبور على دليل هام جداً يرجع تاريخه لفترة الحضارة — والاستقرار الأولى. لقد فقد هذا القبر سقفه كالعادة، وقد وجدت جميع محتوياته ضمن مادة متحجرة من الجبس الذي يترسب نتيجة تعفن الطفيليات والطحالب التي تتكون على الجدران نتيجة تسرب المياه داخلها، ولا يتأتى هذا إلا نتيجة حدوث انجراف. ويمكن حصر هذه الفترة التي حدثت فيها هذا الانجراف بالاستعانة بالحقيقة التي لمسها

المنقبون في قبر آخر حفر في رواسب القبر، ويرجع القبر الجديد إلى الفترة المتوسطة من العصر البرونزي القديم المتوسط. لقد كانت الرواسب هذه قاسية جداً بحيث أمكن حفر ممر وسقف لغرفة القبر الجديد وسطحها كما لو كانت من الصخر.

لما كانت جميع قبور العصر البرونزي القديم الثالث دون سقوف، وكانت جميع قبور الفترة المتوسطة من العصر البرونزي القديم ذات سقوف، فإن الانجراف الذي حدث في أريحا يجب أن يكون قد حدث في وقت سابق لعام ٢٣٠٠ ق.م. ولاحق لعام ٢٦٠٠ ق.م.

تحدث الانجرافات عادة نتيجة إزالة الغابات. لذا يظن البعض أن تلال فلسطين كانت مغطاة بالغابات كما هي الحال في لبنان اليوم. ونحن نعرف أن الخشب كان نادرٌ في فلسطين، لذا اضطر سليمان إلى استيراده من حيرام ملك صور لبناء هيكله. وتشير الأدلة على أن جزءاً محدوداً حدٌ من الغابات قد أزيل في العصر البرونزي القديم، مما أدى إلى حدوث مثل انجراف أريحا. ويمكننا تعليل ذلك بدليلين:

أولاً – تشير الدلائل على كثرة استعمال الخشب في كل من أريحا وتل الفارعة، وهنالك العديد من الأدلة على سقوط الأخشاب المحترقه من السقوف في أريحا. وقد استعمل السكان عدداً كبيراً من الألواح الخشبية المستقيمة في مراحل بناء الأسوار المتعددة. وقد وجد المنقبون في معظم غرف بيوت تل الفارعة صفائح صخرية كانت تقوم عليها أعمدة خشبية لدعم السقوف.

ثانياً – تحويل الأراضي الحرجية إلى حقول زراعية. وقد حدث هذا نتيجة ازدياد عدد فئات المجتمع التي تعتمد في قوتها على فئة المزارعين، لذا فقد احتاجت كل مدينة أو قرية إلى زيادة مساحة أرضها الزراعية لزيادة محصولها. لذا كانت نتيجة هذين العاملين تعرية جزء من أرض فلسطين لم تتخلص البلاد من أثره حتى اليوم.

ويمكننا أن نستنتج أن الحياة المدنية قد انحطت في المائة سنة الأخيرة من العصر البرونزي القديم، بسبب تأثير الحقول الزراعية بالفياضانات. وكانت النتيجة أن هجر السكان بعض المدن أو حددوا المهن فيها، ولكننا لم نعثر على أي دليل يؤيد ذلك. ويظن البعض أن قسماً من السكان قد هاجر إلى شرقي الأردن حيث تدل الأماكن المكتشفة على حدوث استقرار فيها في أواخر العصر البرونزي القديم. وحيث نجد أنواعاً من الفخار لا مثيل لها في فلسطين.

لقد اختتمت نهاية حضارة العصر البرونزي القديم في فلسطين بكارثة ساحقة، فبنيت آخر أسوار أريحا في العصر البرونزي القديم بسرعة زائدة، واستعمل البناء لأن في بنائها اللبن القديم وأجزاءه المتناثرة هنا وهناك وربما لم تكن هذه الأسوار قد تمت عندما التهمتها النيران. وربما لم ينتج من المدينة داخل الأسوار شيء ألبتة نتيجة هذه النيران أو نتيجة الفيضانات المتتالية. ويعتقد الكثيرون أن المدينة قد هدمت كلية، لأن جميع الآثار التي وجدت تدل على وجود فجوة وطلقة في تاريخ المدينة، وأن سكاناً جدداً قد حلوا محل الأقدمين، وتدل جميع الآثار التي وجدت في جميع المدن الفلسطينية التي تم الحفر فيها على وجود مثل هذه المحوة في تاريخ عمرانها.

لقد كان المغيرون الجدد من البدو الرحل الذين لم تعجبهم حياة المدن، لذا فقد طردوا سكان المدن الأصليين أو امتزجوا بهم، ونتيجة لكلا الحالين ظهرت في البلاد مجتمعات ضعيفة منحطة اختفت معها جميع معالم وآثار مدينة العصر البرونزي القديم.

الفصل السادس

مجيء العموريين

هوت الإمبراطورية المصرية القديمة في عام ٢٢٩٤ ق.م. قبل هجوم الغزاة الأسيون عليها وكان ذلك بداية العصر المتوسط الأول. ويقابل هذا العصر عصر الظلام في أوروبا الذي تلا سقوط الإمبراطورية الرومانية تحت ضغط هجوم البرابرة الشماليين وذلك في القرن الخامس بعد الميلاد. وعانت الحضارة كسوفاً ساحقاً؛ إذ أصبح تاريخ تلك الفترة غامضاً غير محدد المعالم. وعمت الأمية باختفاء القراءة والكتابة. وفي مثل هذه الفترات يبقى فن البناء مرة ثانية الوسيلة الوحيدة لتتبع أحداث الزمن كما حدث في عصر ما قبل التاريخ. وكما أن عصر الظلام في أوروبا قد ألقى فن البناء الضوء عليه تدريجياً ودونت الأحداث بالقصائد الشعرية الزاخرة بالأعمال البطولية، فلذلك تتبعنا أحداث الشرق الأوسط تدريجياً إبان فترة التوقف الحضارية وذلك بفعل الحفريات وبأساليب فن البناء.

وقد جرى التعرف أخيراً فقط على وجود مرحلة في فلسطين نسبياً بين فترة حضارة العصر البرونزي القديم والعصر البرونزي الأوسط مماثلة لمرحلة العصر المتوسط الأول في مصر. وقد طمست صورة هذا العصر لوقت طويل، وذلك بالمجادلة التي جرت لتحويل معالمه إلى العصر البرونزي القديم والمتوسط، وأول من عرف بوجود وحدة ذاتية يجب تمييزها هو السير فلاندرز بيتر Sir Flinders Peterie فقد وجد في تل العجول سنة ١٩٣١ عدد من القبور ذات طابع واضح نسبة إلى العصر النحاسي. وهذا الانتساب كان معقولاً ما دام العديد من القبور قد جرى تمييزها

بالأسلحة النحاسية التي وجدت فيها. ولكن أعمالاً أخرى جديدة بينت (أظهرت) أن هذه القبور تتبع مرحلة تقع بين ما اعتدنا تسميته لوقت طويل بالعصر البرونزي القديم والعصر البرونزي المتوسط ولذلك فمن الفوضى أن نعطيه اسماً هو لمرحلة قديمة كما يظن. وفي الحقيقة هي مرحلة متوسطة تشابه مرحلة العصر المتوسط الأول في مصر. ولذلك فهي أكثر ملاءمة أن ندعوها مرحلة ما بين العصر البرونزي القديم المتوسط والعصر البرونزي الأوسط. وكما سنرى فهي تماثل في تاريخها العصر المتوسط الأول في مصر.

وتألف شاهدنا في جميع المواقع التي اكتشفت، من نوع جديد من الفخار ظهر فجأة، وأكثر هذا الفخار تميزاً من حيث الشكل هو نوع من الجرار الطويلة البيضاوية ذات قاعدة مسطحة وحافة مستوية، ثم قدور أصغر حجماً ذات أيدي تشبه الآذان ومركبة عند الرقبة، ومن ثم كؤوس منتفخة أو مخصرة نوعاً. وكانت الزخرفة ذات شكل محزز، وعادة خليط من الخطوط المستقيمة المتموجة أو ذات سلسلة من النخزات (نخزات متسلسلة) ولم يوجد على الإطلاق نوع من أوعية العصر البرونزي القديم اللامعة وذات الرسومات الزخرفية التي كانت طابع ذلك العصر. وكان الخزف هشاً لم يحسن شيه في النار، ولكن صناعة القدور ذات الحواف الرقيقة التي تبعث على الاعجاب كانت رائعة والطابع المدهش هنا هو أن جسم الجرار وإن كان قد صنع باليد (يدوياً) فقد تم إنجاز الحافات على العجلة السريعة قد وجد أيضاً في العصر البرونزي القديم، ولكن الاختلاف والتباين كانا غير ظاهرين تقريباً.

ومن النادر وجود أي صعوبة في تمييز هذا الفخار عن فخار العصر البرونزي القديم، كما لا توجد أية صعوبة في تمييزه عن فخار العصر البرونزي الأوسط وذلك عندما تكون أشكال القدور مختلفة تماماً وتم صنعها على عجلة سريعة. وبناء على هذا الشاهد فقط فمن المأمول أن نحاجج بوجود غزو جديد لجماعة جديدة. وقد

يوحي التشابه بين فخار هذه الجماعة وفخار سكان العصر البرونزي القديم كقواعد الجرار المسطحة التي تتباين مع القواعد المدببة طابع العصر البرونزي الأوسط ومن ثم استعمال اليد الناتئة، وإن كانت ذات أشكال مميزة توحي بوجود صلات، وعلى أية حال فربما كان هذا الفخار من فخار سلالة قديمة معروفة. وهنالك سبب وجيه للاعتقاد بأن هؤلاء الوافدين الجدد كانوا من العموريين لما سيأتي في آخر هذا الفصل.

وتمتد هذه الاختلافات على حقل أوسع بكثير من حقل الفخار فقط في شكل الحياة وفي فن البناء وعادات الدفن، والأسلحة والهيئة الاجتماعية. وقد وصلت هذه الاختلافات بشكل واضح وبالتفصيل في أريحا.

وكما جرى الوصف من قبل فقد هدمت آخر أسوار مدينة أريحا في العصر البرونزي القديم بفعل النيران. وبهذا الدمار انتهت حياة المدينة لفترة تقدر بعدة مئات من السنين. واستقر الوافدون الجدد الذين سببوا هذا الدمار على الأرجح، استقروا على منحدرات الركام وفوق جزء ضخم على جانب التل المجاور، ولكن الشاهد الوحيد للمراحل القديمة التي تدل على احتلالهم في مدينة الركام كان ذلك الانتشار الضخم لفخارهم ذي الطابع المميز، والذي وجد مختلطاً مع أنقاض المنازل، وقد وجد مثل هذا الفخار مع أنقاض الاحتلال في التل المجاور وإن لم توجد أبنية. وقد ظهر أول بناء فقط بعد أن امتلأ الخندق الذي يعود إلى مدينة العصر البرونزي القديم بالفرين إلى عمق ٢,٥ متر، لهذا السبب كان الوافدون الجدد بدواً بكل تأكيد وقاموا بتدمير المدينة القائمة، ولكنهم لم ينشئوا لأنفسهم مدينة بدلاً منها. وربما كان انتصار الصحراء المؤقت على المدينة هنا هو أوضح شاهد في تاريخ فلسطين الطويل.

المدافن:

ويلقي الشاهد الوارد من قبور هؤلاء الوافدين الجدد ضوءاً أكبر عليهم، ويؤكد اختلافهم عن أسلافهم وعن تنظيماتهم البدوية (هيئتهم) وحوت قبور العصر البرونزي القديم بأجمعها مدافن عديدة، وفي فترة ما بين العصر البرونزي القديم والعصر البرونزي المتوسط كانت عملية الدفن فردية بصورة جوهرية، وإن كان قد وجد جسدان معاً على فترات. ونتيجة لذلك فهناك أعداد هائلة من قبور هذا العصر. وقد ظهر أن كل الطاقات والإمكانيات البناءة قد اتجهت نحو إشادة قبور للموتى بدلاً من بناء منازل للأحياء.

ومع أن عملية الدفن الإفرادي كانت الطابع السائد فقد أظهرت عادات الدفن من أوجه أخرى اختلافات متعددة. وقد يجري تفسير هذه الاختلافات على أنها الشاهد لتقاليد القبيلة. وهو تمسك كل جماعة بعاداتها الخاصة بالدفن. ويمكن تصنيف القبور في خمسة أصناف:

فالشكل الأول هو القبر ذو الخنجر. وهذا الشكل يكون فيه القبر صغيراً ومنحوتاً نحتاً ناعماً. وفي حجرة القبر وجد هيكل عظمي سليم يرقد في وضع منحنٍ لصغر حجم حجرة القبر. وفي حالة كون المدفون رجلاً يوضع معه خنجر، وإن كانت امرأة فيوضع معها عادة دبوس وعقود. وعملية الدفن هنا بأجمعها بسيطة ومتقشفة، والأهمية التي أعطيت هنا للأسلحة توحي بأنهم شعب محارب.

وتشكل القبور ذات الطابع الفخاري الدرجة الثانية، وقد دعيت بهذا الاسم لأن الفخار كان دوماً من ملتزمات الجنازة بدلاً من الخنجر على الإطلاق. وهنالك اختلاف أخر بين هذه المجموعة من القبور والمجموعة السابقة في شكل عتبة وحجرة القبر، فالعتبة هنا واسعة جداً وعميقة، والحجرة ضخمة في مساحتها وإن كانت ذات علو يتراوح بين ثلاثة وأربعة أقدام، وقد جرى تحت العتبة والحجرة ببساطة،

والخلاف الأخير هنا هو أن الجسد وضع وضعاً عفوياً أشبه بكيس العظام ومفككاً ومن ثم راقداً بغير نظام، وقد لف الجسد بنوع من القماش أو الحصير.

ويظهر أن الكشف على مثل هذا العدد الهائل من القبور التي حوت هذه العظام المشوشة هو عمل يدعو إلى الإعجاب. وقد نجد السبب لهذا التشويش للعظام في إحدى عادات البدو وهي نقل أجساد الذين ماتوا خلال موسم هجرات القبيلة إلى مكان مدافن هذه القبيلة. ويظهر أيضاً أن القدور التي وضعت في المدافن قد صنعت خصيصاً لأغراض الدفن؛ إذ لم توجد مثل هذه القدور في مواقع السكن فكانت هذه القدور رديئة الصنع وغير متقنة. وتبين نماذج هذا الفخار المصنوع نصفه الأسفل باليد وحافته بواسطة العجلة، ووجد نوع آخر وهو سراج ذو أربعة أنوف كان يحفظ عادة في كوة محفورة في جدار حجرة القبر، وكثيراً ما وجدت صخور الكوة مسودة بفعل الدخان، وهذا بين أن السراج كان في الواقع قد استخدم لإنارة قبر الميت.

وفي المجموعة الثالثة وجدت مظاهر لأشكال القبور الخنجرية والفخارية، وكانت العتبة والحجرة ذات حجم متوسط، وكلتاهما تقارب في الشكل قبور الفخار، ولكنها ليست كبيرة كالأغلبية، ولم يكن نحتها ذا طابع خشن. ووجدت في هذه القبور هياكل سليمة وضعت معها الأسلحة والقدور معاً. ووجدت معالم جديدة فيها؛ إذ إن الأسلحة كانت تحوي رمحاً وهو سلاح قصير من النحاس مع رأس صغير يشبه شكل الحربة وطرفه ملتف حتى في ما يدخل من السيف أو السكين في المقبض. والاختلاف اللافت للنظر في هذه المجموعة عن الأخرى هو أن عتبة القبر كانت مربعة تقريباً، ولهذا السبب دعيت هذه القبور بالقبور ذات العتبة المربعة.

أما المجموعة الرابعة فدعيت بالقبور الضخمة؛ إذ إن كل شيء في هذه المجموعة كان ضخماً وعلى نطاق كبير. وحوت هذه القبور (كقبور العتبة المربعة) أسلحة وقدوراً معاً وكانت هياكلها سليمة، ولكن حجرة القبر وعتبته كانتا من قياس ضخم

جداً، وارتفاع حجرة هذا القبر تتباين مع القبور الفخارية كان قطر أكبر حجرة ١١ قدماً، ٣ إنشات وعلوها ٨ أقدام وقطر أكبر عتبة ١١ قدماً و٩ إنشات وعمقها ٢٢ قدماً و٩ إنشات. وكانت التقدمات على نطاق كبير أيضاً في عددها وفي حجم الأوعية التي كانت توضع فيها والتي كانت عبارة عن جرار كبيرة منتفخة وضعت في مكان القدور التافهة في القبور الفخارية.

والنوع الأخير هو أقل أهمية؛ إذ إن التقدمات كانت زهيدة هنا. ولم تكن القبور محفورة عادة إلى عمق الصخر. لذلك كثيراً ما ضاعت سقوفها بفعل الفيضانات، وكانت الهياكل مقطعة الأوصال كما هي الحال في القبور الفخارية. والأشياء الوحيدة التي وضعت مع الأجساد كانت بعض العقود والدبابيس أو قطع من الأزرار البرونزية التي كانت جميعها من الملابس أو الزينة. وما دامت هذه العقود هي الأشياء التي عم وجودها في هذا النوع من القبور فقد سميت بالقبور ذات العقود.

وعلى الغالب لم توجد العلاقات بين هذه القبور ذات الأشكال الخمسة. وقد وجد شاهد لقبر من قبور الطابع الفخاري يقارب القبور ذات طابع الخنجر، وتميز عن قبور الطابع الفخاري لدرجة القول بعدم وجود إمكانية تطور أحدهما عن الآخر. ونظراً للطابع العام للوافدين الجدد في فلسطين وخاصة عدم الاهتمام بحياة المدن، وعاداتهم بدفن مجموعة من العظام المفككة في قبور الطابع الفخاري و نتي توحي بأنهم كانوا من البدو، ومن ثم تشديدهم بوضع الأسلحة في قبور ذات طابع الخنجر، يوحي بأنهم كانوا شعباً محارباً، وظهر أن أكثر التفسيرات إقناعاً هو الاختلاف في عادات الدفن التي تعود إلى تنظيمات لقبيلة نفسها. وهكذا فالو فدون هم قبائل بدوية عرفت بأنها عصابة نهّابة هبطت لغزو الأراضي الساحلية الغنية، ولكنها متمسكة أبداً بعاداتها القبلية.

وبناء على المفارقات بين قبور الطابع الفخاري وقبور طابع الخنجر يمكن مناقشة العلامات القبلية الفارقة بلا تردد. وظهر أن القبور ذات العتبة المربعة قد قدمت

مظاهر جديدة وعلى الأخص تخطيط العتبة الذي طبق ليدل على هذه المجموعة من القبور، ووضع الأسلحة بما فيها الرمح كان مظهراً جديداً لها، وكذلك وضع الفخار في المدافن وتضيف هذه المجموعة الفخمة أشكالاً جديدة من الفخار ومظهراً لحجمها الهائل أيضاً. وعلى أية حال فهذه الاختلافات ليست كبيرة كما هي الحال في القبور ذات طابع الخنجر والقبور ذات الطابع الفخاري. ومن الجائز أنها قد تطورت. ووجدت مجموعة أخرى من القبور ظهر على أنها تجمع في الواقع مظاهر لأنواع أخرى. ولذلك فمن الممكن وجود بعض الامتزاج في الأشكال حدث بعد وصول عدد من الجماعات القبلية مصحوبة بعاداتها في الدفن، ولكن هذا لم يثبت حتى الآن.

تل العجول:

ومن الأهمية بمكان أن نجد في موقعين آخرين هما تل العجول في الجنوب وتل مجدو في الشمال شاهداً على وجود أشكال مشابهة. وقد أتى هذا الشاهد مرة أخرى من عادات الدفن. وقد كشف بيتري النقاب في تل العجول عن مقبرتين منفصلتين. فمقبرة كانت إلى الشرق من التل، ومقبرة أخرى إلى الشمال منه وفيها كانت للقبور (ما عدا واحد مشكوك فيه) فتحات في السطح مستقيمة الخطوط ومستطيلة الأشكال تقريباً. وهي على ذلك تشابه قبور العتبة الرابعة في أريحا. وهناك مظهر جدير بالملاحظة وهو النواة الوسطى للصفوف الثلاثة للقبور الثلاثة. حيث خطت حجرة القبر، والتي ربما كانت مسقوفة في الأصل بالحجارة أو الطوب. وحوت قبورها (مع بعض الاستثناءات) هياكل فردية سليمة، وفي ثلث هذه القبور كان الخنجر بين التقدمات، وفي بعض الحالات كان الخنجر هذا هو التقدمة الوحيدة في القبر. أما الأوعية الفخارية فكانت ذات شكل محدد، وكانت تتألف بكاملها من الجرار ذات

الأيدي الناتئة، وذات الأنوف في بعض الأحيان والقليل منها كان ينقصها الأيدي الناتئة.

وفي مقبرة أخرى كانت معظم القبور ذات عتبة مستديرة وتحتوي على هياكل مفككة، ووجدت فيها أنواع من الفخار أكثر من المجموعة الأخرى. فالأغلبية من الأوعية كانت من الجرار، إلا أنها بدون أيدي ناتئة، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك بعض الأطباق والكؤوس، ووجد خنجران فقط في كل المقبرة، ولكن من ناحية أخرى وجد اثنان من الرماح، وكان قليل من هذه القبور مشابهاً في تخطيطه لقبور المقبرة التي تقع شمال التل، وفي حالات قليلة كانت المدافن سليمة.

وبكلمة موجزة يمكن القول إن هذه المقبرة كانت حسب أشكال قبورها مقصورة على فرد واحد ومتماسه. وقد جرى استعمال نظام دفن الجسد مع الخنجر ومع بعض أشكال القدور والجرار عديمة الأيدي الناتئة، من مقابر أخرى كما استعارت المقبرة الشرقية بعض الأمثلة على شكل القبر ونظام الدفن مع الخنجر المعتاد تقديمه في هذه الظروف، ولكنها احتفظت لنفسها بأشكال فخارها.

ولا تتشابه مجموعات تل عجول بالضبط مع أي من مجموعات أريحا، ومثال ذلك وجد الدفن الأفرادي السليم ذو الوضع الجاثم في قبور ذات العتبة المستطيلة. وقد حوت قبور أخرى من ذات العتبة المستطيلة مدافن سليمة مملوءة بالقدور والخناجر، بحيث تشابه به القبور ذات العتبة المربعة في أريحا، ولكن القدور كانت مختلفة. ولقد أتى فخار أريحا الذي يشابه إلى درجة كبيرة فخار تل العجول من قبور المجموعة الضخمة، إلا أن قبورها الأصلية غير معروفة، ولا تقارب قبور تل العجول هذه قبور أريحا في حجمها، ولم يكن لقبور تل العجول بهياكلها المفككة الطابع أو أشكال التخطيط لقبور أريحا، وكان الفخار بدوره مختلفاً جداً.

وكان طابع القبور في المكانين مجمع نفس عملية الدفن الإفرادي وكان هناك التشديد على وجود الأسلحة ووجود عملية الدفن الإفرادي. ومع أن شكل القدور في الموقعين كان مختلفاً جداً فقد تشابهت في نوعها وفي صنعها ولا يمكن الشك بأنها تعود إلى نفس المظهر العام. وسيبقى نشوء الصلة بين مجموعات أريحا ومجموعات تل العجول غير مؤكد، كما هو الحال في الصلة بين مجموعات الموقع الواحد في الواقع. وفي تل عجول كما في أريحا لم تكن المناقشات التي دارت حول التعاقب التاريخي المتسلسل الذي من الفخار ذي الأيدي الناتئة إلى الفخار العديم الأيدى أو من التخطيط المستطيل للعتبات إلى التخطيط المستدير لها، ولو أن مثل هذا التعاقب يبقى كشيء ممكن وجوده. وقد يوحي ظهور الأنواع (الأشكال) في تل عجول والتي توافق المجموعات المنفصلة في أريحا ومن ثم واقعية الخلافات بين المجموعات لأقل وضوحاً، بوجود تقارب تدريجي وهذا سيوجد في موقع يمثل توغلاً أبعد في البلاد لجماعات نشأت بالتأكيد في المناطق الشمالية والشرقية، وبالتالي فقد تكون مدافن تل العجول في حد ذاتها مدافن تلك الجماعات القبلية الأخرى. وهذا موضوع يحتاج إلى بحث آخر.

تل الدوير:

وفي تل الدوير مقبرة (المقبرة رقم ٢٠٠٠) تشابه من عدة نواحي المقبرة رقم ١٠٠-٢٠٠ في تل العجول، وتقع هذه المقبرة على رابية تبعد ٧٠٠ متر شمال التل، وقد وجد حوالي مئة قبر متجمعة ومتقاربة عند طرف الرابية. وكانت الأقلية من هذه القبور ذات عتبة مربعة، ولكن الأغلبية منها كان لها عتبة مستديرة وحجرات أو بدون عتبات على الإطلاق. وربما كان ذلك نتيجة للتآكل الذي حدث ولسوء الحظ لم يظهر أي شاهد على وضع الأجساد. وربما لأن جميع الهياكل كانت مقطعة الأوصال. وحوت جميع القبور أوعية فخارية. ولا تشبه سلسلة الأشكال الفخارية هذه تلك التي

وجدت في مقبرة تل العجول باستثناء أعداد أكبر من الكؤوس والأكواب، واتجاه شكل الجرار ليكون أصغر وأقل طولاً. والقليل جداً من الأشكال ذات الأيدي الناتئة كانت تشابه تلك التي وجدت في المقبرة الشمالية في تل العجول. ووجدت بعض الجرار ذات الأنوف. وحوى قبران كل منهما خنجراً فيما حوى أحدهما رمحاً كما حوى قبران آخران اثنين من الرماح. وظهر أن هذه المجموعة لها صلة مع المجموعة التي وضعت في المقبرة الشرقي في تل العجول. ويمكن إرجاع الخلافات التي وجدت إلى تاريخ متأخر مع وجود تطور نموذجي في الأشكال، ووجود امتزاج طفيف في أشكال مجموعة تل العجول الأخرى كما كان دوماً فالتفسير صعب هنا؛ إذ لا يجد الإنسان مجموعات مختلفة في الأشكال في الطبقات التي لها صلة بعضها مع بعض.

وتضيف مجدو تفصيلات أخرى، فقد جرى الكشف فيها عن عدد من القبور وجدت على سطح الصخر المنحدر من سفح التل باتجاه الشرق. ومن بين هذه القبور مجموعتان تعودان ولا بد إلى ما بين العصر البرونزي القديم والمتوسط إلى العصر البرونزي الأوسط.

أما المجموعة الأولى فوجدت في قبر كان جزءاً من مجموعة الحجرات المتلقة والمحصورة في الصخر والتي تشبه الكهوف في شكلها. وجرى الدخول إليها من منحدرات التل نفسه. ووجد أن آخر استعمال لهذه القبور كان في العصر الحديدي القديم (الرواسب العليا) بعد أن حدث انهيار ضخم في السقوف التي غطت مخلفات العصور القديمة، وتمثل الرواسب السفلى ذاتها مراحل للاستعمال عديدة ومتعاقبة، فالمرحلة الأولى تقع في عصر المدن الأول عندما كان هناك احتلال محلي للموقع، وتقع المرحلة الثانية لهذا الاحتلال المحلي (والتي تمتاز بطبقاتها المتراصة) في العصر البرونزي القديم وربما في عصر E.B.III بكامله. وكانت فوق هذه الرواسب الذي يبلغ علوها نصف متر، مدافن وجدت بداخله الأوعية المبينة، ووجدت أيضاً مجموعة من المواد النحاسية، وقد اعتبر المكتشفون المدافن التي تمثل ١٤ فرداً مدافن تعمها

الفوضى، وإن كان القليل من العظام التي وجدت فيها كان لا يزال متماسكاً. أما معظمها فكان في حالة من الفوضى والتشويش. وعلى ضوء الشاهد الوارد من أريحا وعلى الاستدلال الآتي من تل العجول، فمن المحتمل أننا سنشغل أنفسنا بالمدافن مرة أخرى بعد أن تحلل لحم الأجساد بفعل التعرض للجو. وظهر أن بعض العظام قد لحق بها السواد وذلك بمس النيران. وتبين أن هذا الأسود كان على وجه العظام فقط، لذا يمكن القول إن هذا الاحتراق حدث بوضوح بعد أن وضعت العظام في موضعها الحالي والتي تمثل ولا بد احتفالاً جنائزياً قديماً.

والفخار الذي وضع في هذه المدافن له صلة واضحة مع فخار أريحا، ففي شكل الأيدي الناتئة المطوية والمغلقة وفي شكل الأشياء النحاسية بما فيها الخنجر والتي تشابه تلك التي في أريحا، وفي تل العجول مثل رؤوس الحراب ودبوس العقدة الذي سنشير إليه فيما بعد. إلا أنه وجد هذا التشابه للمادة التي وجدت في أريحا وفي تل العجول. فلم يوجد أي تطابق بين هذه المكتشفات وبين عادات الدفن لأي موقع من المواقع.

ودعا المكتشفون المجموعة الثانية من القبور في مجدو بالقبور ذات العتبات، وبذلك يؤكدون بأن حجرات القبور المنحوتة في الصخر والمعروفة بعتبات الدخول كانت نادرة هناك، ولكن وإن كانت مثل هذه القبور هي الطابع العادي لتلك العجول وأريحا فهذا الطابع الخاص في مجدو كان له شكل مزخرف ونادر جداً، وكان شكل العتبات مربعاً وعمقها متران مع وجود حفر أرضية على جوانبها العمودية، وكان عند قاعدتها باب صغير مغلق بحجر ويقود إلى منتصف الحجرة، ومن هذه الحجرة تقود مداخل صغيرة إلى ممرات ثلاثة أخرى ذات مستوى أعلى نوعاً ما. وأحد هذه الممرات يقع بجوار العتبة أما الآخر فعلى جانبي وسط الحجرة، وقد جرى نحت هذه القبور بأدوات نحاسية بلغ عرضها ٥ سنتم، ١٢ سنتم وفي بعض الأحيان كانت تستكمل هذه

القبور بطلاء لها بغشاء (بطبقة) من الجص أو بالبياض. وكان التخطيط المتكرر، وإن ظهر فيه بعض الاختلاف.

وأعيد استعمال الكثير من هذه القبور في تاريخ متأخر، ولكن المكتشفين وجدوا أنفسهم في حيرة عندما حاولوا تفسير حالة الفوضى في وضعية العظام، حتى في حالة العظام التي تلحقها الفوضى على هذا الشكل. وقد ظنوا أن ذهباً أو بعض الأشياء الثمينة قد وضعت في هذه القبور قريبة من الأجساد، وأن حدوث الفوضى في العظام كان نتيجة لأعمال السلب (النهب) التي قام بها اللصوص، حتى وإن كان حجر الإغلاق قد وجد في مكانه. ويوضح الشاهد من أريحا على أن في مجدو هنا كانت تجري عملية دفن العظام المقطعة الأوصال.

ويشابه بعض الفخار وجد في هذه القبور فخار المجموعات الأول للعصر البرونزي المتوسط. ويحتوي هذا الفخار على جرار ذات أيدي تشبه الآذان ومتينة عند الرقبة والتي تشابه تلك التي وجدت في أريحا وتل العجول وفي أحد قبور مجدو والجرة كما هي مبينة شكل معروف في أريحا وبيسان وقريبة الشبه من الأوعية التي وجدت في مقبرة في تل العجول (وإن كانت لهذه الأوعية أيد أثرية ناتئة) كما وجد كأس قريب الشبه إلى أشكال الكؤوس التي وجدت في أريحا وتل بيت مرسيم، وبالإضافة إلى ذلك وجد عدد كبير من الجرار الصغيرة ذات الأنوف والتي هي في حد ذاتها الجرار ذات الأيدي الناتئة إلا أنها أضيفت لها الأنوف في ذلك الوقت. وقد وجدت هذه أيضاً في أريحا. ولكن بالإضافة إلى هذه الأشياء فهناك عدد ضخم من الأوعية المستوردة كما اتضح، والتي تمتاز عن الأوعية المحلية بخزفها الرقيق الصلب وبصناعتها التي تمت على العجلة المتحركة. وكانت هذه الأوعية ذات لون بني عادة أما الأوعية الفريدة النوع في نفس هذه المجموعة فكانت إبريقاً وقدحاً. وتبين أن الأباريق ذات الفم المستدير والأيدي الغريبة كانت من الأوعية التي لم توجد في المواقع الأخرى. ولكنها وضعت هنا على أنها تم صنعها يدوياً ومن الخزف المحلي ووجدت مكتشفات أخرى في هذه

القبور بما فيها دبابيس عقدة ذات رأس يشبه الفطر ودبوس واحد برأس منحن.

وتعطي هذه المكتشفات دلالة واضحة على أصل هذه المجموعة التي وجدت في مجدو: إذ كانت أباريق (الشاي) متشابهة جداً في شكلها وإن لم تكن في زخرفتها مع أشكال وجدت في أماكن مثل قطنة في سوريا، ورقائق ذات زخرفة مشابهة وجدت في بعلبك. أما رؤوس الدبابيس فكانت مشابهة لتلك التي وجدت في سوريا أيضاً في براك بالضبط. ولذلك فمن المرجح أن تكون هذه المجموعة قد وصلت إلى فلسطين عن طريق الشمال الشرقي للبلاد.

ومع أن عدداً من الأشكال التي جرى التعرف عليها من قبل قد أظهرت صلات مع مواقع أخرى فلم توجد مجموعة أخرى لائقة تحوي بقية المادة في فلسطين. وعلى كل حال ففي شرق الأردن وجد كهف في الحصن استعمل مدفناً قدم مادة مشابهة جداً؛ إذ حوت مثلاً جراراً ذات أنوف، وجراراً مزخرفة، وجراراً ذات أيدي ناتئة، ودبوساً ذا رأس منحن. ومع ذلك لم تحو هذه المادة أي نوع من أنواع الفخار المستورد. ولعل هذه المجموعة قد وصلت إلى شرق الأردن عن طريق فلسطين، والتي تؤكد احتمال دخولها إلى فلسطين عن طريق شمال البلد.

وحتى الآن فقد عالجنا فقط قبور هذا العصر إلى حد بعيد، والجزء الأكبر من شاهدنا هنا يأتي في الواقع من هذا المصدر. وكان الشاهد على كل المواقع تقريباً وداخل المدينة نفسها أكثرها ضآلة. وفي تل العجول لم توجد أي دلائل على وجود احتلال في التل. وفي تل مرسيم ردت الطبقتان H.I إلى هذا العصر، ولكن الأبنية الباقية كانت ضئيلة. ولم يكن هناك أسوار للمدينة، وأكثر الفخار ظهر من راسب أحد الكهوف.

وفي تل الدوير وجد موقع لنزلة في منطقة تبعد ٥٠٠ متر عن شمال غربي التل، ووجدت آثار هذه النزلة في الكهوف وفي الحفر. ووجد منزل ذو بناء واه قد يعود

إلى هذا العصر، وتبين أن فخار الاحتلال لهذه النزلة كان في مجموعة يختلف عن أشكال فخار المقابر. وهذه معالم غريبة وجدت مرة ثانية في أريحا. ووجدت في بيسان أوعية قليلة استخرجت من الطبقات والتي تبين بأنها طارئة على هذا المحيط (بينت الطبقات التي وجدت على هذا المسطح علامات واضحة على وجود الفوضى) والتي تدل على حدوث احتلال طفيف، ولكن مرة أخرى لم يكن هناك أية أبنية قائمة.

ويأتي أوضح شاهد على هذا من أريحا. فعلى خرائب مدينة العصر البرونزي القديم ظهر مباشرة فخار عصر EB – MB كما وجدت منازل ذات طابع جديد، إلا أنه من الواضح أن احتلالاً طويلاً كان قد وحد قبل الشروع ببناء المنازل. وقد وجدت هذه المنازل بصورة رئيسية على منحدرات التل؛ إذ إن ميزات هذا العصر على قمة التل قد اختفت بفعل التآكل، وكانت هذه المنازل تقع في منتصف الطريق نحو منحدر التل وفوق خندق من خنادق حصون العصر البرونزي القديم. وفي قاع التل حوى الطريق فخاراً من عصر EB-M وقد تراكم ما عمقه ٢,٥ متر من الغرين فوقها قبل الشروع ببناء أول بيت عليها.

وهكذا كان هناك احتلال طويل لبلدة حديثة النشأة، وهذا الاحتلال وجد على منحدرات الرابية المحيطة بالإضافة إلى وجوده على طول التل؛ إذ وجد الفخار المصنوع محلياً في بقاع منطقة المقبرة التي تعود إلى عصر E.B – M.B. بدون أي أبنية مراهقة. وعندما ظهرت المنازل الأولى على التل كانت ضئيلة الشكل ومختلفة كلية عن منازل مدينة العصر البرونزي القديم التي سبقتها (تقدمتها) وكانت هذه المنازل مبنية من طوب ناعم مستطيل وذي لون أخضر غريب الشكل. وكانت الجدران ذات صف واحد في سمك البناء، والغرف صغيرة وبالأحرى غير منتظمة الشكل، ووجد بناء واحد ربما كان مزاراً أو هيكلاً. ووجد تحت أسواره أساس مدفن صغير. وفي الغرف المجاورة كانت هناك كتل ضخمة من الطوب المصنوع حجم كل منها متر مكعب والتي قد تكون مذبحاً، وظهر أن النزلات حتى بعد البدء ببناء المنازل قد

انتشرت بصورة غير منتظمة على منحدرات الركام، وبدون ظهور أي سور للمدينة. وكان الفخار الذي وجد في هذه النزلة مختلفاً عن الفخار الذي وجد في القبور إلى درجة تبعث على الدهشة. حتى إن التسليم بالواقع بأن عدة أشكال محلية مثل قدور الطبخ لم توجد على نحو مألوف في القبور حتى إن أشكال الجرار كانت مختلفة، والكثير منها كان ذا حافة عالية ومتسعة نحو الخارج تدريجياً، وجدت في مقابر تل العجول وتل دوير. كما وجدت كؤوس وأكواب نادرة الوجود في قبور أريحا. ووجد على هذا التل فقط مظهر يستلفت النظر عبارة عن أوعية ذات زخرفة محززة أو مسبلة من مجموعة من الخطوط المستقيمة والمتموجة والتي هي مظهر فخار هذا العصر في تل بيت مرسيم وتل العجول. وقد وجد هذا الاختلاف الأخير في تل دوير أيضاً. وهذا الاختلاف بين قبور التل يؤلف معقله هنا لم يتوفر الجواب عليها بعد، أما بالنسبة لمعقله الصلات المتبادلة بين المجموعات المختلفة التي قدمت المقابر الدليل عليها فيحتاج إلى بحث آخر.

وعندما تم الكشف عن هذه المادة في مجدو ظهر هناك تشابك (تداخل) مع فخار يعود إلى العصر البرونزي القديم. كما ظهر فخار العصر البرونزي الأوسط جنباً إلى جنب في طبقات متعددة، ولكنني بينت أن ظهور الفخار هذا يعود إلى المدافن الطارئة وإلى الفوضى المتعددة. وهذا لم يحدث قبل هذا الاختلاط في مجموعات القبور. ومن المؤكد عملياً أن الاحتلال في إبان العصور الثلاثة على التل كان واضحاً كما هو الحال في أمكنة أخرى.

ونتيجة لهذه الفوضى فمن الصعب التأكد أي الأبنية (إذا وجدت) في هذه الطبقة تعود إلى عصر E.B – M.B. وهناك احتمال كبير بأن فترة واحدة من البناء على الأقل يعود إلى هنا. وفي منطقة الحفريات B.A. نسبت ثلاثة من الهياكل المجاورة إلى الطبقة الخامسة عشرة، ومن غير المحتمل أن هذه (الهياكل) كانت من عصر واحد. وربما كان التخطيط الثاني. ولو أن الاقتراب جاء من الشرق كان معاصراً أو

غير معاصر لا يمكن تأكيده (إثباته) ويظهر أن هذا الهيكل قد خلف هيكلين مشابهين كانا قائمين في الشمال الغربي منه. وقد أعيد بناء هذا الهيكل على التوالي أنقاض هيكل أصغر وأدمج في البناء الجديد رأس فأس مثقوب، والذي يمكن تبيانه على أنه من طابع عصر M.B E.B. ووجد في الفخار المرافق لكل أبنية الهياكل المتعاقبة جزء كبير من أشكال عصر M.B E.B. كان الافتقار إلى مطابقة وافية تجعل من المستحيل التأكد من ذلك، ومن الممكن أن المراحل الثلاث هذه ربما تعود إلى هذا العصر.

وقد يكون هذا متبايناً تبايناً واسعاً مع الشاهد في أماكن أخرى. وتدعيماً لهذا الانتساب فمن المظنون أن سكان عصر البرونزي القديم المتوسط باهتمامهم بالتخلص من الموتى، فقد أظهروا في كل مكان عناية كبيرة للأمور الروحانية. وهناك أيضاً المزار (أو ما يظن على أنه مزار) في أريحا والذي وصف بأنه من بين السكان الذين أوجدوا القبور ذات العتبات في مجدو، ظهر لدينا جماعة أكثر سفسطائية من أي جماعة أخرى في مكان آخر. وهذه الجماعة تمتاز بتقدمها في فن البناء والمتعلق بحفر القبور، وفوق هذا فقد ظهر أنهم وفدوا من منطقة متمدنة نسبياً كانت متطورة في فن البناء.

ولكن مجدو بشكل عام كانت شيئاً نادراً هنا. ففي أمكنة أخرى وجد لدينا صور واضحة عن شعوب عديدة لم تكن تهتم بحياة المدن. وكانت في الواقع شعوباً رعاة لا تتعاطى الزراعة، وربما كان الكثير من مساكنهم من الخيام أو الملاجئ المنتشرة على جوانب التل، وبذلك فقد تركت القليل من الآثار باستثناء كسر القدور الخزفية، وقد تمثل المقابر الكثيفة أراضي مدافن القبيلة حيث كان الموتى يجلبون إليها من منطقة واسعة نسبياً. وهذه العملية التي هي من أثر أيام البداوة بكل ما في الكلمة من معنى، قد ظنت من قبل أنها تفسير لمادة دفن بقايا عظام الهياكل. والاختلافات الجديرة بالملاحظة بين الحالة الاجتماعية وبين عمليات الدفن التي قامت بها الجماعات التي

مر وصمها تبين بأنه لم يكن هناك ثقافة متسقة، وإن وجد تشابه واسع مماثل على أية حال من ثقافة العصر السابق والعصر اللاحق، وأن الجماعات بقيت منفصلة وقبلية في حياتها الاجتماعية.

ومن الصعب التثبت من تاريخ ابتداء أو انتهاء العصر بالضبط، ولكن العصر السائد كان واضحاً. وقد بين البروفيسور البرايت Albright أن شكل الكأس أو الكوب المختصر واللذين دعاهما (بشكل الزهرة) كانا موجودين في سوريا في القرون الأخيرة للألف الثالثة، كما كان شكل الزخرفة المتضمن الخطوط المستقيمة والمتموجة، وأشارت أباريق (الشاي) المستوردة والتي وجدت في مجدو إلى نفس هذا التاريخ. ووجد دبوس عقده ذو رأس منتفخ أو هراوي مرافقاً لبقايا إحدى مجموعات السكان في مجدو. وهذا النوع من الدبابيس وجد في رأس شمرا وفي قبور عصر أوغاريت المتوسط الأول مرافقاً للكوب ذي الشكل المختصر الجوانب ومزخرف بخطوط محززة مستقيمة ومتموجة، ومن ثم رأس فأس مثقوب من نفس النوع الذي ذكر (من قبل). وقد بين اسكافر Schaffer بأن نوع الدبوس كان منتشراً جداً ومرافقاً في تلك المنطقة لجماعة خبيرة في صناعة المعادن. وفي رأس شمرا وجدت القبور في حفرة تحت هيكل هناك، وكان هذا الهيكل من الأهمية بمكان لأن يتسلم التقدمات من الأسرة الثانية عشرة في مصر في القرن العشرين ق.م. وقد جرى التعرف على التاريخ النهائي لها في شمال سوريا وهو ٢٠٠٠ ق.م. ووجد نوعان آخران من الدبابيس في مجدو يعودان إلى السكان أصحاب القبور ذات العتبات. وهذان هما دبوس العقدة ذو الرأس الشبيه بالفطر والدبوس ذو الرأس المنحني، وكما ذكر من قبل فهذه الأنواع لها مثيلات بالضبط في (براك) ومرافقة لطبقة تعود إلى ٢٢٠٠ ق.م.

وهكذا استقبلت فلسطين جماعات عظيمة من البدو الغزاة في القرون الأخيرة من الألف الثانية والتي طمست تماماً حضارة المدن السابقة (المتقدمة) في العصر

البرونزي القديم، وعانت مصر نفس هذا المصير كذلك. فقد انتهت الأسرة السادسة في مصر سنة ٢٢٩٤ق.م. وقد غزا البرابرة مصر وكان بعضهم من الآسيويين، ولم تتمكن مصر من استعادة أوضاعها السليمة إلا بعد أن توحدت مرة أخرى في زمن الأسرة الثانية عشرة سنة ١٩٩٠ ق.م.

ومن المرجح جداً أن فلسطين كما يبدو قد تأثرت بتحركات البرابرة في مصر: إذ لم يكن قبل ذلك، لأن أية جماعة اسيوية تصل إلى مصر لا بد وأن تمر عبر فلسطين. ولهذا السبب فيبدو محتملاً أن فترة ما بين العصر البرونزي القديم المتوسط والعصر البرونزي الأوسط في فلسطين قد بدأت سنة ٢٣٠٠ ق.م. وتوافقت في الزمن كما هو في الواقع مع العصر المتوسط الأول في مصر. وكما شاهدنا فقد أعطي لمرحلة متأخرة في عصر E.B.111 القديم تاريخاً هو ٢٦٠٠ ق.م. ومن الصعب تمديد أي عصر من عصور الانحطاط حتى ولو لثلاثمائة سنة. ولذلك فيبدو أنه تاريخ أدنى لابتداء العصر التالي.

وسقطت الحضارة السومرية القديمة العهد حوالي نهاية الألف الثالثة. وفي هذه الحالة عرفت عوامل هذا الهدم. وهذا يقدم الدليل في فلسطين. أما هذه العوامل فكانت العموريين الوافدين من أطراف الهلال الخصيب الشبه قاحلة، و لذين كانوا مسؤولين عن الحيشان (الاضطراب) في شمال سوريا والعراق. ودونت أسفار العدد وأسفار يشوع في التوراة على انه في الوقت الذي دخل فيه الإسرائيليون إلى فلسطين كان العموريون المقيمون في هضبة البلاد بينما كان الكنعانيون في الساحل وفي السهول (العدد الإصحاح ١٣، ٢٩) (يشوع الإصحاح ١٠، ٦) وأتى الشاهد على وجودهم المبكر في فلسطين من النصوص المصرية. ومن المحتمل جداً أن هذه النصوص قد ترجع في تاريخها إلى السلالة الحادية عشرة التي وجدت في القرن الواحد والعشرين ق.م. عندما بدأت مصر في استعادة قوتها، والتي أدت إلى قيام الإمبراطورية الوسطى في

زمن حكم السلالة الثانية عشرة. وقد وصفت في هذه النصوص عدد من الأماكن الآسيوية على أنها مقر للتمرد.

ومن الصعب أن تكون هذه الأماكن قد تمردت في الواقع ما دامت لم تنفصل عن السيطرة المذكورة؛ إذ إن أي سيطرة مثل هذه قد اختفت منذ عدة قرون من قبل، ولكنها كانت على الأرجح تعارض اتساع النفوذ المصري. ويمكن التعرف على بعض الأماكن التي اتهمت بالتمرد كبابل مثلاً، ولكن أكثرها كان غامضاً. فبعض هذه الأماكن كان لها رئيس واحد وبعضها الآخر رئيسان أو ثلاثة. وهناك دليل واه بين أن مدن الساحل كان لها رئيس واحد وكذلك هيئة مركزية، أما في الأماكن الداخلية فكان لها عدة هيئات وهيئة تحكيمية. ويعتقد البريت أن أسماء الأماكن وأسماء رؤسائها في الشكل العموري من اللغة السامية، وأن السبب في عدم التعرف على الأماكن يعود إلى أنها كانت على الأرجح أسماء مقاطعات أكثر منها أسماء مدن، والتي أصبحت معروفة في التاريخ فيما بعد. وهذا الاستنتاج يقوم في الواقع على شاهد ضئيل في النصوص نفسها، ولكن الشاهد العلمي الأثري الذي تراكم منذ أن كتب البرايت ذلك ظهر أنه يمثل نفس هذه الصورة.

وكانت نهاية العصر البرونزي القديم المتوسط والعصر البرونزي الأوسط واضحة المعالم مثل ابتدائه، ويبدو هنا أن العموريين لم يقدموا شيئاً بشكل جوهري إلى العصر التالي. فثقافة العصر البرونزي المتوسط العالية وان حصرت في حياة المدن، فقد بدت على أنها قد غمرت وامتصت ثقافة الجماعات البدائية التي وجدت في المنطقة بفعل الموجة الأولى من الوافدين الذين اصطحبوا معهم الثقافة الجديدة. وقد أوضح الشاهد اللغوي والأدبي على أن العموريين بقوا جنباً إلى جنب على الجماعات الجديدة الذين تعرفهم إلى حد بعيد بالكنعانية. وبإمكاننا أن نستنتج أنهم بقوا رعاة، وذلك من تجمعهم في هضبة البلاد بينما احتل الكنعانيون الأرض الزراعية الأكثر صلاحية. ولا بد أنهم قد تخلوا عن عاداتهم في الدفن وعن أشكال فخارهم المميز،

وهذه العملية قابلة للمقارنة مع عملية استيلاء الرومان على بريطانيا في العصر الحديدي، أو استيلاء النورمانديين على إنكلترا زمن السكسون. وقد فرضت أقلية من السكان هنا ثقافتها العالية على الشعوب المتخلفة التي وجدتها في موقع الاحتلال. ويمكن إظهار الصلات بين الوافدين الجدد مع مدن الفينيقيين الساحلية بوضوح، وفي بابل وأماكن أخرى فمن الإمكان إظهار الثقافة المترابطة مع تاريخ الأسرة الثانية عشرة في مصر. وبناء عليه لم تدخل ثقافة العصر البرونزي المتوسط فلسطين قبل القرن العشرين ق.م. وإلى أي مدى حدث هذا قديماً من الصعب بيانه، ولكن تاريخياً تقليدياً هو ١٩٠٠ ق.م. من المستبعد أن يحوي شيئاً من الخطأ أكثر من خمسين عاماً على كلا الحالين.

الفصل السابع

عصر البرونز المتوسط والهكسوس

بدأت الفترة الثانية من العصر البرونزي المتوسط بظهور جماعة جديدة من الناس تماماً كما حدث في مطلع الفترة الأولى من العصر نفسه، ويدل على ذلك دلالة واضحة ظهور نوع جديد من الفخار إلى جانب أسلحة جديدة وعادات وطرق دفن جديدة، وقد رافق ذلك انتعاش وازدهار في حياة المدن. كانت هذه الجماعة على نقيض الجماعة التي سبقتها، لأنها أتت من بلاد تسودها حضارة متقدمة، ذات صلات وثيقة بالمدن الفينيقية الساحلية وبالمناطق السورية الداخلية التي كان يسودها الهدوء والاستقرار، ولكن هذه الصلات سرعان ما أخذت عراها تنفصم عندما أخذت حضارة العصر البرونزي المتوسط بالتقدم والازدهار في فلسطين. أما الصلات التي توطدت مع فينقيا الكنعانية حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م، فقد بقيت على سابق عهدها. وقد دل الفخار الذي اكتشف في فلسطين على أن الحضارة الأساسية في المنطقة نمت وازدهرت في منطقة تمتد من رأس شمرا في الشمال حتى أطراف صحراء فلسطين في الجنوب وقد قدر لهذه الحضارة التي دخلت فلسطين مع القادمين الجدد أن تعيش وتبقى لأمد طويل جداً. فبالرغم من حدوث حوادث ذات أهمية سياسية كبرى احتاحت المنطقة بالفعل إلا أن تلك الحضارة لم يصبها أي سوء أو تصدع حتى حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م.

لقد تركت تلك الحوادث السياسية أثراً واضحاً جلياً على الحقل الأدبي، والدليل على ذلك كون هذه الفترة قد دخلت ضمن عصور التاريخ المدونة، وأصبح تاريخها

المدون يدعم الحقائق التاريخية التي يبرزها علم الآثار. إن التاريخ المدون في هذه الفترة لا يستطيع أن يحل كلية مكان علم الآثار بأية حال من الأحوال.

دلت الآثار التي اكتشفت على تقدم هام في الصناعة (الفنون وخاصة صناعة الفخار) كما دلت أيضاً على أن مدن هذه الفترة قد تعرضت لسلسلة من الخراب والدمار. ولكن بعودة الأمن والطمأنينة سرعان ما استأنفت الحضارة القديمة تقدمها وازدهارها. وقد تركت هذه الفترة أثراً واضحاً في تاريخ فلسطين نستطيع تتبعه في سفر التكوين أحد أسفار التوراة. وقد حكم خلال هذه الفترة بطارقة الحوثيين الرحل قسماً من فلسطين التي استقر فيها أحفادهم فيما بعد.

وجد أوائل الإسرائيليين الحضارة الكنعانية تسود البلاد. وسرعان ما اعتنقوها وفي زمن الممالك العبرانية قام صراع عنيف بين المصلحين من الملوك والأنبياء من جهة وبين المظاهر الجديدة التي اقتبسها العبرانيون عن غيرهم من جهة أخرى.

إن الفخار الحديد الذي ظهر في فلسطين يختلف اختلافاً عظيماً جداً عن فخار الفترة السابقة، وقد تم صنع هذا النوع الجديد في فلسطين ذاتها ولأول مرة في تاريخها على دولاب يدور بسرعة. كانت الأواني الفخارية منذ فترة الحضارة الأولى تصنع على دولاب بطيء الدوران، ففي الفترة البرونزية الأولى كانت حواف الأواني الفخارية تصنع على دولاب ذي مقدرة وسرعة خاصة. بينما كانت أجسام تلك الأواني تصنع باليد. أما الأواني الجديدة فقد صنعت جميعها وطوال العصور التاريخية الفلسطينية على دواليب سريعة. عدا ما كان يصنع منها للطبخ أو لاستعمالات غير هامة. لقد اختفت الجرار القديمة ذات القاعدة المنبسطة والأيدي المحيطة بها وحل محلها كلية نموذج جديد من الجرار ذات القواعد الدقيقة والأيدي الشبيهة بأنشوطة الحبل. وظهرت الأواني ذات الأشكال الحادة الزوايا والكؤوس ذات اليد الواحدة الطويلة الأعناق والأفواه الضيقة. وجميع هذه كانت في الحقيقة أنواعاً جديدة من

الفخار. ولا يستطيع المرء أن يتتبع تطور أي شكل منها من مرحلة إلى أخرى. وقد ادعى البعض أن معظم الأواني لبينية وخاصة أواني الطبخ ذات القواعد المنبسطة والجدران القائمة والأحزمة المحيطة بها والثقوب التي تلي حوافها ترجع في أصلها إلى الفترة البرونزية الأولى. ولكن لا يوجد أي دليل واضح على صحة ذلك. أما الدليل الذي يدحض هذا الادعاء كلية فهو أن هذه الأواني الفخارية بأشكالها المختلفة لم تظهر إلا في هذه الفترة فقط. ومن مميزاتها الأخرى أن الأواني والكؤوس كانت تغطى جميعها عادة بخطوط حمراء قانية ذات بريق ولمعان. كما كانت جميعها تصنع على الدواليب، حتى تلك الأواني التي كانت تغطى بالخطوط الحمراء القانية وذات البريق واللمعان.

لقد أوحى هذا النوع من الفخار الأحمر المصقول، وكذلك الأوعية ذات الأشكال الحادة الزوايا بصنع أوعية معدنية من نفس الطراز، ولكن لم يعثر على أي نموذج للأوعية المعدنية في فلسطين.

ولكن ليس هذا بغريب، لأن مثل هذه الأوعية المعدنية هش سريع الكسر والتآكل في التراب. وقد وجد في جبيل وعاء من الفضة بهذا الوصف: وجد مدفوناً في جرة من الفخار مع كمية من الأختام الفخارية يستدل منها على أن هذا النموذج من الأواني المعدنية بدأ استعماله في بابل خلال الفترة البرونزية الأولى والثانية.

وفي هذا إشارة هامة لتاريخ التطور الجديد في فلسطين، وللجهة أيضاً التي جاء منها الشعب الجديد. فآثار جبيل تقدم لنا الدليل الواضح على تاريخ هذا التطور. إذ في الفترة التي استؤنف فيها التقدم والازدهار في مصر زمن السلالة الثانية عشرة عادت العلاقات إلى سابق عهدها بين هذا المرفأ السوري الهام وبين مصر وأصبح زعماء جبيل خاضعين لمصر. ونتيجة لذلك يمكن الوصول بدقة إلى تواريخ القبور الملكية في جبيل، وذلك عن طريق أشياء وأدوات مصرية. ففي قبور عصر أمنحتب

الثالث والرابع (لنصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد) وجد فخار يشبه تماماً الفخار الجديد الذي ظهر في فلسطين، كما وجد نفس النوع أيضاً في عدد من الموانئ الساحلية السورية. وهذا يدل دلالة واضحة على أن قسماً على الأقل من سكان فلسطين الجدد قد أتى من هذه المنطقة.

لقد جلبت الجماعات الجديدة معها حضارات أخرى جديدة بالإضافة إلى دولاب الخزف كان أهمها استعمال البرونز في صناعة الأسلحة. وأما إيجاد دلائل أكيدة تدل على بدء استعمال البرونز فليست من السهولة بمكان، وذلك بسبب افتقارنا إلى تحليل تطور استعمال هذا المعدن. أما في مجدو فقد استقصيت المسألة بدقة ونظام، وظهر بوضوح أن البرونز استعمل لأول مرة بين تلك الجماعات التي استعملت هذا النوع الجديد من الفخار. بالإضافة إلى أن الأسلحة تحمل طابعاً خاصاً وليس مستورداً من أية جهة ما. فالخناجر كانت قصيرة وعريضة وذات مقبض قصير مصفح ومبرشم، وكان يظهر على نصاله الخطوط البارزة. أما رؤوس الحراب فكانت جوانبها ضيقة ومتوازية ذات ثقوب للسهام وذات خطوط بارزة لتثبيت الرأس بالسهم. أما الحراب فكانت مجوفة. ولكن رؤوس السهام المعدنية لم يعثر لها على أثر، وربما لأن البرونز كان حتى ذلك الوقت معدناً غالياً جداً فلا يمكن استعماله في أمور كهذه.

وجدت هذه الأنواع من الأسلحة في أماكن متعددة من فلسطين في مثل هذه الفترة مثل مجدو، وأريحا، وتل العجول، وجارر. ويمكننا من هذه الناحية أيضاً أن نتتبع نفس العملية في سوريا.

إن أماكن العصر البرونزي المتوسط الأول تدلنا بمساعدة ما وجد فيها من فخار على مدى التلاحم الوثيق الذي كان قائماً بين الساحل السوري وجنوب فلسطين، ففي تل العجول مثلاً وجد فخار شبيه بالفخار السابق الوصف في عدد من القبور التي وجدت ضمن منطقة المدينة التي تلت هذه الفترة. وقد أطلق بيتري على تلك

القبور اسم (مقبرة الساحة) Courtyard Cemetry لأنها تقع تماماً تحت فناء بناء ضخم دعاه بيتري القصر. لكن في الحقيقة كانت تلك القبور أقدم من ساحة البناء، لأننا لا نزال نجهل كم كانت مساحة موقع المدينة. لقد كان هنالك دون شك مدينة متحضرة على تل بيت مرسيم، فالطبقتان G. F تنسبان إلى هذه الفترة. وقد تمت إزالة قسم كبير من أنقاض مدينة هذه الفترة، ولكن بالرغم من أن الأبنية اللاحقة قد شوهت معالمها إلا أنه بقي منها ما يكفي ليدل على نظام هندستها ودقة بنيانها. لقد كانت المدينة محاطة بسور عرضه عشرة أقدام تعلوه أبراج على مسافات متساوية. أما البيوت فقد بنيت تماماً خلف جدران الأسوار، وقد بقي أحدها سليماً تماماً ليعطينا فكرة واضحة عن مساكن هذه الفترة.

يتألف هذا البيت من قاعدة كبيرة ذات سقف يستند على صف من الأعمدة، ويوجد حول القاعدة عدد من الغرف الصغيرة تؤدي أبوابها إلى القاعة نفسها. وكما يبدو حدث هنالك في العصر البرونزي المتوسط الأول خراب عظيم، لأن القسم الداخلي من أبنية الطبقة G أعيد بناؤه كلية على الطبقة F كما ازداد سمك أسوار المدينة ومتانتها.

لقد وجد نفس الفخار السالف الذكر في رأس العين في أواسط فلسطين، وكما مر سابقاً لم يكن ذلك نتيجة حفريات أثرية منظمة، لذا لم تدر حوله أية قصة تربطه بشيء ما، ولكن كما يبدو (لم يتضح ذلك بعد) أن بعض الفخار قد وجد في الطبقات التي تقع في مكان المدينة بينما وجد فخار آخر في القبور التي تبعد كثيراً عن موقع المدينة.

لقد كانت تلك القبور من النوع غير المألوف في فلسطين؛ إذ كانت تتكون من حفرة قائمة الزوايا مبطنة جوانبها الطويلة بجدران من الحجر ومغطاة بصفائح حجرية، وقد وجد في جدران ثلاثة منها (كان الرابع منها قبر طفل) تجاويف تحوي كما

يطن عظام جثث سابقة. وكما يبدو أن تلك القبور حفرت لتكون أصلاً قبراً لدفن جثة واحدة لا لدفن عدد من الجثث، كما أصبحت الحال في المراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط. كانت الجثث توضع فيها بشكل منحنٍ وبتوجيه الرأس جهة الشرق، وكان يدفن معها بعض الأسلحة البرونزية كالحربة أو الخنجر، كما يوضع في كل قبر منها عدد من الأواني الفخارية التي كان بعضها يشبه أواني العصر البرونزي المتوسط الأول التي وجدت في تل بيت مرسيم وتل العجول، بينما البعض الآخر لم يكن له شبيه في تلك الأماكن السالفة الذكر. وكان من بين تلك الأواني جرار كروية مستديرة الفوهة عديمة الأيدي، كان بعضها يخلو من أية زخارف بينما البعض الآخر يزدان بدوائر حمراء أو بنية اللون. إن هذا النوع من الأواني خاص بالمنطقة الداخلية ولا علاقة له بالساحل السوري. لذا يظن أن بعض القادمين الجدد قد أتوا من تلك المنطقة. وقد وجد شبيه بتلك الجرار في مجدو وكان بينها الأواني المتعددة الزوايا والقدور الجؤجؤية الشكل والأباريق ذات الأعناق الطويلة. وكانت جميعها مصقولة صقلاً جيداً تعلوها خطوط حمراء كتلك التي وجدت في الأماكن السالفة الذكر، ولكن موجودات مجدو كانت أكثر رونقاً وأدق صنعاً.

يمتاز فخار مجدو بالأواني الواسعة ذات الحواف السميكة التي تحيط بها دائرة من الطلاء الأحمر، وتمتاز بالجرار ذات الأعناق الضيقة المائلة والأيدي المتعددة وبالأباريق ذات الأعناق الطويلة المزدانة بالخطوط الحمراء أو الحمراء والسوداء. ولم يعثر على شبيه لهذه الأواني في أي مكان من فلسطين، ولا يزال أصلها غير معروف.

وجد القسم الأعظم من هذه الأواني في مقابر مجدو. وفي حالتين منها وجدت الأواني في قبور تمدد استعمالها في العصور البرونزية الأولى والمتوسطة. أما معظمها فقد وجد في قبور بسيطة فوق التل، ولكن لسوء الحظ اختلط الفخار الذي وجد على سطح التل بذلك الذي وجد داخل القبور التي حفرت في التل نفسه.

وبإرجاع كل إلى أصله أمكننا أن نستنتج أن بينها ما يقرب من خمسين قطعة ترجع في أصلها إلى فترة المنطقة B.B ومن الصعب أن نؤكد فيما إذا كان أحد الأبنية التي نشرت خرائطها يرجع في تاريخه إلى هذه الفترة. وكما يبدو كانت المقابر تنتشر فوق المنطقة بأسرها تقريباً، ولكن يتضح لنا أنه حدث في المراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط في مجدو أن اختلطت البيوت بالمقابر. لذا فمن الممكن أن تكون بعض أجزاء بقايا الجدران التي تظهر على خارطة الطبقة ١٣ هي من بقايا هذه الفترة.

أما أريحا فقد تطورت مدنيتها تطوراً بطيئاً في مطلع العصر البرونزي المتوسط ولم يعثر في مقابرها الرئيسية على قبور ترجع لهذه الفترة. والشيء الوحيد الذي وجد على الجانب الشرقي من التل هو قبر بني بالآجر، وله جدران من اللبن وسقف يعلوه، ولكن لم يبق سوى القليل من هذا القبر ومدخله. وقد وجدت فيه بقايا ما يقرب من اثنتي عشرة جثة، كانت القديمة منها مبعثرة هنا وهناك لتفسح المجال للتي تليها. وقد حوى القبر على جثتين ترقدان على الجانب الأيسر في وضع منحنٍ.

أما فخار هذا القبر فيشبه فخار المواقع الجنوبية بينما لا يشبه فخار مجدو في شيء. وهنا أيضاً في أريحا يصعب علينا تحديد المساحة التي كانت تشملها المدينة؛ إذ لم يبق نسبياً سوى مساحة صغيرة من مدينة من مدن العصر البرونزي المتوسط تبحث عما حاق بها من خراب. وقد تم حفر قسم بسيط من هذه المساحة إلى مستوى العصر البرونزي المتوسط الأول. وللمرة الثانية لا نستطيع أن نجزم القول بأن الأبنية كانت في جهة من المدينة بينما القبور كانت في جهة أخرى.

والصورة العامة التي تبدو لنا تشير إلى أن المدينة كانت تشغل مساحة صغيرة في المراحل الأولى، فلو كانت هناك مدن من طراز مدن العصر البرونزي المتوسط الثاني لعثر عليها دون شك، ولكن يبدو أن القادمين الجدد قد استقروا فوق بعض مواقع

المدن القديمة وأخذوا يبنون بيوتهم فوقها. ويبدو أنهم لم يحتاجوا لكل مساحة المدينة القديمة لهذا الغرض فجعلوا قسماً منها لدفن موتاهم، وربما كان ذلك لرغبتهم في جعل قبورهم قريبة من مساكنهم ليتجنبوا تدنيسها في أرض غريبة.

إن معظم آثار هذه الفترة تشير نسبياً إلى أن هذه الفترة لم تكن طويلة الأجل. وكما ذكرنا في فصل سابق يصعب علينا تحديد دقيق لتاريخ بداية العصر البرونزي المتوسط، فلربما كان بدأه في مكان ما بين ١٩٥٠-١٨٥٠ ق.م. أما التاريخ المقترح الذي هو ١٩٠٠ ق.م. فقد أعطي فقط لأنه وسط بين التاريخين السابقين. ووجود فخار في قبور جبيل شبيهة بمخلفات فترة الأسرة الثانية عشرة في مصر يدل دلالة عامة على هذا التاريخ. ففي جبيل يبدو أن هذا النوع من الفخار استمر استعماله حتى نهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية الثالثة عشرة؛ أو بعبارة أخرى حتى بداية القرن الثامن عشر ق.م.

أما في فلسطين فليس من المحتمل أن يتأخر العصر البرونزي المتوسط حتى هذا التاريخ؛ أي حتى قبل تطور الحضارة الفلسطينية في العصر البرونزي المتوسط الثاني، وخاصة عندما تطور الفخار وأصبح ذا طابع خاص به. فإذا اعتبرنا أن هذا الانتقال تم سنة ١٨٠٠ ق.م. نكون قد أوقعنا ضغطاً عظيماً على الأدوات الأخيرة التي وجدت في العصر البرونزي المتوسط الثاني والتي تحمل طابع التطور في جميع مراحل هذا العصر. كما نكون قد أفردنا مجالاً واسعاً لأدوات العصر البرونزي المتوسط الأول القليلة. لذا كان اعتبار سنة ١٨٥٠ ق.م. تاريخاً لبداية العصر البرونزي المتوسط الثاني أصح وأدق. وكما سنرى نجد أن نهايته تتفق مع عودة الإمبراطورية المصرية زمن الأسرة الثامنة عشرة؛ أي في مطلع القرن السادس عشر ق.م. أما الفترة التي توسطت العصرين فيصعب علينا إعطاؤها تاريخاً محدداً. فالفخار وغيره من الآثار جميعاً تشير إلى صفات وأشكال تمت في مراحل مختلفة. وإعطاء تاريخ لهذه المراحل

محدد بالسنوات يكون أيضاً من قبيل الحدس والخيال. ففي قبور أريحا نجد خمسة مجاميع من الفخار والمخلفات الأثرية الأخرى كل منها يتميز بطابعه الخاص، ومثله أيضاً المخلفات الأثرية التي وجدت في قبور مجدو، وتل الفارعة، وتل دوير. وتتبين لنا الرسوم النافرة المتميزه بصفات خاصة والتي تشير إليها هنا بالمراحل ١، ٣، ٥ من العصر البرونزي المتوسط الثاني.

أما مميزات المراحل المتتالية فيمكن تلخيصها باختصار كما يلي:

إن فخار المرحلة الأولى قريب في صفاته من فخار العصر البرونزي المتوسط الأول، وعنه تطور رأس فخار هذه المرحلة. ففي مجدو عثرنا على مجموعة من القبور يشير محارها إلى حقيقة هذا التطور والاختلاف الرئيسي بين النوعين هو عدم استعمال الخطوط الزاهية الحمراء في الزينة كما أن الأواني المنتفخة أصبحت جدرانها أكثر اعتدالاً، وكذلك الأباريق الطويلة الأعناق أصبحت أقل انتفاخاً وأصبح لها قواعد دقيقة بدل القواعد الصغيرة المنبسطة. وقد تميزت إحدى هذه الأواني الصغيرة بأن كان لها جسم مستدير وعنق منحنٍ وقصير كما كانت مصقولة صقلاً جيداً وذات لون أصفر يميل إلى البياض.

كانت الأواني الكبيرة ذات الأعناق المستقيمة شائعة أيضاً وكان منها الأبريق ذو الشكل الكمثري الذي كان يستعمل غالباً للزيت. ففي الآثار القديمة كان لهذا الإبريق قاعدة صغيرة تشبه الخاتم، أما القاعدة الشبيهة بالزر فقد وجدت ضمن مجموعات الفترة الأولى في أريحا يتفق في هذا الشكل الإبريق الأسطواني الذي شاع وجوده ضمن آثار العصر البرونزي المتوسط الأول، ولكنه لم يستعمل فعلاً في فلسطين إلا في الفترة الثالثة. وقد ورد ذكره عرضاً كمثال خاص في الفترتين الأولى والثانية بالرغم من أنه ليس خاص بهما. أما المزهريات ذات القواعد (والأواني المصقولة البراقة فلم يعثر لها على أثر. كما لم يعثر أيضاً على المصابيح ذات المميزات الخاصة بين مخلفات

هذه الفترة في أريحا. ويبدو ان قواعد بعض الأواني التي كسرت قد استعملت مرة ثانية.

أما في الفترة الثانية فقد استمر في التطور معظم مميزات وأشكال الفترة الأولى، وقد أضيف إليها الأواني المصقولة والمزهريات ذات القواعد. وفي هذه الفترة لم يكن للأواني نطاق حول أعناقها كما كانت تخلو من القواعد أيضاً.

أما الأسرجة الحقيقية التي هي عبارة عن الصحون المستديرة ذات الخراطيم الضيقة قليلاً والتي تعتبر أصل الأسرجة التي استمر استعمالها حتى النصف الثاني من الألف الأول ق.م. فقد ظهرت عندما شاع استعمال المصباح الهليني المغلق.

كما انتقلت معظم هذه الأشكال القديمة إلى المرحلة الثالثة. وفي هذه الفترة شاع استعمال الأباريق الأسطوانية بكثرة بالرغم من أن الأباريق الكمثرية ما زالت هي السائدة. أما المزهريات ذات القواعد فكان منها المنطق بالخطوط وغير المنطق. وحتى هذه المرحلة كانت جميع الدبابيس ذات رؤوس مسطحة بسيطة تقع فوق ثقوبها، ولكن بدأت تظهر أنواع جديدة منها برؤوس مزخرفة.

وبحلول الفترة الرابعة كانت معظم الأشكال السابقة قد اختفت ولم يعد هنالك أي أثر للأواني الصغيرة المستديرة أو للأواني الكبيرة ذات الأعناق، ولكن بقي هنالك بعض الأباريق الكمثرية الشكل ذات القواعد المتطورة الشبيهة بالأزرار. أما الأباريق الأسطوانية فكانت هي الشائعة. وفي هذه المرحلة ظهرت لأول مرة الزجاجات والقماقم الخزفية.

أما في الفترة الخامسة لم تظهر سوى مميزات الفترة الرابعة؛ إذ اختفت تماماً الأباريق الكمثرية وازداد الميل نحو استعمال الأواني المصقولة البراقة والمزهريات ذات القواعد. كما شاع استعمال الأواني العميقة ذات الشكل النصف كروي. وأصبح معظم الدبابيس ذات رؤوس مزخرفة.

وتعتبر معظم هذه المميزات ذات أهمية تاريخية كبرى، ولكن الحجج والبراهين التي حصلنا عليها من قبور أريحا مكنتنا من أن نحدد هذه الصفات والمميزات بدقة أكثر، كما أن الدراسات العميقة المستمرة سيكون باستطاعتها دون شك أن تزيد في دقة هذا التحديد.

أظهرت مدن فلسطين في العصر البرونزي المتوسط الثاني تقدماً عظيماً كما أثبتت ذلك شواهد عديدة في التاريخ. وقد أثبتت الحفريات أن كل مدينة قد أعيد بناؤها عدة مرات في نفس هذه الفترة، مما يدل على أن الخراب والدمار قد أحاق بها عدة مرات أيضاً. وقد جرت معظم الحفريات عن هذه المدن قبل تطور علم دراسة الفخار. لذا لم يكن باستطاعتنا انذاك سوى وضع تتابع الحوادث التاريخية ضمن إطار عام فقط.

أما ما يتعلق بتاريخ مدينة أريحا بالذات فإن ما وجد فيها من آثار لم تتم دراسته دراسة وافية، ولكن باستطاعتنا وضع خطوط عريضة لمجريات الحوادث التاريخية التي حدثت في هذه المنطقة المحدودة التي تم فيها الحفر.

تشير الحفريات إلى أن مدينة العصر البرونزي المتوسط كانت تقوم فقط في الجهة الشرقية من التل. كما تشير أيضاً إلى أنه كان للمدينة في هذه الفترة طريق منحدر يؤدي إلى ينبوع الماء. وقد تم حفر جزء بسيط في هذه المنطقة إلى مستوى قاعدة العصر البرونزي المتوسط. وترينا حفريات هذا الجزء أنه كان لمدينة سور من الآجر سمكه حوالي مترين يحيط بنهاية أطراف التل الحالي. والطريق الحديثة تقطع هذا السور في بعض أجزائه. وقد كان السور بطبيعته يشبه أسوار مدن العصور البرونزية الأولى. ومن المؤكد أيضاً أن القادمين الجدد قد جلبوا معهم هذا الأسلوب الدفاعي من الشمال. ومن المؤكد أيضاً أن بوابة السور تقع في أقصى الطرف الجنوبي من المنطقة التي تم حفرها، والدليل على ذلك العثور على بناء ضخم يرجح أنه كان

برجاً لحماية مدخل الممر المؤدي للمدينة. ويقع هذا البناء في المنطقة التي تم رفع الأنقاض عنها.

أما في داخل المدينة فتأخذ الأبنية في تسلق التل على شكل أدراج شبيهة بالحدائق المعلقة في بابل. وربما كانت البنايات التي تلي الأسوار مباشرة مراكز للمدافعين عن المدينة أو أماكن تخزين. ويبدو على الأسوار أن بناءها قد تم في مراحل ثلاث، كما يبدو أن هنالك بعض التعقيدات في بناء عدد من البنايات الداخلية.

أما الفخار المستخرج فلم تجر عليه حتى الآن دراسات ومقارنات تفصيلية مع الفخار الذي استخرج من القبور، ولكن من المحتمل جداً أن يشمل فخار هذه المرحلة من تاريخ المدينة الفترات التاريخية من ١-٣.

أما بالنسبة إلى تل بيت مرسيم فمن المحتمل أن ترجع الطبقة E إلى نفس هذه الفترة. وتشير الشظايا والقطع الصغيرة المتبقية من هذه الفترة إلى أنه كان هنالك مخطط واسع للمدينة، وقد استطعنا تحديد خارطة تبين فقط تحديداً دقيقاً كلاهما كان بيتاً هاماً يتكون من قاعة رئيسية يقوم سقفها على صف من الأعمدة أقيم في وسطها (وجد أقدم نموذج من هذا الطراز في العصر البرونزي الأول). وقد بنيت على جوانب القاعة عدة غرف صغيرة.

أما فخار هذه الفترة ففريد في جماله حيث كانت جميع الأواني الممتازة مدهونة بطلاء آية في الرونق واللمعان.

لقد بني سور المدينة أثناء الحياة على الطبقة E فوق الفخار المبعثر في معظم أرجائها. وقد كان هذا الفخار من نوع فخار الطبقة E نفسها. ولما كان هذا النوع من الفخار الذي سيلي وصفه عند الحديث عن الفترة التالية من تاريخ فلسطين لذا يمكننا القول إن الطبقة E قد امتدت حتى تلك الفترة.

أما في مجدو فقد صادفتنا تعقيدات متتالية بالنسبة للفترات العمرانية صعب علينا جداً التغلب عليها بسبب عدم التأكد من الترتيب الطبقي للأرض. وأول هذه التعقيدات هو سور جميل جداً للمدينة يدخل ضمن المنطقة AA ويتصل بمدخل رئيسي يؤدي إلى رصيف منحدر يسير مصعداً وموازياً لجدران السور حتى يصل إلى باب رئيسي يؤدي إلى بناء ضخم. وفي هذا الباب منعطف قائم الزاوية يؤدي إلى الباب الداخلي. يمتاز هذا السور بعدد من الفجوات القريبة الغور، وهذا النوع هو أحسن مثال على أسوار مدن هذه الفترة. وتدل الشواهد في منطقة AA على أن هذا السور يرجع إلى نهاية العصر البرونزي المتوسط الأول. أما منطقة BB فتدل شواهدها على أنه أحدث من ذلك: إذ ربما يرجع بناؤه حسب شواهد هذه المنطقة إلى الفترة الثانية من العصر البرونزي المتوسط الثاني.

أما هندسة بيوت المنطقتين فهي غير واضحة المعالم لتعطي فكرة واضحة عن بيوت العصر البرونزي المتوسط، ولكنها تشير إلى تعاقب الأبنية بعضها فوق بعض.

ويمكننا أن نعتبر هذه الفترة على أنها تمثل التطور التام في حضارة فلسطين الكنعانية: أي حضارة الممالك المدينية المزدهرة. وقد حدث خلالها حدث هام آخر يتمثل بأسلوب الدفاع الذي يختلف كلية عن غيره من الأساليب، فهو يختلف عن طراز الأسوار الفردية التي استعملت في المراحل الأولى من العصر البرونزي المتوسط، وعن تلك التي استعملت في العصر البرونزي القديم - وتبدو هذه الظاهرة جلية واضحة في أريحا، حيث نرى في الجهة الغربية من التل أسواراً كانت تقوم خلال العصر البرونزي القديم ثم تعاقبت الأسوار التي كانت تكلل سطح التل.

وعندما كانت تبنى الأسوار اللاحقة كانت طبقات أنقاضها المتداعية ترفع منسوب ارتفاع التل تدريجياً مع بقاء زاوية انحدار التل على ما هي عليه تقريباً: أي بانحدار

يساوي ٢٥ درجة تقريباً. وهو انحدار كافٍ لاستقرار الأنقاض. أما في المراحل التالية فقد ازدادت زاوية انحدار قاعدة هذا التل بسبب حفر خندق حوله.

توجد فوق أنقاض آخر انهيار حدث لبقايا بيوت العصرين البرونزيين القديم والمتوسط ومع الزمن اختفت قمة الانحدار في المنطقة الرئيسية التي جرت فيها الحفريات. وذلك بسبب انجراف التربة، ومعها اختفت أيضاً آثار السور الذي بني في العصر البرونزي المتوسط في الجهة الشرقية من التل.

أما في الزاوية الشمالية الغربية فقد تم رفع بعض الأنقاض عن المنطقة، وتم حفر خندق قامت بحفره بعثات أثرية سابقة عثرت نتيجة ذلك الحفر على ما يعتقد أنه بقايا هذا السور.

إن جميع موجودات منطقة الحفريات الرئيسية كانت ضمن سور عظيم يحتوي على معين ضخم من الأدوات والأشياء التي استوردت من خارج المنطقة. كان السور مغطىً بطبقة سميكة من القصارة ويتصل بالأبنية خلفه بواسطة عدد من البروزات والنتوءات (PL 30) كانت قاعدة هذا السور مبنية من الحجر ومنه أخذت الحجارة لبناء الأبنية المتعاقبة في المدينة. ويمكننا استنتاج طبيعته الأولى من الترميم النهائي المشابه الذي تم في المرحلة النهائية (PL 31). أما القصارة فيمكننا تتبع أثرها في الزاوية الشمالية الغربية حتى أعلى نقطة باقية من السور في تلك الجهة، حيث لا تزال بقاياه تدل على أسلوب النظام الدفاعي عن المدينة في هذه الفترة.

أما داخل المدينة فقد انحدر السفح الاصطناعي العظيم ما يقرب من (١٢) قدماً والدليل على ذلك ما نراه في المنطقة الجنوبية الغربية.

كان سمك أسوار الدفاع الجديدة حوالي (٦٦) قدماً عند القاعدة التي بنيت من الحجر وحتى مستوى سور المدينة الذي يعلوها بحوالي (٤٦) قدماً.

أما في الناحية الغربية من المدينة فيمكننا تتبع آثار ثلاث مراحل متتالية من بناء هذا السور، حيث نجد سطحاً مغطى بقصارة ثانية يزيد انحداراً عن سابقة بينما قصارته أقل صلابة من سابقتها. أما في المرحلة الثالثة فنجد سطحاً قد زالت قصارته تماماً، ولكنه يعطينا أصدق دليل على الجدار المغطى بالحجارة الواقع عند أسفل المنحدر (PL 31).

أقيم هذا السور على أساس من الصخر. أما الصخور التي نجدها خارجة فقد تكونت من رواسب قديمة. أما الخندق الذي قيل عنه إنه كان يحيط بالسور فلا أثر له البتة.

إن السور النهائي المغطى بالحجارة هو أهم ما بقي من وسائل الدفاع في أريحا على مر العصور. ولكن على المرء أن لا ينسى أن هذا السور كان يشكل جزءاً بسيطاً من نظام الدفاع الكلي. إنه جزء في نظام تتبعنا أثره خلال فترة طويلة. لقد تتبعنا أثر الوجه المقصور من السطح الأساسي في الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية من التل. أما السور النهائي المغطى بالحجارة فقد تتبعت أثره بعثة ألمانية نمساوية (١٩٠٧-١٩٠٩) حفرت حول الطرف الشمالي ثم استدارت حتى وصلتا شرقي الطريق الحالية ثم انعطفت جهة الطرف الجنوبي، واستمرت في الحفر حتى وصلت إلى الطريق الحالي نفسه.

نستنتج من هذا أن المدينة امتدت نحو الشرق في المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط. وهنالك إثباتات تشير إلى أن الحفريات في المنطقة قد أدت إلى نفس النتائج.

إن سور مدينة العصر البرونزي المتوسط الأول امتد على طول نهاية الطرف الشرقي للمنطقة التي تم حفرها. وبعد أن أزيلت آخر مرحلة من هذا السور ظهرت هنالك عدة مستويات لبنايات متعاقبة تمتد فوق قمته. وقد قطعتها الطريق الحديثة

المتدة شرقاً. يستنتج من هذا أن الأبنية قد امتدت حتى وصلت سور المدينة ثم اجتازته إلى الخارج حيث يبدو بوضوح أن الجانب الشرقي من السور كان قسماً من تل المدينة وليس كما هو الحال في بقية أجزائه، أي إنه كان يحيط بمنحدر كان موجوداً قبله، ثم امتلأت المسافة بينه وبين المنحدر وتكوّن قسم مشتمل من الأرض المنبسطة. وهذه نقطة هامة بالنسبة لمثيلاتها من وسائل الدفاع في الأمكنة الأخرى.

إن امتداد نقاط الدفاع إلى الجهة الشرقية ربما قصد منه الإحاطة بمصادر المياه، لأن نقل الماء من مصدره إلى داخل القلعة أو المدينة دون أن تكون هنالك قناة لحرها تشكل نقطة مكشوفة عرضه للهجوم. ولكن ليس لدينا أي دليل على حدوث مثل هذه المشكلة.

إن معظم الأدوات التي وجدت في هذه الجهة كانت قد أخذت من أماكن سابقة، وكذلك مجموعة القطع الفخارية وغيرها غير المتقنة الصنع التي هي من مخلفات العصر البرونزي المتوسط. إن هذه الأدوات التي وجدت في المستودعات المتعاقبة في الموقع H وتلك التي وجدت بجانب السور أو فوقه. وذلك الجزء الذي امتد خارج المنطقة حتى الحد الذي اختفى تماماً في الجهة الشرقية. تختلف اختلافاً كلياً عن أدوات الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها. وإذا درسنا بعناية مخلفات الحقب السابقة جنباً إلى جنب مع مخلفات هذه الحقبة نجد أن نوعاً جديداً من أساليب الدفاع قد استعمل في هذا المكان لأول مرة في تاريخه. وقد يظن البعض أن هذا الأسلوب الدفاعي الجديد استعمل لأول مرة في مكان ما في نهاية المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط، ولكن ليس لدينا دليل قاطع على ذلك.

إن هذا الأسلوب الدفاعي الجديد انتشر في فلسطين في العصر البرونزي المتوسط، وأقرب شبيه للأسلوب الذي وجد في أريحا هو ذلك الذي وجد في تل دوير. لقد وجد هنالك حصن شبيه جداً بحصن أريحا يحتوي على أدوات من مخلفات عصور

سابقة، وكانت واجهة الحصن الخارجية عبارة عن منحدر مغطى بقصارة صلبة وناعمة (PL 32) وربما كانت قاعدته مغطاة بجدار من الحجر. ويعرف القسم الواقع خارج السور بالخندق، ولكن لم يكن هنالك خندق فعلاً يشكل جزءاً من وسائل الدفاع، لأن قعر الخندق كان منبسطاً وجدرانه الخارجية الصخرية تنحدر باتجاه حائط السور إلى الداخل. وتشير الدلائل إلى أن حصن تل دوير كان معاصراً تقريباً لحصن أريحا، وقد وجدت عدة قبور في أسفل القصارة محفورة في الصخر ترجع في تاريخها للفترة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط، وهذه القبور تشكل أعمق نقطة للبناء في هذه الجهة كما وجدت بين الأنقاض التي تجمعت في الخندق قطع فخارية ترجع في تاريخها للقرن السادس عشر ق.م. وتدل هذه على أن الاهتمام بوسائل الدفاع في هذا التاريخ قد توقف.

وقد وجد أيضاً في جريشة Jeriseh [1] تل مغطى بالقصارة شبيه بتل دير دوير، وكانت أساليب البناء والتنظيم فيه شبيهة بتلك التي مر وصفها في أريحا، كما وجدت حصون أخرى شبيهة بهذه في تل العجول وتل فارعة، وفي كلا هذين المكانين كان الخندق يشكل جزءاً من وسائل الدفاع. كما وجدت في بيت مرسيم في المراحل المتأخرة من العصر البرونزي المتوسط في الطبقة E وكذلك في مجدو في الطبقة ١٠ حصون ترابية بنيت عند قاعدة سور المدينة، ولكن بقاياها لم تكن ذات أهمية كتلك التي مر وصفها.

إن أهم الأماكن التي حصنت بهذا الأسلوب الدفاعي والتي تترك أثراً عظيماً في النفس عند رؤيتها هي حازور[2] التي اكتشفت مؤخراً. ففي هذا المكان وجدت مساحة شاسعة قائمة الزوايا تبلغ مساحتها (١٣٨) فداناً والفدان يبلغ ٤٨٤٠ ياردة مربعة محاطة بسور ترابي وبخندق، وذلك في الأماكن التي لم يكن الانحدار الخارجي

(١) الجريشة الموجا يافا.
(٢) حازور هي تل القدح في منطقة الحولة.

فيها بكاف للدفاع (PL. 33). ويبدو أن هذا الموقع العظيم قد احتل أولاً في العصر البرونزي المتوسط الثاني، ويمكن أن تكون تحت المساحة المسورة نواة لمدينة سابقة ويرجع وجودها في الزاوية الجنوبية الغربية حيث وجدت آثار العصر الحديدي. ولكن حتى الآن لا يوجد لدينا دليل كاف يثبت ذلك، ومن الممكن أن يكون هذا المكان قد استوطن على نطاق واسع في الوقت الذي بدأ فيه استعمال هذا النوع من أساليب الدفاع؛ أي حوالي الفترة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط.

إن هذا الأسلوب الجديد في الدفاع لا بد وأن يكون قد استورد من خارج البلاد، وهو يعكس لنا ظروفاً حربية جديدة سادت في البلاد قبل وأثناء استعماله. إذ من المتعارف عليه في تاريخ الحروب أن أساليب الدفاع الجديدة هي نتيجة لظهور طرق جديدة في الهجوم، ولا يمكننا أن نربط هذا الأسلوب الجديد في الهجوم بحرب العربات؛ إذ ليس لدينا دليل كاف على استعمال العربات في هذه المنطقة منذ زمن لأسرة الثامنة عشرة. أو باستعمال القوس والسهام لأن رؤوس السهام البرونزية لم توجد في فلسطين إلا في العصر البرونزي المتأخر. أما التفسير المحتمل فهو أن هذه الأسوار وجدت لتعيق استعمال المجانيق الحربية التي لا يمكن جرها فوق منحدرات ملساء لتصل قمة أسوار المدينة أو لتمنع استعمالها فيما لو نصبت فوق مثل هذه المنحدرات.

ولكن علينا أن نؤكد بشدة أنه بالرغم من وسائل الدفاع الجديدة التي توحي باضطراب في الحياة السياسية إلا أن الحياة في داخل المدن بقيت متماسكة تسير حثيثاً إلى الأمام نحو مدنية أفضل دون أن يعيقها عائق. أما أسلوب الدفاع الجديد فقد بسط ظله على نواحي أخرى في حياة المدن.

إن مفتاح حل لغز هذا الأسلوب الدفاعي الجديد يكمن في الحقيقة القائلة إن هذا لأسلوب لم يكن مقصوراً على فلسطين وحدها. ففي الجنوب من القاهرة في تل

اليهودية وجد سور عظيم من الرمل مكسوة سطوحه بالقصارة الصلبة الملساء، ولا يزال ارتفاعه حتى اليوم ٤١ قدماً وهو يحيط بمساحة أكثر من ٢٣ فداناً.

يرتفع هذا السور من مستوى الأرض المحيطة به تماماً كأسوار المدن الرومانية البريطانية، والى الشمال يوجد تل قطنة القديم الواقع شرقي حمص وهو محاط (بما يقرب من ٤٠٠ متر من ثلاث جهات و٦٠٠ متر من الجهة الرابعة) بسور عظيم يقف شامخاً ويشبه تماماً سور تل اليهودية حيث كانت جدرانه مغطاة بالقصارة الصلبة الملساء.

يبدأ هذا السور من قاعدة التل وله باب جميل يؤدي إلى الداخل بوساطة ممر مقسم بثلاثة أعمدة.

لقد وجدت في جميع هذه الأمكنة الدفاعية بقايا فخار من صنع محلي. ولا يقف هذا الأسلوب الدفاعي عند الأماكن التي ذكرت جنوب شمال فلسطين بل يتعداها في الشمال إلى أبعد من ذلك حتى يصل إلى كركميش في الشمال، ويبدو أن هذا الأسلوب انتقل أولاً جنوباً إلى فلسطين ومنها إلى مصر، ويمكننا بكل تأكيد أن ننسب نقله إلى الهكسوس الذين سيطروا على شمال مصر حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م.

إن أحسن تفسير لكلمة هكسوس المصرية هو (حكام البلاد الأجنبية)، لذ لم تعد هنالك أية فائدة في لتعرف على أصلهم بالرغم من أن بعض المصادر المصرية توضح أنهم من أصل آسيوي. ونلاحظ أن كثيراً من الأسماء المنسوبة للهكسوس والمحفورة على الجدران هي من أصل سامي، ولكن هنالك العديد من الأسماء لا يمت للسامية بصلة، وهذا يشير إلى أن الهكسوس كانو يتكونون من عناصر شتى، وهنالك شواهد أدبية ولغوية تشير إلى عدد الجماعات المتنقلة في آسيا في المنتصف الأول من الألف الثاني ق.م. وفي طليعة هؤلاء يأتي الحوريون الذين استقروا في أواسط الفرات في مطلع نفس الألف، وقد وصلت جماعات منهم بكل تأكيد إلى الشاطئ السوري

وفلسطين في القرون التالية. وفي فترة رسائل تل العمارنة؛ أي في النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. كان في فلسطين عدد من الزعماء الذين يحملون أسماء حورية، وقد وجدت مثل هذه الأسماء في مصر أثناء فترة الأسرة الثامنة عشرة. ويتضح لنا الآن أن جماعة جديدة وقوية ربما كانت من أصل هندي أوروبي قد استولت على موطئ قدم لها في الهلال الخصيب في مطلع ذلك الألف، وأشاعت في المنطقة الفوضى والاضطراب مما دفع غيرها من الجماعات المستقرة إلى الهجرة والرحيل بينما استمر قسم من هذه الجماعات الجديدة في سيره غرباً حتى وصل إلى الساحل السوري والفلسطيني حيث استقر في عدد من المدن الساحلية مكوناً حكومات أرستقراطية أجنبية فيها.

وفي نفس الوقت من هذه الفترة نعثر على أخبار جماعات أخرى غريبة تدعى الحبرو Habiru ويعتقد معظم العلماء أنه لا يمكن اعتبار الحبرو جماعة متميزة بعنصر خاص كالحوريين، وذلك لعدم وجود أسماء خاصة بهم. كما لا يمكن إعطاؤهم مهنة خاصة بهم، لأننا نجدهم أحياناً جنوداً محترفين وأحياناً عمالاً وثالثة عبيداً، والصفة الوحيدة العامة والخاصة بهم هي أنهم غرباء، لذا فأحسن تعبير عنهم هو أنهم كانوا جماعة من المغامرين وجنود الكسب، فهم يظهرون في الأوقات الصعبة وفي الأماكن المضطربة فينهبون المدن الضعيفة. أما في أوقات الحروب فينخرطون في جيوش الممالك القوية ويعملون كمرتزقة. أما في أوقات السلم والحكومات القوية فيعملون عمالاً أو عبيداً. إن فئات كهذه يمكن تجنيدها من مصادر مختلفة فهم أخلاط من الأشخاص الذين طردوا من أوطانهم كأولئك الذين نزحوا من ديارهم عند إنشاء الدولة الحورية، ومن عصابات المغامرين الذين يبحثون عن أراض جديدة كالحوريين أنفسهم، ومن الخارجين على القانون الذين لفظتهم مدنهم.

ومن مصدر أهم بكثير من جميع المصادر السابقة ألا وهو تلك الجماعات الباحثة عن بلاد أكثر ثروة ورخاء من بلادهم الأصلية، وأهم مصدر لهؤلاء هم البدو الساميون سكان الصحراء العربية.

إن جماعات كهذه حتماً ستكون من أصول مختلفة بالرغم من وجود عنصر واحد كان يسود في كل جماعة منها. إن تعليلاً كهذا ينطبق تماماً على الجيرو الذي كان أكثرهم يحمل أسماء سامية وحتى مصرية أحياناً. وذلك لأن الصحراء العربية كانت دون شك أفضل الأماكن لتجنيد مثل هذه الجماعات، ولكن وجدت بينهم نسبة مئوية لا تحمل الأسماء السامية.

إن الأماكن التي تجول واستقر فيها الجيرو كانت على الغالب البلاد السامية، لذا تأثروا بالحضارة السامية أكثر من غيرها.

إن هذا التفسير ينطبق ثانية على أوصاف إبراهيم العبري، لأنه كان كما يبدو جلياً من جنود الكسب ورحالة لا يستقر في مكان (لا توجد هنالك أية معارضة لغوية عند مقارنة الأسماء عبري Hebrew وحيرى Habiru والاسم المصري عبرو Apiru).

إن قصة بطارقة العبرانيين المعروفة والأراضي التي جابوها في حلهم وترحالهم تشبه تماماً ما عرف عن الجيرو.

لذا نجد في الفترة التي ظهر فيها الهكسوس في فلسطين ومصر جماعات أخرى تتجول هنا وهناك من الحوريين والجيرو، وأحسن تعليل ممكن للهكسوس أنهم جندوا من هذه الجماعات وكونوا جماعة التحمت معاً بما فيه الكنعانية، لإظهارها بمظهر القوة ونصبت من نفسها أسياداً في هذه البلاد.

أما بالنسبة لفلسطين فالأثر واضح فيها؛ إذ تكونت حكومة قوية ذات وسائل دفاعية قوية وفعالة بسطت سلطانها فيما بعد على ثروات مصر. مما أدى إلى زيادة في تقدمها وازدهارها ونشأت عناصر جديدة كما تدل الأسماء الحورية لبعض حكام الفترة اللاحقة، وذلك في منطقة كانت في الأصل سامية بحتة.

أما حضارة البلاد الأساسية فقد بقيت حضارة الفترة السابقة كما هي الحال غالباً عندما تبسط جماعة ارستقراطية حكمها لا كما يضطر السكان جميعهم إلى الهجرة.

وبالإضافة إلى الجماعات التي وصلت فلسطين عند الغزوات الأولى كانت هناك جماعات أخرى غريبة قد استوطنت البلاد فعلاً، ولما طرد الهكسوس من مصر عادوا إلى فلسطين وامتزجوا بسكانها، لأن المصريين طردوا الهكسوس عبر سينا دون أن يلحقوا بهم بعد تخطيهم حدود فلسطين الجنوبية، بل تركوهم ليؤمنوا لأنفسهم أماكن يستقرون فيها بين الجماعات المتحالفة الذين استقروا من قبل وبين السكان الأصليين. فإن صح هذا التفسير يكون سكان فلسطين في القرن السادس عشر ق. م. من الساميين الذين غلبت عليهم الصفات السامية، والذين استطاعوا صهر غيرهم من الشعوب في بوتقتهم وسبغهم بالصبغة السامية.

لقد كان بين هذه الشعوب من هو سامي أو حوري أو مجهول الأصل. كان قسم من الدخلاء الجدد قد استقر رأساً في فلسطين بينما القسم الآخر تخطاها إلى مصر واستقر فيها ردحاً من الزمن، اكتسب خلالها دون شك بعض العادات والحضارة المصرية.

أما الجيرو فقد بقي قسم منهم دون شك في مصر، وعرفوا فيما بعد بالسلالة العشرين، أما من ناحية أخرى فقد بقي آخرون يعيشون عيشة البداوة وبقيت موجاتهم تتدفق من الشمال حتى فترة متأخرة. لأن الجيرو الذين كانوا مصدر تهديد لمصر تل العمارنة كانوا يشبهون هذه الجماعات التي وصلت في فترت متأخرة من حيث العادات والحل والترحال وربما في الأصل المختلط.

نرى مما تقدم أن حضارة فلسطين بقيت أصلاً على ما كانت عليه، ويثبت ذلك الفخار الذي تم اكتشافه؛ إذ يعطينا دليلاً لا يتطرق إليه الشك: إذ لا نجد أي عنصر

أجنبي دخيل على صناعته فالنماذج التي وجدت في مطلع العصر البرونزي المتوسط الأول استمرت في التطور إلى الأمام بالرغم من أن بعضها كان سيء الصقل وردي، النوع، وبالرغم من أن الأواني المصقولة اللامعة كادت أن تختفي، إلا أن هذا لا يخرج عن كونه الطريق الطبيعي العام لطبوغرافية كل تقدم وازدهار. أما فنون الهندسة والبناء فقد بقيت على حالها. ففي تل بيت مرسيم في الطبقة التي هي آخر مستوى للعصر البرونزي المتوسط نجد غزارة في الإنتاج وتحديداً في النوعية، حيث نجد موقع المدينة قد ازدحم بالبيوت التي أصبح معظمها صغير الحجم، ولكننا نجد بينها بيتاً واحداً فقط يفوق جداً جميع ما حوله من البيوت حجماً وعظمة وروعة وإتقاناً. وهذا يشير إلى أنه كانت هناك بعض العائلات التي أثرت على حساب غيرها من السكان. فهذا البيت الواقع في منتصف الجزء العلوي الأيمن من الخارطة يتألف من ساحة واسعة يفضي إليها باب واسع، ويوجد وسط الساحة حوض للماء يشير إلى أن قطيعاً من الماشية كان يأتي إلى هذا الحوش. وعلى أحد جوانب الحوش كان يقوم صف من الغرف. وهنالك دليل واضح على أنه كان هنالك طابق أخر من الغرف يعلو الأول يستعمل للنوم والجلوس والسكن، بينما غرف الطابق السفلي تستعمل للخزن أو اصطبلات للماشية. وقد وجد فعلاً في إحداها عدد كبير من جرار الخزن التي هي نموذج طبق الأصل لفخار هذه الفترة. كما وجد في الأنقاض التي تعلو هذه الغرف عدد من الحاجيات التي سقطت من الطابق العلوي، وكان أهمها الجزء السفلي الصفيحة من الحجر عليها صورة للالهة الأفعى (PL. 34B) وقد كانت الصفيحة مستديرة من الخلف مما يدل على أنها كانت في كوة في إحدى الغرف العليا، وكان ضمن الأشياء التي وجدت لوحة للعب مع مجموعة من قطع اللعب التي تستعمل في لعبة تلك اللوحة، وقد ألقت هذه ضوءً جلياً على حياة هذه الفترة (PL 34 A) ويبدو أن هذه اللعبة كانت أصلاً من بلاد ما بين النهرين، ولكنها انتشرت في الشرق وهي تلعب على لوحة ذات ثلاثة خطوط في العلوي والسفلي منها أربعة مربعات بينما في

صف الوسط اثنا عشر مربعاً. ويلعب أحد اللاعبين بقطع مخروطية الشكل بينما خصمه الآخر بقطع هرمية من الخزف الأزرق. أما زهر اللعبة فكان مرقماً من ١-٤.

أما في أريحا فقد اكتشف القسم الأعظم لمخطط مدينة العصر البرونزي المتوسط الأخير. وتمثل هذه الخارطة آخر مرحلة من مراحل البناء التي تلت بناء الحصون الدفاعية الجديدة في الطرف الشرقي.

وقد عثرنا على آثار شارعين يمتدان من قمة التل إلى أسفله يبلغ عرض كل منهما ستة أقدام وست إنشات ويغطي سطحهما درج عريض من الحجر وتوجد تحت السطح مجاري حسنة البناء. وعلى جانبي الشارعين عدد من البيوت المتراصة ذات الغرف الصغيرة. وينعكس الكثير من صفات الشارعين والبيوت حولهما على عدد من مدن الشرق اليوم. ويبدو أن الغرف الأرضية كانت تستعمل غالباً مخازن وحوانيت.

أما الجوانب فكانت عبارة عن غرفة واحدة تشبه أكشاك اليوم تقوم منفصلة عن جسم البناء الأصلي وقد وجدت في كثير من المخازن التي كانت تخص البيوت والحوانيت صفوف من الجرار ملآى بالحبوب المتفحمة من جراء النيران التي التهمت المدينة. لقد أتت هذه النيران على الغرف العليا وجميع ما تحويه حتى سطوح الغرف السفلى. وقد كانت هذه الغرف تستعمل دون شك كما هي الحال اليوم للسكن. ولكن يبدو أنها كانت تستعمل في أغراض صناعية أيضاً، حيث وجدت فيها كميات كبيرة من الأنوال. مما يدل على أن النسيج كان ينسج فيها. كما وجد في إحدى المناطق خمس طواحين يد بشقيها (جاروشة) وهي طواحين من النوع القديم الذي يدار باليد ويصنع من الحجر الناري الأسود. كما وجد عدد من حجر المسن ومن الأدوات التي يحتاجها بيت خاص، مما يدل على أن عملية طحن الحبوب كانت تتم داخل غرف البيت. وربما كان يتبع لهذا المكان مخزن الحبوب الذي مر ذكره الواقع في إحدى غرف الطابق السفلي.

إن بيوتاً التهمتها النيران كهذه تتيح لعالم الآثار فرصاً مواتية لدراسة التاريخ، لأن كل ما يحويه البيت عادة يبقى بين الأنقاض. ولكننا في مثل هذه الحالة نفتقر إلى كثير من التفاصيل لما تحويه هذه البيوت من قطع الأثاث المختلفة. وذلك لضيق اتساع أفق علم الآثار الذي يهتم فقط بالأشياء المتبقية التي نجت من الفناء، لذا نتيجة للحفريات في موقع هذه المدينة لا نستطيع العثور على دليل لما كان عليه الأثاث الخشبي في البيوت أو أسرة النوم أو الملابس أو الطعام، ولكن هنالك مصدر آخر في أريحا استطعنا أن نستقي منه معلوماتنا هذه ألا وهو مخلفات القبور.

يبدو أنه كانت هناك عدة طرق لدفن الموتى ففي تل العجول ومجدو احتوت القبور التي حفرت في التلال على جثة واحدة فقط. ففي مجدو على الأقل نلاحظ أن أجزاء منطقة المدينة التي لم تسكن لم تستعمل لدفن الموتى. ونلاحظ من مخلفات القبور أن تطور الفخار استمر طوال العصر البرونزي المتوسط بينما تعاقبت خلال هذا العصر خمس فترات عمرانية على الأقل لذا أصبحت القبور مجاورة للبيوت أو ربما تحتها مباشرة. لقد دفن عدد من الموتى في تل مجدو في قبور بنيت خصيصاً للدفن. ويوجد في قبر خاص حفر في الأرض لجثة واحدة. ويدل هذا على أن القبور كانت تبنى بشكل يسهل فتحها واستعمالها لعدة دفنات متوالية. فطالما كان القبر يستعمل لعدة مرات، لذا فمن غير المحتمل أن تكون القبور جزءاً من البيت الذي يحتويها، بل كانت في معظمها منفصلة عن البيت. ولكنها كانت تؤدي إليه. أما استعمال المقابر العامة فقد كان أكثر شيوعاً وقد وجدت مثل هذه المقابر العامة في الفارعة وتل دوير وتل الفارعة وأريحا. وقد وجدت القبور في أريحا بشكل خاص في حالة جيدة سواء في بنيانها أو محتوياتها. ويمكن اتخاذ هذه القبور نماذج للشرح والإيضاح.

كانت القبور تحفر في الصخر اللين الواقع في المنحدرات السفلى من التلال، تلك المنحدرات التي تنعطف غرباً وشمالاً حول التل. وكانت تتكون من مدخل عمودي يؤدي إلى غرفة القبر. وكثير من هذه القبور التي استعملت في العصر البرونزي المتوسط

والواقعة في المقبرة الشمالية كانت أصلاً قد حفرت في العصر البرونزي القديم والعصر البرونزي المتوسط، ثم أعيد استعمالها في هذه الفترة. أما بالنسبة للمقبرة الغربية التي تم التنقيب عنها على يدي بعثات أثرية سابقة فلم يتضح لدينا إن كانت تشبه سابقتها أم لا.

ولكن هناك فرق واحد بين قبور هذه وتلك هو أن قبور هذه المقبرة احتوت على عدد من الجثث، ولكن ليس بدرجة الفترة التي سبقت حياة الحفر في العصر البرونزي القديم؛ إذ ربما احتوى بعضها وهو شاذ بينها على أربعين جثة، ولكن كان معدل ما تحويه هذه القبور عشرين جثة. ويبدو أن الممر المؤدي للقبر كان يطمر بعد كل دفن ثم يعاد فتحه عند الدفن التالي.

وقد كان يوضع مع كل ميت طعامه وكل ما يحتاج إليه في الحياة الثانية كما سيأتي ذكره فيما بعد. كان يوضع الجسم على ظهره بينما تترك الأطراف دون أي ترتيب، وغالباً ما تكون الركبتان في وضع مرتفع عن الأرض. وعند دفن جثة ثانية في نفس القبر ترفع الأولى وكل ما يختص بها إلى نهاية غرفة القبر أو إلى جوانبها ونتيجة لذلك تجمع في مؤخرة القبر كوم من العظام والحاجيات المختلطة، بينما بقيت مقدمة القبر نسبياً تخلو من أي شيء سوى أحدث جثة. وعندما تحفر مثل هذه القبور لا نجد في مقدمتها سوى أحدث الجثث.

لذا يتحقق لدينا من هذا الوصف أنه يستحيل علينا أن نستنتج زمن وتاريخ كل حاجة يحتويها القبر بالنسبة لمكانها، كما حدث في الماضي عندما كان تاريخ الحاجيات ينحدر بالنسبة لارتفاعها عن أرض غرفة القبر. وفي هذه الحالة تكون عادة أقدم الحاجيات أقربها إلى أرض القبر بينما الحاجيات المتكدسة بعضها فوق بعض يمكن لها أن ترتفع أو تهبط إلى أي مستوى، ويمكننا بالنسبة لقبور الماضي أن نستنتج تاريخ كل حاجة داخل القبر؛ إذ قمنا بدراسة دقيقة وفي خطة محكمة لتلك الموجودات.

إن قبوراً كهذه تستطيع أن تقدم لنا فكرة إجمالية عن الفترة التي استعملت فيها ومن المعقول جداً أن نستنتج أنها كانت مقابر عائلية. لذا فعشرون جثة أو ما يقاربها يمكن لها أن تتوزع على فترة تاريخية طويلة بشرط أن لا تزيد على القرن، لذا فالدليل التاريخي هنا ذو أهمية كبيرة، ولكنه لا يكون بمنتهى الدقة.

إن عملية التكديس داخل القبر تؤدي إلى كسر العديد من الحاجيات بالإضافة إلى التلف الذي قد يسببه سقوط السقوف. وقد لوحظ في المرحلة الأولى من الحفريات أن المخلفات الأثرية كانت تدعو للدهشة بشكل غريب؛ إذ اعتقد البعض أن فيها صفة البقاء والخلود التي حالت دون الفناء الكلي للمواد العضوية كالخشب والمنسوجات ولحم الإنسان، ولكننا لا نعرف سر ذلك حتى اليوم. ومن الممكن جداً إن كانت هناك بعض الغازات التي تجمعت في غرفة القبر وقتلت الكائنات العضوية من بكتيريا وغيرها التي تسبب الانحلال والزوال وذلك قبل أن تتم عملها تماماً.

لقد لوحظ أن الانحلال قد دب في تلك الموجودات وأصبحت هشة جداً وسهلة الكسر بينما شكلها بقي على حاله.

لقد تأثرت المواد الخشبية جداً بعملية التكديس هذه بسبب سهولة كسرها، لذا لم نستطع الحصول إلا على أشياء صغيرة وبقايا قطع ضخمة للأثاث الخشبي الذي وضع ضمن القبور القديمة التي تم التنقيب عنها.

إن الدليل القاطع الذي يمكن استنتاجه من هذه القبور لا يتم إلا عند اكتشاف مجموعة منها تحوي عدداً من الجثث التي دفنت جميعها معاً وفي آن واحد وليس على دفعات أو في أزمنة مختلفة، حتى لا يؤدي ذلك إلى بعثرتها مع ما يخصها من حاجيات. وهنالك شك بسيط في أن كلاً من هذه القبور كان مقبرة عائلية تضم الشيوخ والشباب والأطفال. وقد وجدت الجثث في بعضها ترقد جنباً إلى جنب، وفي

هذه الحالة أمكن التمييز بسهولة بين الطعام والأدوات الخاصة والعامة التي تخص هذه الجثث.

من هذه القبور نستطيع أن نستنتج الأشياء التي كانت تعتبر ضرورية لإنسان العصر البرونزي المتوسط في أريحا في حياته الثانية. ففي هذه القبور الجماعية كان الطعام عاماً؛ أي يوجد فيها جميعاً وإلى جانبه جرار السوائل وأواني الشراب. وقد صنعت الصحائف حول جوانب القبر ووضعت على جوانبها كميات كبيرة من اللحم غالباً ما تكون شواء شاة تامة أو مجزأة.

أما في القبور التي تضم جثة واحدة فكان يوضع الطعام على طاولة طويلة وليست عريضة ذات رجلين في جهة ورجل واحدة في الجهة الأخرى، كي يسهل وقوفها على أرض القبر غير المستوية. ويبدو أن هذه الطاولة فعلاً كانت الأثاث الوحيد العام المتوفر.

أما الموتى فكانوا يرقدون على حصير من الحلفاء ربما كانوا ينامون ويجلسون عليه في حياتهم، ولكن وجد هناك جثة واحدة ترقد على سرير، وربما كانت لرجل من علية القوم، لأن الجثة كانت تحتل مركز القبر بينما بقية الجثث تحتل الجوانب.

وقد وجد في قبر آخر مقعدان، وهذا أيضاً اكتشاف فريد من نوعه، وقد وجدت في هذا القبر أيضاً جثة شخص يبدو أنه كان أكثر أهمية من غيره ممن حوله. كان هذا الشخص يرقد على منصة مرتفعة قليلاً بنيت من اللبن وسط غرفة القبر.

يبدو من هذا أن الأسرة والمقاعد لم تكن توجد إلا في بيوت الأغنياء في المجتمع. أما الزينة الفردية الخاصة فقد كانت بسيطة حيث كان يوضع مع كل جثة دبوس يوضع عادة على الكتف الأيسر لتثبيت ثوب الكفن على الجثة. كما يوضع على الكثير منها جعران ركب على خاتم برونزي أو علق حول الرقبة أو ركب على دبوس. اما عقود

الخرز فكانت نادرة وقد عثر في عدد من القبور على أمشاط من الخشب بجانب الرؤوس. وكانت في بعض الحالات في وضع يوحي بأنها كانت في ضفيرة أو جديلة.

وفعلاً وجدت بقايا بعض الضفائر في القبور. أما في قبور اليافعين فكانت أدوات الزينة تضم أبريقاً أسطواني الشكل يحتوي زيتاً وسلة تحتوي على صناديق خشبية صغيرة مرصعة بقطع من العظم، وعدداً من الأمشاط وابريقاً من المرمر للزيت أو للروائح العطرية، وأحياناً تضم شعراً مستعاراً. أما قبور الفقراء فكانت لا تحوي مثل هذه الأدوات، بل كانت تضم أدوات في غاية البساطة، مما يوحي أن معظم بيوت أريحا كانت في هذا الوقت غاية في البساطة. أما صناعة الأثاث فتدل على حذق ومهارة النجارين، ولكنها كانت بسيطة في زخرفتها.

أما التفصيلات الضرورية اللازمة لبناء وتأثيث غرفة ما في هذه الفترة في أريحا فقد وصلتنا بحالة جيدة وكما يبدو أنها كانت تحوي على ما هو ضروري أما ما كانت تحويه من ملابس فلم يصلنا منه إلا بقايا نسيج مهلهل.

إن تاريخ مجموعة القبور التي زودتنا بهذه المعلومات يرجع كلية إلى نهاية العصر البرونزي المتوسط الثاني، أي إلى المرحلة الخامسة من هذا العصر. وتدل موجوداتها على أثاث البيوت التي حاق بها الخراب في نهاية العصر البرونزي المتوسط في أريحا، ويظن أنه حدث هناك وباء عظيم قضى على عائلات بأكملها وذلك في تاريخ متأخر من حياة المدينة، لذا لم يعد فتح تلك القبور مرة ثانية من الضرورة بمكان.

من المحتمل أن تعطي صورة أريحا سنة ١٦٠٠ ق.م. صورة صادقة لكثير من مدن فلسطين في الفترة نفسها بالرغم من أن المدن الكبير ظهرت عليها دلائل الثروة والغنى أكثر مما كانت عليه حال أريحا التي لم تكن غنية حقاً. ففي جميع القبور التي تم حفرها لم يعثر على الذهب إلا في واحد منها فقط، حيث عثر على خمسة من الجعران مركبة في أطر ذهبية بجانب سوار بسيط من الذهب.

أما تل العجول فقد فاقت أريحا جداً في ثروتها؛ إذ عثر فيها على عدد من الأساور الذهبية والأقراط والدبابيس من صنع هذه الفترة وصنع بداية الفترة التي تلت.

إن حضارة العصر البرونزي المتوسط في فلسطين كانت محلية المولد لأننا رأينا أن الأقوام التي جلبتها أتت من سوريا. وكان معظمها من الكنعانيين الذين أتو من الساحل الفينيقي. بدأت في مستهل العصر البرونزي المتوسط الثاني تظهر وتزدهر حضارة فلسطين ذات صفات خاصة بها، ويبدو ذلك واضحاً بمقارنة الموجودات الأثرية في فلسطين بتلك التي وجدت في مدن الساحل السوري وخاصة في رأس شمرا. فالفخار مثلاً يدل على الأصل الذي أخذ منه، ولكنه ليس شبيهاً به. أما العلاقة مع مدن داخل سوريا فكانت أقل من العلاقة بالمدن الساحلية. وعلينا أن لا ننكر التأثير المصري الكبير الذي كان يبدو واضحاً في هذه الفترة. ففي زمن الأسرة الثانية عشرة بسطت مصر نوعاً من الحماية على الساحل السوري كما تشهد بذلك الآثار التي وجدت في جبيل وراس شمرا. أما وجود مثل هذه الشواهد في فلسطين فقليل. لقد وجدت في عزة بعض التماثيل الجنائزية الصغيرة وبعض الجعران التي ترجع في تاريخها للأسرة الثانية عشرة، ولكن يظن أن الجزية كانت تفرض على الحكام وخاصة في المدن الكبيرة الهامة. وفي أثناء حكم الهكسوس لمصر قامت بينهم وبين الأستقر طية الحاكمة في فلسطين علاقات طيبة متعددة، فقد كانت هناك دون شك علاقات تجارية واقتصادية، وقد علمنا ذلك من الوثائق المصرية التي تضم رسوم بني جبيل الشهيرة التي تظهر آسيويين قادمين لمصر. وعلمنا ذلك أيضاً من التأثير المصري على الفنون المحلية في فلسطين. فالجعران أصلاً هي حلية مصرية وقد وجد عدد كبير من هذه الجعران المصرية.

أما السواد الأعظم مما وجد منها منذ كان من صنع فلسطين يزدان بنماذج بسيطة أو بكلمات هيروغلفية مخطوءة الكتابة ولا معنى لها. أما الأواني المرمرية فكانت تشبه الأواني المصرية من حيث الشكل، ولكنها صنعت من حجر محلي.

لقد قلد صانعو أثاث البيوت في أريحا الصناعة المصرية، ولكن أسلوب الصنع كان بسيطاً جداً. وبالرغم من كل ما مر فقد كانت العلاقات المصرية الفلسطينية ضعيفة دون شك. وقد أضاف الهكسوس عند هبوطهم مصر شيئاً قليلاً إلى هذه العلاقات.

لا يستطيع المرء أبداً أن يستنتج من الآثار التي وجدت قيام طبقة حاكمة جديدة ذات مميزات حورية بحتة اللهم سوى ظهور أسلوب جديد من أساليب الدفاع.

إن صورة فلسطين في هذا الوقت ذات أهمية خاصة، لأنها الأساس الذي بنيت عليه قصة التوراة فيما بعد. ومن المرجح جداً أن يكون عصر البطارفة اليهود (إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأحفادهم) قد حدث في العصر البرونزي المتوسط، وأن العبرانيين هم أحفاد الجيرو الذين جاءوا لفلسطين من شمال سوريا في مثل هذا الوقت. إن قصة سفر التكوين التقليدية التي بنيت على قصة شفوية كانت شائعة آنذاك تجعل الوصول إلى أي تاريخ حقيقي مستحيلاً، وقد ظن البعض ولفترة طويلة أن أمرافيل Amraphel الذي ورد اسمه في سفر التكوين هو حمورابي بابل الذي يرجع تاريخه إلى حوالي ١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.، ولكننا لا نستطيع أن نعتمد كثيراً على هذا، لأن الشواهد التي تدل على عادات وقوانين العبرانيين تجعلنا نستنتج أنهم كانوا على اتصال مع الحوريين. وقد ظهر هذا التشابه في العادات وغيرها في سجلات ماري Mari Documents التي ترجع لعام ١٧٠٠ ق.م. ومن المؤكد أيضاً أن المرء لا يستطيع أن يبني تاريخاً حقيقياً معتمداً على فترة من الزمن ترجع إلى عهد البطارفة العبرانيين، ولا يستطيع أن يصدق أن إبراهيم كان عمره خمسة وسبعين سنة عندما غادر حران، وأنه كان ابن ماية سنة عندما رزق بإسحاق. كما لا نستطيع أن نصدق أن إسحق كان ابن ستين سنة عندما رزق بيعقوب، وأن يعقوب كان ابن ماية وثلاثين سنة عندما سافر إلى مصر. وسبب هذا الشك هو أن الدلائل التي توصلنا إليها من دراسة الهياكل البشرية التي وجدت في قبور أريحا تشير إلى أن الحياة في هذه الفترة كانت قصيرة؛ إذ يبدو على تلك الهياكل أن كثيراً من أصحابها قد ماتوا قبل بلوغهم

الخامسة والثلاثين، وقليلون منهم وصلوا سن الخمسين. لذا فالأرقام التي وردت في التوارة تعكس فقط مدى الاحترام الذي كان يسبغ على أجداد القبيلة الذين جرت العادة أن ينسب إليهم طول العمر ورجاحة العقل.

وبالرغم من استحالة توصلنا إلى تاريخ دقيق فإن مجريات الحوادث في هذه الفترة تنعكس على ما جاء في القصة المقدسة. لقد كان البطارقة بدواً نصف رعاة يتنقلون في الأراضي الساحلية الأكثر خصباً ويعيشون في خيامهم، ولكن منفصلين عن الكنعانيين الذين يسكنون مدناً من ذلك الطراز الذي كشف عنه علم الآثار. فالرعاة سكان الخيام لا يتركون أي دليل يستطيع علم الآثار أن يكتشفه، ولكننا الآن نعرف الكثير مما كان يدور حولهم.

إن التاريخ المناسب الذي يمكن أن نحدد به نهاية العصر البرونزي المتوسط هو قيام الأسرة الثامنة عشرة في مصر؛ أي سنة ١٥٨٠ ق.م. أي عندما استطاعت مصر أن تطرد الآسيويين وتستعيد سلطتها على سوريا. إن الحروب التأديبية التي قذفت بالهكسوس إلى فلسطين مسجلة في وثائق مصرية، وتدل الدلائل على أنه حوالي هذا الوقت هدمت كل من أريحا وبيت مرسيم، وربما حدث ذلك أثناء حروب المصريين مع الهكسوس ولم يستأنف بناؤها إلا بعد عدة سنوات.

لقد هدمت في الفترة نفسها مدن أخرى مثل مجدو، ولكن عمرانها سرعان ما استؤنف على نفس النمط السابق.

ولربما عادت مع الهكسوس عناصر جديدة أجنبية، ولكن ليس لدينا إلا النزر اليسير من الشواهد التي تدل على ذلك. وبرجوع هؤلاء من مصر لم تتأثر الحضارة الكنعانية في فلسطين بل استمرت في التقدم والازدهار حتى العصر البرونزي المتأخر.

الفصل الثامن

العصر البرونزي الحديث ومجيء الإسرائيليين

في سنة ١٥٨٠ ق.م. انتهت المائة والخمسون سنة التي أخضع الهكسوس الآسيوين خلالها مصر لحكمهم، وذلك عندما تمكن أوائل ملوك الأسرة الثامنة عشرة طردهم من مصر. وكان لهذه الحادثة أثر مزدوج على فلسطين. أولاها هو طرد هذه الجماعات ثانية إلى فلسطين حيث استقر بعضهم أو معظمهم، وبدا أضافوا عنصراً جديداً إلى العناصر المختلفة والمتباينة التي امتزجت في السابق معاً واستقرت في البلاد، ويتوقع المرء أن يكون القادمون الجدد قد جلبوا معهم قسطاً وافراً من الحضارة المصرية، لأننا لاحظنا أن الغزاة في فلسطين سرعان ما تحضروا وتثقفوا بحضارة البلاد وثقافتها. وهذا ما حدث تماماً للهكسوس الذين تأثروا بالحضارة والثقافة المصرية وتمصروا إلى حد بعيد، ولكن لم تتوفر لدينا الأدلة الأثرية الهامة التي تدل على مبلغ ما جلبه هؤلاء إلى البلاد.

أما الأثر الثاني فهو استمرار تقدم الحكام المصريين نحو فلسطين وسوريا، وذلك تعزيزاً لقيام إمبراطوريتهم، ولكن ربما لم تتعد أهداف حروبهم الحملات التأديبية، ولم يكن هدفها سوى فرض السلطة السياسية على البلاد باستثناء حملات الأسرة الثانية عشرة.

وتدل الآثار على توفر نوعين من الأدلة التي تشير إلى مشاكل الوضع الجديد. ويدل الاول منها على خراب المدن نتيجة الحروب المصرية، ويدل الثاني على قيام علاقات تجارية بين مدن فلسطين وبقية بلدان حوض شرقي البحر الأبيض المتوسط.

لم يتوفر لدينا أي دليل مباشر على سرعة إعادة توطيد السلطة المصرية إذ ربما سبق ذلك سلسلة من الحروب استمرت زهاء عشرين عاماً أو أكثر. ويدل الفخار الذي تم العثور عليه على وجود فجوة في حياة عدد من المواقع الفلسطينية في الفترة بين (١٦٠٠-١٥٥٠ ق.م.) ويعزو العلماء هذه الفجوة إلى الغزو المصري.

أما في مجدو فقد خلفت الطبقة التاسعة الطبقة العاشرة في هذه الفترة دون حدوث أية فجوة أو انقطاع في سير الحياة فيها، كما لم يلاحظ المنقبون أي أثر يدل على كارثة أو خراب، بل لاحظوا في المواقع الصغيرة التي تم حفرها في جوانب التل والمعاصرة لهذه الفترة أن معظم البيوت قد أعيد بناؤها لتحسين هندستها وشكلها وليس لبنائها على نمط جديد يختلف عن أبنية الطبقة العاشرة. وتدل بوابة المدينة دلالة واضحة وهامة على استمرار الحضارة والحياة في هذا الموقع.

تتكون بوابة المدينة من ممر طويل ينقسم بثلاثة أزواج من الدعائم يظن أنه كانت بينها أبواب ثانوية. وربما كان هذا التخطيط إعادة لبناء البوابة القديمة التي كانت تقوم في الطبقة العاشرة والتي أصابها ضرر شديد. وقد وجد شبيه لهذه البوابة في مواقع أخرى في فلسطين في العصر البرونزي المتوسط مثل تل بيت مرسيم ونابلس وتل الفارعة وفي قطنا في سوريا. أما الأبنية المجاورة لهذه البوابة فتدل على مرحلة بنائية جديدة طبقت عند إعادة بناء ثلاثة بيوت كانت تقوم في هذا المكان منذ بداية العصر البرونزي المتوسط، وقد بدت البيوت الثلاثة وكأنها قصر منيف يقوم فوق الطبقة الثامنة في المدينة.

أما ما حل ببيت مرسيم وأريحا فيختلف تماماً عما حدث في مجدو: إذ هدم كلا المكانين ولم تستأنف الحياة فيهما ثانية إلا بعد فترة طويلة من الزمن. ففي بيت مرسيم وجد المنقبون طبقة من الرماد تغطي آثار الطبقة D أما المدينة اللاحقة C فقد بنيت حسب هندسة وتخطيط جديدين، ويعتقد المنقبون أنه كانت هنالك فجوة في حياة المدينة تبلغ حوالي ماية سنة.

أما الدلائل التي تشير إلى خراب أريحا فهي أكثر وقعاً وأشد أثراً في النفس حيث أحرقت النيران جميع أبنية العصر البرونزي المتوسط، ودفنت أسس جدران البيوت وسط الأنقاض التي تداعت من طبقاتها العليا، كما شوت النيران أوجه هذه الأسس ومصاطب غرف البيوت شياً شديداً فجعلت لونها أحمر وأسود. وقد عم الخراب جميع المنطقة عدا مساحة تبلغ أبعادها حوالي ٥٢ × ٢٢ متراً، حيث نجت أبنية هذه المساحة من هذه الكارثة ومن كوارث الفيضانات التي تلت. وقد تم التنقيب عن هذه المساحة، وتدل الحقائق على أن الخراب قد امتد مصعداً حتى قمة التل. وأهم هذه الحقائق وجود طبقة من الأنقاض التي جرفتها السيول فيما بعد تغطي قمم أسس هذه الجدران، ويبلغ سمك هذه الطبقة حوالي المتر، وهي ملونة بألوان بنية وسوداء وحمراء، وذلك بسبب المواد المحترقة التي تتكون منها والتي جاءتها دون شك من الأبنية التي احترقت والتي كانت تكلل قمة التل. ويدل وجود هذه الطبقة على فترة انجراف طويلة تشبه تماماً ما حدث للمكان قبل أن يستوطنه الإنسان حيث تجرف عواصف الشتاء العاتية مواد الأبنية المتهدمة نحو أسفل التل بعد أن تكون حرارة الصيف اللافحة قد جففتها وفتتها.

وتدل الشواهد المستخلصة من دراسة طبقات الأرض في أريحا على حدوث فجوة سكنية. ويؤكد ذلك وجود فجوة في استعمال القبور، حيث لاحظ العلماء توقف الدفن في جميع القبور الواقعة في المقبرة الشمالية في نهاية العصر البرونزي المتوسط، كما لاحظوا فجوة مماثلة في المقبرة الغربية. وقد وجد في هذه المقبرة خمسة قبور تحوي بقايا وترسبات ترجع للعصر البرونزي الحديث. وعند الكشف عنها لم يكن لدى العلماء أية فكرة خاصة عن فخار فلسطين في القرنين السادس عشر والخامس عشر، ولم يكن مؤكداً آنذاك أن هذا الفخار لا وجود له في القبور أو على سطح التل، بالإضافة إلى أن التركيب الطبقي لهذه القبور لم يكن مفهوماً لدى المنقبين آنذاك، لأن عملية تراكم الرسوبيات حول أطراف القبر نتجت عن وجود مواد ترجع في

أصلها إلى العصر البرونزي المتوسط، وعلى نفس المستوى مواد أخرى ترجع للعصر البرونزي الحديث، وقد اختلطت المواد معاً في مقدمة القبر. لذا تشير هذه الطبقة إلى امتزاج وانتقال فعلي بين نماذج الفخار في الفترتين. وعند دراسة هذه المواد على ضوء معلوماتنا الحاضرة تبين لنا وجود فجوة تامة في حياة المكان، سواء على سطح التل أو داخل القبور في السنوات ١٥٨٠-١٤٠٠ ق.م.

نستنتج من هذا أنه حدث هناك تغيير عظيم في الأماكن السكنية في فلسطين في الفترة التي تلت نهاية حكم الهكسوس في مصر.

ويبدو أن الأحوال بقيت مضطربة وسيئة حتى قويت قبضة الحكم المصري زمن تحتمس الثالث بعد حروبه سنة ١٤٧٩ ق.م. وبسبب وجود فجوة فعلاً في حياة معظم الأماكن التي تم الحفر فيها فإن معلوماتنا عن هذه الفترة قليلة نوعاً ما. لذا فالتاريخ الفخاري يعتمد كلية تقريباً على فخار مجدو طالما هي الموقع الوحيد الذي استمرت الحياة فيه، ويمكننا اعتماداً على هذا المكان أن نكوّن إطاراً تاريخياً مرشداً. بشواهد وأدلة من مواقع أخرى. لذا فالمكان نموذج للحياة التي استمرت في منتصف القرن ١٥٥٠-١٥٠٠ ق.م.؛ أي في الفترة التي حدث فيها الانتقال من فخار العصر البرونزي المتوسط إلى فخار العصر البرونزي الحديث، والفخار هو المادة الأثرية الهامة التي تقدم لنا أحسن دليل على سير الحضارة. وأول دليل هام من هذا النوع هو العثور على نوع خاص من الفخار الملون المدهون.

كانت زخرفة هذا النوع من الفخار تتم باستعمال لونين من الدهان هما على الغالب الأحمر والأسود. وكانت معظم الأواني ذات الأشكال الخاصة تزخرف بأشكال تحوي طيوراً وأسماكاً إلى جانب الأشكال الهندسية التي تشبه إلى حد بعيد العلم البريطاني أو شباكاً مزخرفاً. وقد عثر في مجدو على هذا النوع من الفخار ذي اللونين في الطبقة العاشرة، وكانت جميع المواد التي عرضت على الملأ قد عثر عليها في قبور حفرت في

تلك الطبقة. بالرغم من أن هذا النوع من الفخار هو خاص في الحقيقة بالطبقة التاسعة. وقد وجد المنقبون شبيهاً لهذا الفخار وبكثرة زائدة في جنوب فلسطين. وقد نسبوه إلى مصنع فخار واحد يعمل في تل العجول، ولكن يصعب علينا جداً أن نقول إن مصنعاً فخارياً واحداً هو الذي صنع جميع تلك الأواني التي وجدت، ولكن يمكننا أن نقول على الأقل إنها كانت من إنتاج مدرسة واحدة شهيرة بصنع الفخار.

وقد وجدت أيضاً أواني شبيهة جداً بهذا النوع على شواطئ قبرص الشرقية وفي مدن الساحل السوري الممتدة شمالاً حتى رأس شمرا.

ربما كان هذا النوع من الفخار الذي أشرنا إليه من إنتاج مدرسة فلسطين، ولكنّ جزءً كبيراً من هذه العملية المعقدة لطلاء الفخار بدأ يفد على فلسطين في القرن السادس عشر ق.م.

ولهذه العملية علاقات قوية وأكيدة مع الأساليب الحورية في زخرفة الفخار. لذا يمكننا أن نعتبر وجود هذا النوع من الفخار في فلسطين دليلاً حياً على عودة العلاقات مع الشمال. أو ربما على استمرار تسرب جماعات جديدة من الشمال نحو فلسطين.

أما النقطة الهامة الثانية التي يظهرها هذا الفخار فهي فتح السواحل السورية أبوابها بوجه تجارة شرقي البحر المتوسط بعد أن كانت هذه التجارة مقصورة في البداية تقريباً على قبرص، بعد أن كانت الواردات القبرصية إلى فلسطين نادرة طوال العصر البرونزي المتوسط، ولكن هذا النوع من الفخار يدل على بدء قيامها حول نهاية هذه الفترة. أما في فترة الانتقال التي تدل عليها الطبقة التاسعة في مجدو فأخذت هذه الواردات تزداد حجماً لدرجة أن الفخار القبرصي أخذ يزاحم الفخار المحلي في العصر البرونزي الحديث، وقد مر معنا سابقاً أنه كانت هنالك تجارة تسير في خط سير معاكس؛ أي نحو مصر.

من الواضح أنه خلال حكم السلالة الثامنة عشرة القول إن التجار أخذوا يحبذون سلوك الطرق البحرية لتجارتهم.

والنقطة الهامة الثالثة التي يدل عليها هذا الفخار تشير إلى أنه بالرغم من وجود عناصر جديدة بين السكان سبق وأشرنا إليها إلا أن الحاجيات الضرورية وأشكالها بقيت على ما كانت عليه في السابق، مع تطور طفيف طرأ عليها. لذا لم يتوقف التطور في هذه الفترة بل أضيفت إليه عناصر جديدة. ويدل هذا دلالة واضحة على أصالة الشعوب ومميزاتها؛ إذ منذ القرن العشرين ق.م. أي عندما طرأ تغير عظيم على الحاجيات الضرورية عند بداية العصر البرونزي المتوسط والشعوب الكنعانية السامية الأصل بقيت على حالها شبيهة بفخارها.

أما الجماعات الجديدة فقد انصهرت في أتون المجتمع العام وذابت ضمن عناصره، وظهر في البلاد حكام جدد يحملون أسماء أجنبية نصبوا من أنفسهم حكاماً على مدن مختلفة. أما الحضارة فبقيت كنعانية في جوهرها بالرغم من أن المجتمع السكاني قد فقد نقاوته.

وتشير الدلائل التي وجدت في مجدو على أن فترة الانتقال التي تتمثل في الطبقة التاسعة امتزجت كلية حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. في الطبقة الثامنة التي تمثل العصر البرونزي الحديث دون حدوث فجوة بينهما في سير الحضارة. أما من الناحية السياسية فقد حدثت هنالك فجوة سنة ١٤٧٩ ق.م. عندما نصب تحتمس الثالث حكاماً محليين أو سلالات موالية له في المدن الرئيسية.

استمرت السيطرة المصرية زهاء قرن من الزمن أي حتى حدوث اضطرابات عصر تل العمارنة عندما انقسم الحكام المحليون إلى قسمين: قسم موال لمصر وقسم ثار ضدها، ومن المحتمل جداً أن تكون القبضة المصرية على البلاد قد وهنت

لأن هدف السيطرة المصرية على فلسطين هو سلامة السير على الطريق الرئيسية المؤدية إلى شمال سوريا وبين النهرين. لذا كان من الضروري أن تبقى المدن الرئيسية الساحلية ومدن سهل مرج ابن عامر الكبيرة تحت السيطرة المصرية بينما تركت المدن الصغيرة ومدن المرتفعات الداخلية تسير أمورها وفق إرادتها مع دفع جزية سنوية محدودة للإدارة المصرية.

وتدل الكتابة التي وجدت على النصب التذكارية المصرية على أن تحتمس الثالث قد نهب مجدو سنة ١٤٧٠ ق.م. (وهو التاريخ الحقيقي الذي يعتمد على التقويم المصري) وتتمثل هذه الحادثة بالفجوة التي حدثت بين الطبقتين التاسعة والثامنة.

عثر المنقبون في الطبقة الثامنة على بناءين هامين؛ أولهما البناء الذي يوحي بأنه ربما كان قصراً للحاكم المحلي التابع للإدارة المصرية. وقد بني هذا القصر حول عدد من الساحات وتدل سماكة جدرانه على أنه كان يتكون من أكثر من طابق واحد، وقد وجد في مخبأ تحت مصطبة إحدى غرفه كنز عظيم جداً من الذهب والعاج وأحجار اللازورد وغيرها من المعادن الثمينة. ويدل هذا الكنز على ثروة هذه الفترة بينما يدل فن صنع محتوياته على العلاقة بين مصر وشمال بين النهرين.

أما البناء الثاني ذو الأهمية فكان هيكلاً. وقد سبق وأشرنا إلى أن الفترات السابقة قد زودتنا بأدلة قليلة جداً عن ديانة البلاد. ولكن الأدلة الدينية بدأت تشهر وتتجمع طوال الفترة التي أخذ الإسرائيليون يستقرون فيها بين الكنعانيين. ويعتبر هيكل مجدو هذا أقدم هيكل بني في العصر البرونزي الحديث.

كانت هندسته بسيطة للغاية أما حجمه فكان كبيراً جداً. فقد كان يتكون من قاعدة واحدة رئيسية يوجد في جدارها الخلفي فجوة قريبة الغور ربما كان لحفظ المعتقدات الدينية، وكان على كل جانب من التي بنيت فيما بعد، تبين أن المسافة بين غرفتي المدخل كانت عبارة عند سقيفة تقوم على دعائم. أما حجم القاعة الرئيسية

فكان يناسب بالطبع حجم جمهور المتعبدين الذين يمثلون في الحضرة الإلهية، ولكن هذه القاعة كانت تخلو من أي أثر لقدس الأقداس.

كان تل دوير هو الموقع الثاني الذي زودنا بالحقائق والأدلة عن أولى مراحل العصر البرونزي الحديث، ولكن الحفريات في هذا التل لم تصل بعد إلى مستوى طبقات هذه الفترة، ولكن عثر المنقبون على رواسب وأبنية ترجع لهذه الفترة في الخندق الذي حفر قرب قواعد التحصينات والأسوار العظيمة التي بناها الهكسوس. ويبدو من ذلك أن التحصينات والأسوار قد أهملت في نهاية العصر البرونزي المتوسط، وسمح للأنقاض بأن تتراكم وتملأ الخندق. وقد ذهب العلماء في تفسير ذلك مذاهب شتى، فمنهم من عزاه لتغير في أساليب الدفاع ومنهم من عزاه لفترة أمن وسلام لم تكن بحاجة إلى وسائل دفاع، وفريق ثالث نسبه لفترة ضعف في حياة المدينة لم يستطع السكان معها القيام بإصلاح هذه التحصينات. ولا يمكننا الوصول إلى تفسير صحيح إلا بعد القيام بحفريات كاملة شامله. أما الحقيقة التي لا جدال فيها ولا مراء فهي أن المكان لم يهجر لأن الأنقاض تحوي فخاراً شبيهاً جداً بفخار مستوى فترة الانتقال من العصر البرونزي المتوسط إلى العصر البرونزي الحديث؛ أي فخاراً يشبه فخار المستوى الواقع في الطبقة التاسعة في مجدو والذي يحمل بعض مميزات الفخار المدهون.

تتبع فترة طمر الخندق بالأنقاض التي لم تكن طويلة بالضرورة إقامة بناء هام كان عبارة عن هيكل صغير. وكان هذا البناء هو أول ثلاثة أبنية بنيت حسب هندسة عامة وموحدة. ويصعب علينا تحديد تاريخ إقامة هذا البناء، بينما تشير الدلائل الأثرية إلى أنه أقيم حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م. أي عندما عادت السيطرة المصرية زمن تحتمس الثالث، وبعودتها عم السلم البلاد وأصبحت الحالة تتطلب مزيداً من هذه الأبنية الروحية. ويعتبر هذا التاريخ أخر تاريخ تسمح الأدلة الأثرية بالإشارة إليه، بالرغم من أن تاريخاً سابقاً يكون على الغالب أفضل وأدق.

وقد استمر استعمال هذا الهيكل حتى سنة ١٤٠٠ ق.م. تقريباً حيث وجدت لوحة تحمل صورة امنحوتب الثالث ترجع في تاريخها إلى الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وقيام الهيكل الثاني الذي خلفه مباشرة.

كان هذا الهيكل بسيط الهندسة يتكون من معبد مستطيل تتصل به غرفتان لإحداهما فقط باب يؤدي للمعبد. ونلاحظ أن المعبد يخلو من غرفة داخلية أو قدس الأقداس حسبما تتطلب الديانة اليهودية، أو حسبما وجد في المعابد السامية القديمة. أما السقف فكان يقوم على أعمدة ربما كانت من الخشب. وقد عثر المنقبون على قواعدها في المحاور الرئيسية للمعبد. كما عثروا على جدار أمام المدخل الرئيسي يحجب رؤية داخل المعبد من الخارج. أما مكان العبادة فيتكون من مقعد منخفض يرتفع عن الأرض حوالي القدم، وتبرز عند مقدمته ثلاث نتوآت قائمة الزوايا، ويظن أن أدوات العبادة كانت توضع على هذا المقعد وأن النتوءات البارزة كانت تقوم مقام المذبح، وتوحي هذه النتوءات بأن ثالوثاً إلهياً كان يعبد في هذا الهيكل. وقد وجد على المحور الرئيسي أمام مكان العبادة جرتان غائرتان في الأرض ربما كانتا وعائين تصب فيهما قرابين الخمر، بينما وجدت مقابل أحد طرفي المقعد كومة عظيمة من الأواني التي أهملت بعد إعادة بناء الهيكل. ويظن البعض أن هذه الأواني كانت تستعمل لحفظ الهبات والنذور السائلة والصلبة. كما وجد خارج الهيكل عدد من الحفر التي كانت تستعمل للتخلص من الأواني التي تكسر والتي كانت تستعمل لنفس الغرض السابق. وقد وجد بجانب أحد الجدران مقعد واطئ آخر، وبمقارنته بالعدد الكبير من المقاعد المماثلة التي استعملت في الأبنية التالية تبين أن هذا المقعد ربما كان يستعمل لوضع الهبات والنذور عليه.

ومن سوء الحظ لم يعثر المنقبون إلا على قليل من الأدلة التي تشير إلى الإله أو الآلهة التي كانت تعبد في هذا الهيكل أو في الهياكل التي خلفته. ولكن العثور على تمثال صغير للإله رشف Reshef إله الحرب والعواصف السوري يوحي بأن هذا الإله

كان ضمن الآلهة التي عبدت في هذا المكان، بينما توحي ترجمة النقوش التي وجدت على جرة داخل الدير تدعى جرة تل الدوير Duweir Ewer بأن الآلهة إيلات Elath كانت أحد الآلهة الثلاثة التي تعبد في الهيكل.

يبدو من هذا أن الأدلة المتعلقة بتاريخ فلسطين في هذه الفترة قليلة نوعاً ما، أما الصورة الإجمالية لهذه الفترة فتشير إلى أنها كانت فترة استمرار للحضارة الكنعانية التي بنيت على أسس حضارة العصر البرونزي المتوسط التي قامت في عدد من المدن الكبيرة المستقلة، مع اختلاف بسيط في الثقافة والتنظيم، ويدل على هذا الاختلاف البسيط مثلاً الاختلاف الذي لاحظه العلماء بين هيكل مجدو وهيكل تل دوير.

بدأت المرحلة الثانية من العصر البرونزي الحديث في القرن الرابع عشر ق.م. وقد توفر لدينا عن هذه المرحلة العديد من الأدلة التاريخية والأثرية. ولكن برزت أمامنا مشكلة التوفيق بين هذين النوعين المختلفين من الأدلة.

أما من الناحية التاريخية فهناك نوعان هامان من الحوادث التي وقعت في هذه الفترة هي (١) الاضطرابات التي سببها الجيرو والتي سجلت في رسائل تل العمارنة، (٢) استقرار الإسرائيليين في فلسطين، وقد ورد ذكر ذلك في التوراة.

تقع فترة رسائل تل العمارنة بين الأعوام ١٣٩٠-١٩٦٥ ق.م. أما زمن الاستقرار الإسرائيلي فمدار خلاف كبير بين العلماء وجميعهم عدا القليل منهم مجمعون على أن هذا الاستقرار قد حدث خلال الأعوام ١٤٠٠-١٢٠٠ ق.م.

إن رسائل تل العمارنة عبارة عن سلسلة من الوثائق التاريخية عثر عليها في موقع تل العمارنة في دلتا النيل في قصر الفرعون اخناتون، وهي تقدم لنا الأسباب التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الآسيوية التي أعاد بناءها تحتمس الثالث.

لقد ثارت المدن الآسيوية الواقعة في شمال سوريا بتحريض كبير من الحثّين وقد حذا حذو هذه المدن، المدن الكنعانية الواقعة في الجنوب. ونتيجة لتلك الثورات

أو بسببها ظهرت في المدن الثائرة عصابات من الجيرو الذي كانوا كما مر سابقاً أخلاطاً من جماعات محاربة تضم عناصر شتى كانت تغتنم فرصة قيام مثل هذه الثورات وأحياناً كثيرة كانت تذكي أوارها.

كتب رسائل تل العمارنة حكام تلك المدن الذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم لمصر، وأهمهم حاكم القدس الذي كتب رسالة أشار فيها إلى الوضع المتدهور في فلسطين طالباً المساعدة المصرية العاجلة ضد الغزاة والثائرين. وكما مر سابقاً فإن هذه الرسالة تعكس صورة عامة للعناصر المختلفة التي استقرت في فلسطين في العصور السالفة، وتدل على أنه كان بين الحكام من يحمل أسماء حورية. أما المساعدة فلم ترسل وفقدت مصر سيطرتها على البلاد ولم تسترجعها إلا عندما دب الضعف والوهن في حكومات الشمال التي لم يعد في مقدورها التقدم جنوباً أبعد من بحيرة طبريا.

أما قصة التوراة الشهيرة فتصف وصول الإسرائيليين إلى فلسطين بعد فترة إقامة في مصر. وتذكر أنهم دخلوا البلاد من الجهة الشرقية عبر وادي الأردن، وبعد دخولهم انتشروا في القسم الجبلي. ويذكر المصدر أن رسائل العمارنة والتوراة أن القدس قاومت الغزاة مقاومة شديدة. وتدل الحوادث التي سجلت في المصدرين على تشابه كبير بينهما، فهي تشير إلى غزو القبائل البدوية أو النصف بدوية وإلى استقرارها بين السكان والكنعانيين. وتختلف الآراء حول المدى الذي يشير فيه المصدران إلى نفس الحوادث من عامة الوجوه التي تتعلق بالمغيرين والذين أغير عليهم، إذ ليس جميع علماء اللغة على استعداد لأن يتقبلوا كلمة عبرانيين على أنها مساوية لكلمة جيرو بالرغم من أن الأكثرية منهم تقبل ذلك. وعلى كل الأحوال فليس هنالك في رسائل تل العمارنة أو أي مصدر مصري آخر أية إشارة على خروج العبرانيين من مصر.

لقد كانت حادثة الخروج حادثة رئيسية هامة في تاريخ العبرانيين، أصبحت المساعدة الإلهية التي أضفت عليها اعتقاداً قوياً راسخاً أدى إلى تطور الديانة اليهودية فيما بعد. لذا فعلينا أن نقبل الأساس التاريخي لهذه الحادثة سيما وأن الأدلة الحديثة تشير إلى إمكانية كتابة الوثائق في عهد قديم جداً لا نتوقع فيه أية كتابة.

وعلى أية حال هنالك اعتقاد سائد بين العلماء هو أن قصة التوراة عبارة عن مزيج من عدة مصادر قديمة مختلفة. وهنالك نظرية لاقت رواجاً وقبولاً لدى كثير من العلماء تشير إلى وجود دليل في التوراة يدل على أن قسماً من القبائل الإسرائيلية فقط هو الذي خرج من مصر وكون الأمة الإسرائيلية فيما بعد. وأصحاب هذا الرأي يعتقدون أن الأثر الديني القوي لحادثة الحرق كان من الأهمية بمكان لدرجة دفع بجميع القبائل الإسرائيلية التي خرجت أو لم تخرج على الاعتقاد بأن أجدادها قد اشتركوا في هذه الحادثة. ولهذه النظرية عدة مزايا وخاصة أنها تذهب إلى الماضي السحيق حيث نستطيع أن نوفق بين قصة التوراة الدينية وغيرها من السجلات التاريخية وبين الأدلة الأثرية.

إن هذا الكتاب لم يقصد به مناقشة هذه النظرية أو غيرها من النظريات بوضوح، ولا مناقشة الإطار الأثري الذي يستطيع أن يحوي أو يناسب أياً منها طالما هو يعنى مبدئياً وقبل كل شيء بالحقائق التاريخية؛ إذ يهم كاتب الكتاب هذا أن يشير هنا إلى أنه من المضيعة للوقت أن يحاول المؤرخ إيجاد التشعبات الفرعية التاريخية المختلفة التي امتدت زهاء أربعين و ثلاثين سنة عندما يتناول بالبحث فترة تاريخية تمتد عدة قرون عبر التاريخ. فقصة التوراة مملوءة بالتشعبات الفرعية التي لا فائدة منها عند استقصاء الخطوط العريضة لحادثة هامة كحادثة الخروج، ويدل على صحة هذا لقول الحقيقة التاريخية القائلة أن امتزاج الحوادث المختلفة أو حذفها أو تكرارها يؤدي حتماً إلى نتائج مختلفة تتناسب والنظريات المختلفة التي يأتي بها

كتاب مختلفون. ويجب أن يكون واضحاً أن التشعبات المختلفة ليست سوى عبارات مألوفة تطلق على مرور فترة زمنية محددة ترافق فترة طويلة هامة يتذكرها الناس دوماً. وبالرغم من أن الذاكرة دقيقة في تحديد تاريخ الوقائع العامة إلا أن التشعبات تبدو قصيرة بالنسبة للدقة التاريخية. فعند عدم توفر تاريخ منظم (لا يوجد أي دليل يشير إلى أن الإسرائيليين استعملوا التقويم المصري) على المرء أن يتذكر أن حادثة ما قد حدثت زمن جده أو زمن سلفه من الأجداد.

إن الهدف من هذا التوضيح هو تحديد الدليل الأثري، ولكن يجب أن نعرف سلفاً أن الدليل الأثري لا يمكن أن يؤدي إلى أية معلومات إلا إذا أخذت بعض نواحيه فقط بعين الاعتبار. والناحية الرئيسية التي يجب أن نأخذها هنا بعين الاعتبار هي أن نفترض أن الاحتلال الإسرائيلي لمدينة ما ربما رافقه خراب وهدم تلك المدينة، ولكن ليس من المحتم أن يخلف الخراب والهدم أي تغير في سير الحضارة.

إنه من غير المحتمل جداً أن يكون لدى الجماعات الرحل سواء أكانوا من الحيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل تل العمارنة أو من لإسرائيليين الذين ورد ذكرهم في التوراة أية أداة ضخمة تقاوم عاديات الزمن؛ إذ ربما كانت معظم أوعيتهم من الجلد وأنهم كانوا يفتقرون إلى أثاث وزينة للبيوت. وربما كانت أماكن عبادتهم أيضاً مؤقتة تخلو من أي شيء ثابت.

إن التاريخ وعلم الآثار يشيران مراراً وتكراراً إلى المحاولات التي قامت بها تلك الجماعات الرحل كي تستقر بين أقوام متحضرة وتأخذ بأسباب حضارتها (يعكس علم الآثار وحده هذه المحاولات). ويؤكد علماء الاثار أن هده المحاولات قد تمت في الفترة الواقعة بين السنوات ١٤٠٠-١٢٠٠ ق.م.؛ أي في مجيء العبرانيين إلى فلسطين لأنها تخلو من أية فجوة تامة، ولكن حدث في الحقيقة أعظم تغير حضاري في بداية هذه الفترة؛ أي عند انتقال الإنسان من العصر البرونزي الحديث الأول إلى العصر

البرونزي الحديث الثاني، حيث بدت على الحضارة علائم التأخر والانحطاط. أما بالنسبة للفخار مثلاً فقد استعملت أنواع من الصحون ذات أشكال وصناعة بسيطة جداً، وهذه الأنواع هي أحط حلقة وأقلها جاذبية في سلسلة أنواع الفخار الفلسطيني، ولم يستطع علماء الآثار أن يميزوا آثار هذه الفترة التي انحط فيها المستوى الفني والصناعي.

إن وصفاً كهذا يعكس جيداً سير الحوادث طوال فترة التأقلم والاستقرار بعد حياة التجوال والترحال التي كانت تعيشها جماعات الجيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل العمارنة، وجماعات الإسرائيليين الذين ورد ذكرهم في التوراة. وعلى هذا الأساس لا نستطيع أن نستنتج قيام فتوحات جديدة أو اعتماداً على قواعد أثرية أن نقول في أي وقت حدث ذلك أو أية أمكنة سقطت بأيدي الغزاة.

أما دلائل الهدم والخراب فمتوفرة. ولكنها حتى الآن لا نستطيع أن تكوّن قصة متواصلة متماسكة. وتنفرد مدينة أريحا بين المدن الفلسطينية التي احتلها العبرانيون بأنها تحوي أكثر الأدلة التاريخية التي من هذا القبيل، ويصعب على المرء أن يتجنب تأثير السجلات التي دونت بعد فترة طويلة جداً معتمدة على ذاكرة الأفراد وعلى القصص والأحاديث المتوافرة لحادثة هامة يتوارثها وينقلها من السلف.

يجب أن نتوقع حدوث احتلال أريحا عند أول عبور للعبرانيين إلى فلسطين من جهة الشرق، وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي الذي أشرنا إليه، لذا ستكون الأدلة الأثرية الدالة على انتهاء العصر البرونزي في أريحا من الأهمية بمكان، لأنها تحدد لنا تاريخ دخول العبرانيين إلى فلسطين. ولسوء الحظ تبين أن الأدلة الأثرية لا تفي بهذا الغرض مطلقاً، لأنه لم يبق فوق مستوى حط التحات والتعرية الذي يغطي مستوى العصر البرونزي المتوسط سوى بقايا أبنية. والأبنية الوحيدة التي ترجع في تاريخها إلى هذه الفترة هي البناء المتوسط الذي عثر عليه البروفسور جارستانج، وجزء

بسيط من بيت عثر عليه سنة ١٩٥٤. أما في البناء المتوسط نفسه فلم يجد العلماء أي دليل تاريخي حقيقي، وكل ما وجدوه فيه عبارة عن بعض القطع الفخارية التي ترجع للعصر البرونزي الحديث وربما للقرن الرابع عشر ق.م. وقد وجدت هذه القطع في الطبقة التي تلي أرض البيت. أما البيت البسيط فيكون فقط من أسس جدار واحد ومن متر مربع واحد من أرض ذلك البيت عليه فرن فخاري صغير وبجانبه كأس صغير. أما بقية مساحة الجزء فكانت من السطح الحديث، لذا لم يجد المنقبون فيها شيئاً. لذا انتقلوا إلى مكان آخر بعيداً إلى الشمال علهم يجدون أبنية أخرى، ولكنهم وجدوا أخاديد عظيمة حفرتها سيول الأمطار في الأرض حتى مستوى العصر البرونزي المتوسط، وقد امتلأت الأخاديد بأنقاض المساكن التي أقيمت في العصر الحديدي القديم الثاني.

ظن العلماء الذين قاموا بأولى الحفريات في أريحا أنهم عثروا على الأسوار الدفاعية التي كانت تحيط بمدينة العصر البرونزي الحديث – وظنوا أيضاً أن زلزالاً وحريقاً هما سبب هدم هذه الأسوار. ولكن تبين فيما بعد من خلال الحفريات التي تلت أن العلماء الأوائل قد أخطأوا في تحديد تاريخ هذه الأسوار إذ تبين أنها ترجع فعلاً إلى العصر البرونزي القديم وأنها دفنت دون شك تحت أنقاض وانجرافات العصر البرونزي المتوسط التي أخطأوا تاريخها أيضاً. وفي الحقيقة لم يبين من أسوار العصر البرونزي المتوسط أي شيء على حالة وعلى نفس ارتفاعه إلا مكان واحد يقع في أعلى مكان من التل في الزاوية الشمالية الغربية. أما في غيره من الأماكن فقد وصل الانجراف أسفل طبقات العصر البرونزي المتوسط عدا في المنحدرات القريبة من القلعة، الواقعة في الجانب الشرقي من التل. وفي هذا الجزء فقد عثر المنقبون على بقايا بيوت العصر البرونزي الحديث وقد سبق وصفها الباحث. وتدل هذه البيوت على أنه كان هنا مدينة قائمة في هذه الفترة رفضت الحفريات الحديثة الأخذ بالتواريخ التي توصلت إليها بعثات الحفر السابقة. وكل ما يمكن للمرء أن يقوله هو

أن الكأس الصخرية الذي وجد إلى جانب الفرن الفخاري يمكن أن يرجع في تاريخه إلى القرن الرابع عشر.

لقد عثرت الحفريات القديمة على كمية لا بأس بها من الفخار، ومن دراستها ودراسة المخلفات الأثرية التي وجدت داخل قبور هذه الفترة تبين أن الحياة قد استؤنفت في المدينة حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م. ثم عادت وتوقفت ثانية سنة ١٣٢٥ ق.م. وقد جرفت السيول تقريباً كل أثر لهذه الفترة.

أجمع علماء الآثار على أن هذه الانجرافات قد حدثت بعد خراب مدينة العصر البرونزي المتوسط. وتروي قصة التوراة أن مدينة أريحا لعنت وهجرت مدة تبلغ أربعمائة سنة. وتدل الأنقاض التي ملأت الأخاديد التي حفرتها مياه الأمطار في العصر الحديدي القديم على أن الانجرافات قد حدثت قبل ذلك التاريخ، ويدل وجود فرن صغير لا يزال قائماً في مكانه على هجر المدينة، ولو أن بناء المدينة قد جدد لهدم الفرن وسوي مكانه بجميع مستوى الأرض حوله. لذا يدل وجود الفرن على خراب المدينة وبالتالي على هجرها، ويظن العلماء أن هذا قد حدث في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

لذا فمن الممكن أن نعثر في أريحا على دليل يدل على تاريخ استيطان الشعب اليهودي في فلسطين؛ ذلك الشعب الذي اتحدت عناصره معاً وكونت المملكة الإسرائيلية المتحدة زمن داود، ولكن يظن الكثيرون أن الأجزاء التي كونت هذا الشعب والقصص الواردة في التوراة حوله جميعها ذات أصول مختلفة. لذا، ليس من الضروري أن نحاول التوفيق بين مجريات الحوادث التي وضعتها التوراة وبين الأدلة التاريخية. ومحاولة من هذا القبيل هي بكل تأكيد عمل شاق جداً.

وعندما يتأكد المرء من أن المملكة الإسرائيلية القوية لم تقم إلا حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. أي بعد أربعمائة سنة من التاريخ الذي اقترحه أولئك الذين يصدقون أي تاريخ

قديم أعطي لحادثة الخروج، أو بعد ٢٥٠ سنة من التاريخ الذي اقترحه لهذه الحادثة علماء آخرون، يبدو أن عملية انتشار اليهود ثم ضمهم في أمة واحدة كان بطيئاً جداً.

إن قصة التوراة تروي لنا قصصاً وحوادث تحتاج لوقت طويل لحدوثها. ثم عمل الكتاب والمحققون على جمعها وتنسيقها في قالب تاريخي يصعب على المرء أن يختبر صحته ضمن حدود الشواهد والأدلة الأثرية التي أشرنا إليها سابقاً. وعلى هذا يستطيع المرء أن يصف مجريات الحوادث في المواقع المختلفة حسبما أظهرتها الحفريات الأثرية. ولا يزال حتى اليوم الدور الذي قام به العبرانيون فيها غير مؤكد وغير واضح.

كان تل حازور من المواقع الأخرى الهامة (كتاب يوشع ١١-١٠) التي سقطت بأيدي العبرانيين بقيادة يوشع بن نون في المراحل الأولى من حروبه. وقد كانت من أمنع مدن الكنعانيين، ولا تزال الحفريات (١٩٥٩) مستمرة فيها. وحتى اليوم لم تظهر عنها سوى التقارير الأولية. وتشير المعلومات الأثرية على أنها كانت حقاً مدينة قوية تحميها أسوار وحصون منيعة أقيمت في العصر البرونزي المتوسط الثاني ويبدو أن الاستيطان في هذه المدينة كان متواصلاً حتى العصر البرونزي الحديث واستمر حتى أوائل القرن الثالث عشر. وتشير الدلائل إلى أن الفخار الذي تم العثور عليه في حازور يحوي أنواعاً أحدث من تلك التي وجدت في أريحا. وهذا يتفق مع الانتشار التدريجي للسيطرة الإسرائيلية في المراحل الأولى من دخول فلسطين التي ورد ذكرها في التوراة في سفر القضاة (٢-٤). كانت بيتل Bethel من الأماكن الأخرى التي ورد ذكرها في التوراة في المراحل الأولى من الفتح الإسرائيلي. وقد دلت الحفريات على أنه كان فيها في العصر البرونزي الحديث مدينة زاهرة ذات بيوت جميلة البناء جداً على خلاف المألوف، ويمكن قسمة تاريخ المدينة في هذه الفترة إلى مرحلتين يفصل بينهما طبقة من الأنقاض.

ترجع المرحلة الأولى من تاريخ المدينة إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر، بينما ترجع الثانية إلى القرن الرابع عشر وأوائل القرن الثالث عشر. وقد نزل الخراب بالمدينة بين الفترتين، مما يدل على اضطراب الحالة في البلاد، ولكن لم يسبب ذلك توقف الحضارة بشكل ملموس. أما الفترة الثانية فقد انتهت بحريق هائل ترك طبقة من الأنقاض يبلغ سمكها حوالي المتر والنصف ثم تلا هذه الفترة توقف في الحياة لفترة من الزمن، ثم استؤنفت حياة من نوع فقير جداً. وينسب البروفيسور البرايت هذا الخراب إلى أعمال الإسرائيليين.

يقع تل بيت مرسيم في جنوب فلسطين. وقد ذكرنا سابقاً أن المدينة قد هجرت في نهاية العصر البرونزي المتوسط ثم عادت الحياة إليها ثانية حوالي سنة ١٤٥٠ ق.م ويقسم الاستيطان في العصر البرونزي الحديث إلى قسمين يفصل بينهما طبقة من الأنقاض سميكة في بعض أجزائها، وترجع في تاريخها إلى حوالي سنة ١٣٥٠ ق.م.

كانت حضارة المرحلة الثانية نموذجاً للحضارة المتأخرة في العصر البرونزي الحديث الثاني الذي يعكس جيداً الأحوال المضطربة التي نجمت عن صراع الحضارة الكنعانية ضد أو امتصاص الجماعات المتنقلة من الجيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل العمارنة، أو العبرانيين الذين ذكروا في التوراة. ويستحيل علينا من الأدلة المتوفرة الآن أن نقول إن الموجودات الأثرية تعكس انحطاط الشعوب القديمة، أو هي تدل على أولى مراحل عمارة الشعوب الجديدة.

ويدل على عقم الفن في هذه الفترة طبق القربان الحجري ومثله في رداءة الصنع اللوحات التي تمثل عشتاروت: تلك اللوحات التي كانت أعظم اللوحات الدينية انتشاراً في جميع أماكن هذه الفترة تقريباً. ولا يعني وجود هذه اللوحات التي لها علاقة بالديانة الفينيقية في مكان ما على أن المكان لم يخضع بعد للسيطرة الإسرائيلية، لأن تل مرسيم نفسه يقدم لنا الدليل الواضح على استمرار وجود هذه

اللوحات وغيرها من التماثيل الدينية حتى القرن السابع ق.م. ويكفي دليلاً التشهير الذي قام به الأنبياء ليدل على أن الديانة اليهودية كانت في صراع مستمر مع ديانة البلاد القديمة.

انتهت الحقبة الثانية من العصر البرونزي الحديث في بيت مرسيم بخراب ثان شامل وتام، ويرجع البروفسور البرايت تاريخ هذا الخراب إلى حوالي سنة ١٢٣٠ ق.م. ويعتبره من أعمال الإسرائيليين. وقد يكون هذا ممكناً، ولكن ليست لدينا الأدلة الكافية على صحته، لأن هنالك حوادث تاريخية أخرى يجب أن نعيرها قسطاً من العناية والاهتمام وهي بالتحديد غارات منبتاح فرعون مصر على فلسطين حوالي سنة ١٢٣٠ ق.م. وغارات سكان البحار حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م.، ولكن حضارة سكان الطبقة التالية التي قامت على حضارة العصر البرونزي الحديث السابقة لا تؤيد كما مر سابقاً أو تنفي إن كان أصحابها ينتسبون إلى شعب جديد أم لا.

تدل آثار تل دوير على أن الحضارة الكنعانية قد استمرت دون توقف حتى نهاية القرن الثالث عشر حيث تلا الهيكل الذي أقيم في الخندق الذي جاء وصفه في بداية هذ الفصل هيكل اخر أعظم من سابقه سنة ١٤٠٠ ق.م. ثم تلا الهيكل الثاني هيكل ثالث سنة ١٣٢٥ ق.م. (PL 44) لقد بقيت خارطة الهياكل الثلاثة هي نفسها، ويعتقد المنقبون أن سبب تجديد الأبنية لا يرجع لخراب أو هدم بل لزيادة في الثروة والازدهار تطلبت بناء أكبر حجماً وأعظم رونقاً. وعند المقارنة تبين أن الهيكل الثالث قد زال بسبب خراب عظيم انعكست أصداؤه على المدينة نفسها، وأعظم احتمال لتاريخ هذا الخراب هو حوالي سنة ١٢٣٠ ق.م. ويمكننا أن ننسب هذا الخراب إلى حروب منبتاح التأديبية او للأعمال الإسرائيلية اعتماداً على ما نزل بلاخيس التي ينطبق موقعها بكل تأكيد على هذا المكان، والتي ورد اسمها ضمن قائمة المدن التي اجتاحها الإسرائيليون.

نعود ونكرر ثانية أن معرفتنا بتاريخ الآثار التي وجدت في هذه الأماكن وخاصة الفخارية منها لا تزال حتى الآن غير دقيقة تماماً، لذا يستحيل علينا أن نقبل بتاريخ أحدث من التواريخ التي ذكرت سابقاً ولو ببضع سنين، كما لا نستطيع أن نستبعد الرأي المعاكس الذي ينسب هذا الخراب إلى شعوب البحر. واعتماداً على أسس تاريخية فإن الأدلة على سير الحوادث في مدن الشمال العظيمة مثل بيسان ومجدو الواقعتين على أطراف مرج ابن عامر تشير إلى أنها سلكت سلوكاً مغايراً لسير الحوادث التي حدثت في المدن التي تم وصفها، وذلك لوقوعها بأيدي الإسرائيليين في زمن متأخر نسبياً.

ففي مجدو نزل الخراب المحتوم بالمدينة الثامنة التي ترجع للعصر البرونزي الحديث الأول حوالي سنة ١٣٥٠. وقد اقتفت المدينة السابعة هندسة سابقتها بكل دقة، وتدل الأبنية الرئيسية التي تم الحفر عنها مثل الهيكل والقصر والبوابة التي سبق وضعها على أنها بنيت على نفس الأسس السابقة.

تنقسم الطبقة السابعة إلى قسمين بسبب خراب نزل بها، وقد دل على ذلك التركيب الجيولوجي لهذه الطبقة وهندسة أبنيتها، ولكن لم يرافق هذه الأدلة أي دليل يشير إلى حضارتها أو إلى توقف سير تلك الحضارة، لأن الخراب كان تاماً وشاملاً. ولأن الأنقاض قد طمست معالم القصر السابق كلية ثم قام فوقها قصر جديد على نفس الهندسة والتخطيط. ويشير هذا إلى أن موقعاً حصيناً كمجدو قد تعرض أيضاً إلى موجة القلاقل والاضطرابات التي سادت هذه الفترة، ولكن في نهاية هذه الفترة لم تستسلم المدينة بسهولة للأخطار الجديدة التي حدثت سنة ١٢٠٠ ق.م. حيث يبدو أن الطبقة السابعة قد استمرت فعلاً حتى سنة ١١٥٠ ق.م.

أما من ناحية ثانية فإن مجدو لا تشبه المواقع الأخرى التي توفرت لدينا أدلة عنها، لأن مستوى الحضارة فيها لم يبلغ مستوى التدهور والانحطاط الذي بلغته حضارة المواقع الأخرى. فالأبنية التي تم الكشف عنها تدل على تقدم هندسي، والفخار الذي

عثر عليه ليس من النوع غير الجديد بالاهتمام، لأن أشكال الصحون الرديئة التي وجدت في الأماكن الأخرى لا أثر لها مطلقاً في مجدو، كما أن الزخرفة التي وجدت في العصر البرونزي الحديث الأول استمرت حتى هذه الفترة، ولكن برونق أقل من السابق. وأهم شيء تم العثور عليه في مجدو هو مجموعة العاج التي وجدت ضمن آثار قصر يرجع للمرحلة السابعة، وتدل هذه المجموعة على ذوق حضاري رفيع على الأقل لدى أفراد الطبقة الحاكمة. وقد وجدت هذه المجموعة العاجية التي ترينا اللوحات (٤٥-٤٦) نماذج منها داخل غرفة صغيرة يظن البعض أنها كانت المكان الذي تحفظ فيه كنوز القصر وتحفه النادرة. وكانت معظم قطعها محطمة ومبعثرة في اتجاهات عدة. وربما حدث هذا عندما نهبت المواد الثمينة المحفوظة معها.

ويعتقد العلماء أن هذه المجموعة العاجية كانت أصلاً تزين أثاث القصر، ولما كانت الغرفة صغيرة جداً لا تتسع لوضع أثاث فيها لذا يظن أن المجموعة خزنت في الغرفة لحفظها فقط كمجموعة فنية. وقد وجد داخل الغرفة أيضاً مقلمة Pen-case تحمل نقوشاً ترجع إلى عهد رعمسيس الثالث، مما يدل على أن تاريخ المقلمة يرجع إلى القرن الثاني عشر ق.م. بينما ترجع أقدم الأشياء التي وجدت إلى القرن الرابع عشر ق.م. وجميع ما وجد يدل على فن وذوق وجد شبيه بهما في مصر وقبرص وفينيقية، ويدل هذا على أن مجدو كانت على اتصال وعلاقات طيبة مع أفضل البلاد حضارة في هذه الفترة، ولكن ربما نالت مجدو نصيبها من القلاقل والاضطرابات السياسية التي سادت البلاد في هذه الفترة إلا أنها لم تنحدر لتنغمس في نجم البربرية والهمجية الآخذ بالتلاطم وعلو الأمواج آنذاك.

يتوقع العلماء أن يجدوا حضارة راقية جداً في بيسان، لأنها كانت أيضاً مدينة حصينة جداً بالإضافة إلى علاقتها الطيبة مع مصر، ولكن معلوماتنا عن هذه المدينة تنحصر في مساحة صغيرة محدودة تم حفرها، وقد دلت الحفريات على تعاقب بناء هياكل فوقها. كما وجدت في هذه المساحة كمية من الجدران المصرية

والأشياء الأخرى يرجع تاريخها إلى عصر تحتمس الثالث ووجد عمود أقامه سيتي الأول الذي حكم مصر في الأعوام (١٣٢٠-١٣٠١) وتمثال لرعمسيس الثالث الذي حكم مصر في الأعوام (١٢٠٤-١١٧٢) وكل هذا يدل على سيطرة مصر على المدينة وعلى العلاقات الطيبة بينهما. وقد حوت السجلات المصرية عدة تلميحات وإشارات إلى مدينة بيسان وتدل سلسلة الهياكل التي تم التنقيب عنها على مدى التأثير المصري المتزايد على حياة المدينة.

يرجع أقدم الهياكل التي بنيت في الطبقة التاسعة إلى عصر تحتمس الثالث (١٥٠١-١٤٤٧) ق.م. وينتهي تاريخه الفعلي حوالي سنة ١٣٥٠ ق.م. كان بناؤها حسب الطراز الكنعاني المتعدد القاعات والمذابح ذلك الطراز الذي لم يكن قد تبلور بعد، وقد عثر المنقبون داخل هذا الهيكل على عمود يمثل الآلهة الكنعانية.

أما الهيكل الثاني الذي أقيم فوق الطبقة السابعة فيرجع في تاريخه إلى حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. – ١١٥٠ ق.م. وهو يمثل تطوراً عظيماً في هندسة الهياكل حيث بني في مقدمته بهو سقف جزء من سقفه كما بني في نهايته معبد. ويعتقد البعض أن هذه الهندسة شبيهة بهندسة المعابد المصرية الصغيرة التي بنيت في القرن الرابع عشر، وخاصة معابد عترة تل العمارنة. ويعتقد أن هذ الهيكل لا يختلف عن غيره من الهياكل السامية التي وجدت في أماكن أخرى في فلسطين مثل تل الفارعة. وهنالك أدلة كثيرة تشير إلى أن الديانة الكنعانية الأصيلة لم تتبدل مع الزمن بسبب خصوصيتها وتعدد نواحيها، فهي ترتبط بعشتروت، وربما بإله العواصف ميكائيل الذي يرتبط بالإله السوري رشف Reshef.

لم يعثر المنقبون في الطبقات التي تم حفرها في بيسان على أي دليل لخراب أو دمار داخل الهيكل حتى زمن سيتي الأول على الأقل (فإن وجود الحامية المصرية من شأنه أن يكون كافياً لحماية المدينة من اضطرابات هذه الفترة.

إن إقامة نصب سيتي الأول في بيسان يقدم لنا وثيقة هامة عما كان يجري في البلاد آنذاك. لقد كان سيتي أول ملك يستعيد السلطة المصرية على فلسطين بعد كوارث فترة تل العمارنة ويقضي على عدد من قطاع الطرق وعصابات الغزاة. وقد وجد على هذا العمود كتابة فحواها أنه في السنة الأولى من حكمه (١٣٢٠ ١٣١٩ق.م.) أغارت جماعات من الغزاة عبر الأردن على مدينة بيسان وما جاورها من المدن، وقد تضمنت هذه الكتابة وصفاً للحرب التي قضى فيها سيتي على هؤلاء. وقد وجدت على نصب آخر (لسوء الحظ لم يقرأ إلا جزء منه) وصف لانحدار العبريين Apiru الذين أتوا من جبال الأردن (لم يتأكد العلماء من قراءة الكلمة الأخيرة) وقد سبق وأشرنا إلى أن الكلمات عبريون، جيرو، عبرانيون هي كلمات تدل على مدلول واحد لدى كثير من العلماء، ولدينا هنا دليل يشير إلى أن جماعات من الغزاة قد انضمت إلى الجيرو أصحاب رسائل تل العمارنة، وأخذت تعيث فساداً أينما حلت وحيثما توجهت، وربما كانت هنالك علاقة بين هذا الدليل وبين قصة التوراة التي تذكر أن سبط منسي Manasseh فشلت في الاستيلاء على مدينة بيسان.. ولكن ليست لدينا في الوقت الحاضر الأدلة الكافية على صحة ذلك.

إن نتائج الحفريات التي تم وضعها ترينا مدى تأثير غارات البدو الرحل على البلاد، وقد توفرت لدينا أدلة تاريخية عن هذه الغارات منذ القرن الرابع عشر وما بعده، وتدل جميعها على أن جميع المدن عدا الحصينة جداً منها قد تعرضت لخراب ودمار بسبب غارة أو أكثر، وكان من نتائج الغارات استقرار المغيرين أحياناً في المناطق التي أغاروا عليها، كان من نتائجها أن انحطت الحضارة وذوى الازدهار، أما السيطرة المصرية على الطريق البري الهام فقد كانت قوية جداً لدرجة أنها حفظت الأمن والنظام في المناطق والمدن التي تمر بها هذه الطريق. كان من نتائجها أن ازدهرت الحضارة وتقدمت في المدن الوافدة على هذه الطريق. وهنالك دليل يشير إلى أنه حتى في البلاد المتأخرة والمضطربة الواقعة داخل البلاد أتاحت السيطرة

المصرية القوية للعلاقات التجارية أن تستمر مع منطقة حوض البحر المتوسط، ويدل على هذا استيراد كميات كبيرة من فخار قبرص ومدن السواحل السورية، وقد وجدت كميات كبيرة من هذا الفخار في المواقع التي تم الحفر فيها داخل البلاد.

في هذه الفترة تم استقرار الإسرائيليين نهائياً في البلاد، وقد ورد اسمهم ضمن قائمة الشعوب التي قهرها منبتاج سنة ١٢٣٠ ق.م. وطردها من البلاد، ولكن لم تتوفر لدينا حتى الآن نتيجة للحفريات التي تمت أدلة قاطعة على كيفية سير عملية الاستقرار هذه.

الفصل التاسع

الفلسطينيون وبداية العصر الحديدي القديم

حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. حدثت هنالك كارثة عظيمة أدت إلى توقف سير الحضارة في جميع بلدان شرقي البحر المتوسط، وساد البلاد عصر مظلم شبيه بذلك العصر الذي تلا سقوط الإمبراطورية الرومانية في أوروبا بعد ألف وستمائة سنة نتيجة حوادث مشابهة، هي غارات القبائل البربرية في أوروبا. أما في الشرق الأدنى فقد استسلمت الإمبراطوريات العظيمة جميعها أو اهتز كيانها اهتزازاً عظيماً نتيجة تلك الغارات. أما فلسطين فلم تبلغ الكارثة فيها أوجها، لأنها لم تكن تلك الفريسة الدسمة كالإمبراطوريات العظيمة، ولكن وقوعها على الطريق البري الواصل بين آسيا الصغرى التي ربما كانت موطن بعض القبائل المغيرة، ومصر لم يحرمها من أن تنال قسطاً وافراً من هول تلك الكارثة.

إن قصة هجمات شعوب البحر على مصر قد سجلت كتابة على النصب التذكارية التي أقامها رعمسيس الثالث فرعون مصر. ففي الهجوم النهائي العظيم سنة ١١٩٦ ق.م. أتت تلك الشعوب من البر والبحر. ولكن الفرعون المصري استطاع أن يردهم على أعقابهم خاسرين بعد معارك برية وبحرية طاحنة. وقد ادعى رعمسيس إحراز نصر مؤزر في هذه الحروب، استطاع بعده أن يخترق فلسطين بجيوشه ويستمر في هجومه شمالاً حتى بلاد الحثيين في شمالي سوريا، لأن الإمبراطورية الحثية كانت قد تزعزعت أيضاً بسبب غارات شعوب البحر، ولكن بالرغم من الانتصارات التي ادعاها رعمسيس فقد سمح للقبائل المغلوبة أن تستوطن سواحل سوريا وفلسطين.

ويشك الكثيرون في هذه المعاملة لو أن انتصارات رعمسيس كانت فعلاً حاسمة على تلك القبائل كما ادعى. وعلى أية حال فإن فشل المغيرين في شق طريقهم بالقوة عبر مصر أدى إلى استقرار بعضهم على الأقل في فلسطين.

تشير السجلات المصرية بوضوح إلى أن شعوب البحر كانوا أخلاطاً من عدة قبائل. وتذكر الكتابة التي وجدت على نصب رعمسيس الثالث التي أقامها في مدينة حابو ستاً من هذه القبائل هي — البلاساثيون Pulasatior والفلسطينيون Philistines والشردان Shardann الدانينو Danuno الشكلس Shokelesh الزكالا Zakkaa الوشاش Washasha.

بينما تذكر بعض المصادر المصرية الأخرى ثماني قبائل أخرى. وقد استطاع علم الآثار أن يزيل قليلاً من الغموض الذي يكتنف أصل هذه القبائل، وترجع قصة التوراة أصل الفلسطينيين إلى كافتور Caphtor التي يعتبرها كثير من العلماء، أنها كيفتو المصرية Keftiu أي كريت. وقد دلت الدراسات اللغوية على أن الدنانين والدانوين والأكويشين (ورد اسم هذه القبائل في سجلات منبتاح Merneptah) هم من أقرباء الأخائين، وبذا يرتبط نسب شعوب البحر بالقبائل التي ورد ذكرها في إلياذة هوميروس. أما الأدلة الأثرية المتوفرة لدينا فلا تتعارض على الأقل مع هذا القول.

لقد توفرت لدينا مادة أثرية واحدة ذات صلة أكيدة بالقادمين الجدد، وهي نوع من الفخار جديد كلية على فلسطين يمتاز بزخرفته بأشكال ونماذج راقية خاصة. وأهم مميزات هذه الزخرفة وجود أشكال تحوي نماذج طيور غالباً ما تكون رؤوسها ملتفتة إلى الوراء، تحيط بها أفاريز حلزونية الشكل وعدد من أنصاف الدوائر المتداخلة والمتشابكة معاً. وترجع أشكال الأواني وعناصر الزخرفة جميعها إلى فن صناعة الفخار الهلينية الحديثة عند الإيجيين. وقد اتضح أن أعظم تشابه بين

الفخار الفلسطيني والإيجي هو الموجود بينه وبين فخار كل من رودوس وقبرص، فالأواني الفلسطينية هي نسخ طبق الأصل عن فخار هذين المكانين. وكذلك العناصر الداخلة في الصنع والزخرفة مع اختلاط طفيف في المزج. ويرجع الأصل الذي تطورت عنه النماذج الفلسطينية إلى نهاية القرن الثالث عشر ق.م. بينما النماذج الجديدة التي شاع تداولها سنة ١٢٠٠ ق.م. لا تمت إلى أي أصل بصلة. وقد لاحظ العلماء أن عناصر مصرية قد أخذت تدخل هذه الصناعة ويعللون ذلك بأن الشردانين وغيرهم من الشعوب المتحالفة قد اعتادوا فعلاً أن يخدموا كمرتزقة في مصر.

إن عناصر الأواني الفخارية الجديدة لا يختلف عن عناصر الأواني الفلسطينية المحلية. ويستنتج من هذا أن القادمين الجدد لم يجلبوا هذه الأواني الفخارية معهم بل صنعوها في فلسطين مقلدين بذلك الأواني التي اعتادوا استعمالها في بيوتهم، التي يجب أن يكونوا قد غادروها قبل ظهور النماذج الفخارية الجديدة في القرن الثاني عشر. ويجب أن لا نسلم قطعاً بأن هذا الفخار يرتبط حتماً بالفلسطينيين، ولكن الأدلة تؤكد بشدة هذا الارتباط، وأظهرت أن تاريخه يرجع إلى عام ١٢٠٠ ق.م. بينما تشير كتابات رعمسيس الثالث إلى أن غارات شعوب البحر قد حدثت سنة ١١٩٦ ق.م. ويلاحظ من ناحية ثانية أن انتشار هذا الفخار يتناسب جيداً مع المناطق التي احتلها الفلسطينيون، والتي يوجد معظمها في السهل الساحلي وعلى حدود المنطقة الجبلية: أي في المناطق التي احتلها الفلسطينيون عند بدء غاراتهم، بينما نجده متناثراً وبشكل غير منتظم في المنطقة الجبلية نفسها.

وأخيراً فإن الأدلة الأثرية تشير إلى أن هذا الفخار ظهر فجأة على السواحل في نهاية العصر البرونزي الحديث، ولكنه بعد ذلك بقليل ظهر في داخل البلاد. وأفضل أدلة أثرية على ذلك هي تلك التي تم العثور عليها في عسقلان إحدى خمس مدن فلسطينية رئيسية.

إن موقع هذه المدينة واسع تقوم في طبقاته العليا أبنية رومانية هامة، وحتى الآن لم تصل الحفريات في معظم أماكنها إلى أبعد من هذه الطبقات، ولكن سطحاً صخرياً في الطرف الشمالي من التل الرئيسي أظهر أن الطبقات التي تعلوه ترجع إلى أزمنة تاريخية أقدم من العصور الرومانية. وقد تم حفر حفرة وسط هذه الطبقات تبين منها وجود طبقة فاصلة واضحة المعالم تقع في نهاية العصر البرونزي الحديث، وتتكون من طبقة من الرماد يبلغ سمكها حوالي خمسين سنتمتراً. وتدل هذه الطبقة على خراب شامل حاق بالمدينة. وقد وجد المنقبون أسفل هذه الطبقة طبقة أخرى تحوي آثار حضارة هذه الفترة من تاريخ فلسطين: تلك الحضارة المتعددة المشارب والأصول حيث وجدت فيها آثار من قبرص وسينا ومصر. ولكن هذه الآثار تختفي تماماً فوق طبقة الرماد، ويظهر مكانها الفخار الفلسطيني والفخار المحلي الأصل ويدل هذا دلالة محتملة جداً على أن طبقة الرماد هذه تشير إلى الخراب الذي أنزله شعوب البحر بهذه المدينة الكنعانية وإلى أنهم بنوا مدينتهم على أنقاض المدينة السابقة. وقد عثر العلماء في عسقلان وحدها على هذا الدليل الهام المستخلص من تركيب طبقات موقع مدينة فلسطينية هامة، أما بخصوص المدن الأخرى مثل غزة وجات Gath، اشدود، وعاقر التي تم تحديدها وفحصها فإن الأدلة تشير إلى أنها مشابهة لعسقلان. ويستنتج من هذا أن الفلسطينيين لم ينشئوا لهم مدناً خاصة بهم في أية حال من الأحوال. بل كانوا يستولون ويخربون (إن كان تاريخ عسقلان نموذجاً لغيرها من المدن) ثم يقطنون مدناً تخص من سبقهم من الكنعانيين.

إن الفلسطينيين لم يقطنوا مدناً كنعانية فحسب بل أخذوا أيضاً بأسباب حضارتها. واستطاعوا أن ينتجوا نوعاً جديداً متميزاً من الفخار سبق وصفه. ويرتبط هذا النوع بمجموعات القبور وغيرها من الأنواع التي تطورت رأساً من الأنواع الوطنية المحلية التي وجدت في العصر البرونزي الحديث. حتى إن آلهة الفلسطينيين مثل داجون وعشتاروت يبدو أنها آلهة كنعانية، ومن المحتمل جداً أن يكون شبه بينها وبين آلهة

الإيجيين في بعض الصفات. لذا نستطيع القول إن علم الآثار لم يقدم لنا حتى الآن صورة واضحة للفلسطينيين، لأنه لم يتم الحفر تماماً في أية مدينة من مدنهم الهامة للوصول إلى ما هو فلسطيني أو غير فلسطيني ضمن آثار تلك المدينة.

لقد توفرت لدينا بعض الأدلة عن عاداتهم في دفن الموتى، فقد عثر العلماء على خمسة قبور في تل الفارعة تختلف تماماً عن غيرها من القبور من حيث المحتويات والهندسة، فقد وجد بداخلها أوانٍ فخارية جميلة ذات زخرفة فلسطينية. إلى جانبها مجموعة من الأواني الفخارية المحلية البسيطة الصنع ترجع في شكلها إلى نماذج العصر البرونزي الحديث. وكانت هذه المجموعة تحوي كاسات برونزية وخناجر وحراباً معظمها من البرونز، وكان بينها خنجر من الحديد بمقبض برونزي وسكين حديدي نحت قليلاً. وهذا يعطينا أول دليل على ظهور الحديد لأول مرة في فلسطين في انطلاقة رسمية هامة. كانت القبور الخمسة متشابهة في هندستها، ويمكن الوصول إلى داخلها عن طريق درج داخل ممر طويل يؤدي إلى أرض غرفة شبيهة بشبه المنحرف، ولكنها ذات جوانب مستقيمة. ويوجد وسط الغرفة حفرة تقوم على جوانبها المنصات والمقاعد لاستقبال الموتى. وكان في نهاية قبرين منها غرفة ثانوية صغير ذات شكل يشبه المنحرف. ويبدو من الهياكل التي وجدت داخل هذه القبور أن الموتى كانوا يمددون راقدين على ظهورهم.

إن هذه القبور شبيه جداً بمعظم القبور التي وجدت في فلسطين والتي تتكون عادة من غرفة واحدة أو أكثر من الغرف المستديرة المنتظمة. لذا يظن البعض أنها تحمل تأثيراً أجنبياً ربما أتى مع الفلسطينيين من موطنهم الأصلي.

وقد وجد العلماء أن اثنين من قبور تل الفارعة الخمسة التي ترجع في تاريخها إلى العصر البرونزي الحديث شبيهان جداً بهندستهما بقبور الإيجيين. وهذا يدل على مبلغ تأثير إيجه على فلسطين. وقد أيد هذا الأثر العثور على تابوتين من الفخار

بفطائين شبيهين بجسم الإنسان. وهذان التابوتان هما بكل تأكيد غريبان عن المنطقة. وقد تم العثور عليهما في بيسان، وقد وجدت نماذج منهما في عدة مواقع في مصر.

إن تاريخ مدافن بيسان التي يكون القبران جزء منها يرجع إلى العصر البرونزي الحديث الثاني وللعصر الحديدي القديم الأول. أما مدافن مصر فإنها ترجع إلى أزمنة تنحصر بين عصر تحتمس الثالث (١٤٤٧-١٥٠١) ق.م. وعام ٦٠٠ ق.م. وجميع هذه القبور سواء ما وجد منها في مصر أو بيسان تحتوي على أشياء إيجية أو قبرصية. وتدل الوثائق الكتابية على أن المصريين كانوا يعتمدون على المرتزقة من الشردانيين، وقد ذكر أنهم استخدموا بصفة خاصة كجزء من الحاميات في فلسطين زمن فترة رسائل تل العمارنة. وبما أن الشردانيين كانوا إحدى قبائل شعوب البحر الذين قهرهم رعمسيس الثالث، لذا فإنهم كانوا قسماً من الجماعات التي استقرت في فلسطين والتي أطلق عليها الإسرائيليون اسم الفلسطينيين. ويستدل من الكتابات المصرية على أن قسماً آخر من أقرباء الشردانيين كان ضمن الحاميات المصرية في بيسان.

إن المنطقة التي استطونها الفلسطينيون مبدئياً يصعب تحديدها بالاعتماد على الأدلة الأثرية، لأن وجود كمية بسيطة من الفخار الفلسطيني في أحد الأماكن لا يعني بالطبع دليلاً على استطيان الفلسطينيين فيه؛ إذ ربما وصل إلى المكان عن طريق التجارة. ففي مجدو مثلاً تم العثور على عدد قليل جداً من هذا الفخار في الطبقتين السابعة والسادسة، ولا يمكننا من هذه القطع القليلة أن نقول بأن الفلسطينيين كانوا يكوّنون جزءاً من سكان هاتين الطبقتين؛ إذ لو أن مجدو وقعت تحت سيطرة الفلسطينيين لورد ذكر ذلك حتماً في الوثائق الكتابية نظراً لأهمية المدينة.

إن دليلاً دقيقاً كهذا يدل على أن الفلسطينيين سكنوا أولاً على الساحل ثم أخذوا يستولون تدريجياً على المدن الداخلية حتى وصلوا أطراف الهضبة المركزية التي

لم يستقروا فيها أبداً، بالرغم من أنهم في القرن الحادي عشر ق.م. بسطوا بعض السيطرة على الإسرائيليين هناك، والدليل على ذلك ظهور الفخار الفلسطيني ذي العلاقة بالفخار القبرصي والسيني الذي استورد في نهاية القرن الثالث عشر، والذي سبق وصفه فيما تقدم، ويعزى ظهوره في فلسطين لغارات شعوب البحر. وقد رأينا في عسقلان أن الطبقة التي تحوي هذه الواردات الإيجية تنفصل عن الطبقة التي ظهر فيها الفخار الفلسطيني لأول مرة بطبقة من الرماد. وهذا نفس ما حدث في تل جمة Tell Jemmeh القريب من الساحل حيث خلف الفخار الفلسطيني الفخار الإيجي مباشرة. أما في الشفا أو منطقة التلال المنخفضة فقد لاحظ المنقبون وجود مرحلة تتوسط الطبقة الإيجية والطبقة الفلسطينية. ففي تل بيت مرسيم توجد نماذج من واردات العصر البرونزي الحديث في الطبقة C2 التي تم تدميرها في نهاية القرن الثالث عشر، ولكن تلا هذه المدينة مدينة أخرى أقيمت مباشرة فوق الطبقة B1 ويقدر العلماء أنها استمرت زهاء خمسين أو مائة سنة. ولم يعثر العلماء في هذه الطبقة على أي أثر للواردات الأجنبية. ويدل فخارها على تطور الفخار المحلي الذي يرجع للعصر البرونزي الحديث. أما في الطبقة التي تليها أي الطبقة B2 فهنالك الكثير من الفخار الفلسطيني، مما يدل على أن المكان قد وقع تحت السيطرة الفلسطينية.

وفي بيت شمس إحدى مدن الشفا تستمر الطبقة الرابعة التي بدأت في القرن الخامس عشر مدة طويلة حتى يلتقي تاريخها بتاريخ الطبقة B1 في بيت مرسيم، وقد انتهت هذه الطبقة بالتدمير الشامل للمدينة. وغطت الموقع بأسره طبقة من الرماد. أما الفخار الفلسطيني فقد ظهر بكثرة في الطبقة الثالثة التي تلت، ويدل هذا على أن التوسع الفلسطيني نحو الشفا Shephlah الواقع ضمن الأراضي التي ذكرتها التوراة قد استمر طوال ثلاثين أو خمسين سنة تقريباً.

بالرغم من أننا نفتقر إلى أدلة أثرية دقيقة في عدد من المواقع التي تم حفرها تزيل الشك والغموض اللذين اكتنفا عملية التوسع الفلسطيني، إلا أن توزيع هذه

المواقع التي عثرنا فيها على كميات كبيرة من فخارهم يدل على المنطقة الرئيسية التي احتلوها: إذ قلما يوجد الفخار في الهضبة المركزية كما لم يعثر عليه قط في القدس، أو بيت سور بينما تم العثور على كمية قليلة منه في تلة النصبة التي تبعد تسعة أميال إلى الشمال من القدس، وربما وصلت هذه الكمية القليلة هذا المكان عن طريق التجارة. أما في السهل الساحلي والشفا فقد وجد هذا الفخار بكثرة وامتد انتشاره حتى وادي غزة جنوباً ،حيث وجد في تل العجول وتل جمة وتل فارة، بينما انتشر شمالاً حتى حوار يافا أو جوبا القديمة، ولكن وجدت أماكن في هذه المنطقة لم يعثر فيها على هذا الفخار قط. فمثلاً لم يعثر على أي أثر للفلسطينيين في تل دوير كما عثر على آثار بسيطة جداً لهم بجوار تل حسي، ولكن يجب أن لا نعير ذلك مزيداً من الاهتمام طالما لا توجد أدلة قاطعة تؤكد احتلال هذين الموقعين في هذه الفترة.

أما في الشمال فلم يعثر المنقبون على نماذج فخارية في دور Dor بالرغم من وجود الأدلة الكتابية التي تنص على أن الصقاليين إحدى قبائل شعوب البحر قد استولوا على هذا المكان، كما لم يعثر على أي أثر للفخار في تل أبو حوام الواقع عند قاعدة جبل الكرمل، بينما تم العثور كما مر سابقاً على كمية قليلة في مجدو، وربما كانت هناك نتيجة صفقات تجارية. أما بيسان فبالرغم من كونها بكل تأكيد مدينة فلسطينية في القرن الحادي عشر زمن شاول إلا أن المنقبين لم يعثروا على الفخار الفلسطيني قط.

يدل هذا على أن المنطقة الفلسطينية كانت محدودة، إلا أن السلطة السياسية الفلسطينية قد امتدت بكل تأكيد خارج حدود هذه المنطقة. لقد عاش الفلسطينيون زهاء المائة سنة جنباً إلى جنب مع من سبقهم من الكنعانيين والإسرائيليين، وقد ذكرنا سابقاً أننا نفتقر إلى الأدلة الأثرية التي تحدد أماكن سكن كل من هذين الشعبين، ولكننا نعلم من الأدلة التاريخية التي وردت في سجلات منبتاح أن الإسرائيليين كانوا في هذه الفترة قد وطدوا دعائم استقرارهم في البلاد، وأنهم كانوا يعيشون بشكل

جماعتين يفصل بينهما إسفين كنعاني دق في القدس والمنطقة المحيطة بها.

لقد حصلنا على الأدلة الواضحة التي تتعلق بالمناطق غير الفلسطينية من المواقع التي كانت بكل تأكيد غير إسرائيلية، والتي كان أهمها مجدو، ولا توجد فعلاً في التوراة أية إشارة أو دليل إلى التاريخ الذي أصبحت فيه هذه المدينة الهامة جزءاً من إسرائيل، ولكن ورد اسمها ضمن قوائم المدن التي بقيت كنعانية زمن الفتوحات الأولى، ولكنها أصبحت إسرائيلية زمن سليمان: أي إنها أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية في القرن الحادي عشر، حيث كانت المدينة مهجورة طوال مدة هذا القرن الذي لم يعط احتلالها أية أهمية خاصة.

يبدو أن مجدو لم تتأثر مباشرة بنتائج غارات واستقرار شعوب البحر، ويرجع ذلك دون شك لمناعتها العظيمة؛ إذ يبدو أن الطبقة السابعة التي ترجع للعصر البرونزي الحديث الثاني قد استمرت حياتها حتى سنة ١١٥٠ ق.م. بدليل قلة وجود الفخار الفلسطيني في هذه الطبقة من جهة، والعثور على قاعدة تمثال لرعمسيس السادس يرجع تاريخه لمنتصف القرن الثاني عشر ق.م. له علاقة بأحد الأبنية التي أقيمت على هذه الطبقة من جهة أخرى. وقد انتهت هذه الطبقة بأعظم كارثة في تاريخ مجدو حيث آلت المدينة إلى خراب شامل. ولكن أعيد بناؤها في الحال. أما الموقع القديم الذي ازداد اتساعه مع الزمن منذ العصر البرونزي المتوسط فقد ضاع الآن كلية واختفت المباني الجميلة والمتعاقبة وظهرت محلها أبنية بسيطة منحطة. واختفت معالم المنطقة المقدسة التي يرجع تاريخها الألف الثالث. كما اختفت البوابة الشمالية العظيمة وصفوف أعمدتها الثلاثة؛ تلك البوابة التي كانت حفيدة البوابات التي بنيت في هذا المكان منذ العصر البرونزي المتوسط حتى هذا التاريخ. أما مكان البوابة فقد اختلفت أيضاً؛ إذ إن البوابة الجديدة قد أقيمت على بعد ١٧ متراً شرقاً، وقد اختلفت هندستها عن سابقتها اختلافاً كلياً. ويمكن أن يعزى هذا الخراب إلى الفلسطينيين، لأنه لا توجد أية إشارة في التوراة تشير إلى أن حرق مجدو كان من عمل الإسرائيليين.

ولكن أياً كان المسؤول فإن الحادث لم يؤثر على حضارة السكان؛ إذ لم يلاحظ العلماء أي تغيير أساسي على فخار الطبقة السادسة، بل استمر صنع الفخار المحلي الخاص بالعصر البرونزي الحديث مع إدخال بعض التحسينات عليه دون أن يلجأ السكان إلى استيراد فخار من الخارج كما حصل في الفترة السابقة، ولكن حدث هنالك تغير واحد هام هو ظهور الحديد.

وقد وجدت سكين حديدية في الطبقة السادسة كما وجد خنجر حديدي في أحد القبور التي ربما يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثاني عشر. أما البرونز فقد استمر استعماله بالطبع ولم تستبدل رؤوس السهام البرونزية بالرؤوس الحديدية الجديدة والثمينة إلا في القرن العاشر ق.م. أما الحدث الجديد الثاني الذي ربما يدل على علاقات جديدة من خارج البلاد فهو ظهور المشابك الذي طغى استعمالها طوال العصر الحديدي القديم على استعمال الدبابيس ذات الثقوب، التي يرجع تاريخها للعصر البرونزي المتوسط. ويظن البعض أن ظهور هذه المشابك ربما كان لتغيير طرأ على عادات الألبسة.

يدل استعادة المدينة بسرعة بعد هذا الدمار الشامل على حيوية شعب مجدو. وهنالك دليل آخر لا يدل على هذه الحيوية فحسب بل على تفوق الشعب الهائل في الناحيتين الهندسية والعلمية، بالإضافة إلى إيجاد تنظيم اجتماعي جيد وقوي. وهذا الدليل هو نظام توزيع الماء الجديد الذي تم الحفر عنه ثانية سنة ١٩٢٨.

تختلف مجدو عن كثير من المدن الفلسطينية في أنها لم تعتمد في أية فترة في تاريخها على الآبار لتزويدها بالماء. ويظن البعض أنه لا بد من وجود مصدر للماء داخل المدينة يسهل الوصول إليه، وإلا فلا تستطيع المدينة مقاومة حصار طويل مهما كانت مناعة أسوارها. وحتى الآن لم يعثر المنقبون على هذا المصدر الأساسي للماء الذي يظن أنه موجود داخل الأسوار، ولكنهم عثروا على منخفض على قمة التل تملأه

أبنية العصر الحديدي تجري نحوه قناة ماء تتصل بنبع يقع في الجهة الشمالية. فظنوه مستودعاً للماء شبيهاً بالذي كان في حازر في العصر البرونزي المتوسط.

إن نظام الماء الجديد الذي طبق طوال العصر الحديدي قد أنشىء في نهاية الفترة السابعة. أما بالنسبة لمؤلف هذا الكتاب فيترآى لها من الفخار ذي الصلة بهذا النظام أن ارتباطه بالطبقة السادسة هو أكثر احتمالاً. وعلى كل حال فإن تاريخ هذا النظام يرجع للقرن الثاني عشر، وبما أنه يدل على إجراء ضد هجمات الأعداء فإن أنسب تاريخ له هو ثلث الفترة المضطربة التي سادت البلاد. إن نظام الماء الجديد يقضي بجر الماء من نبع يقع أسفل المنحدرات الجنوبية الغربية من التل وبما أن هذا النبع قد استعمل طوال تاريخ المدينة فإن عملية تنظيف المنبع الرئيسي المتكررة قد شقت تدريجياً في الصخر مجرى عميقاً للماء يشبه بئراً داخل كهف. أما الوصول إلى هذا النبع فقد كان طوال المدة من أسفل التل خارج الأسوار، وبدا كان النبع عديم الفائدة زمن الحروب لا سيما وقت الحصار. أما في القرن الثاني عشر فقد أصبح الوصول إليه من داخل المدينة، ويظن أن الترتيبات التي وضعت في السابق لتوفير نبع ماء داخل المدينة قد أهملت خلال فترة سلام طويلة تتمثل في الطبقة السابعة، ولكنها طبقت وظهرت لحيز الوجود في الطبقة السادسة عندما اختل الأمن واضطربت الأحوال، أو أنه كان هنالك مصدر للماء داخل المدينة وجد في هذه الفترة.

إن أول عملية لتأمين الوصول إلى نبع الماء من داخل المدينة كانت حفر مدخل عمودي في الصخر، ثم شق دهليز أفقي في الصخر أنشئت في نهايته قرب ينبوع الماء غرفة للحراسة، ولكن هذه الغرفة هدمت عند هدم الدهليز واستبداله بغيره. وقد وجد داخل غرفة الحراسة هيكل عظمي لحارس الممر كان قد قتل أثناء قيامه بواجب الحراسة. لذا يظن أن السكان تحققوا من أن نظامهم لا يمنع مباغتة الأعداء لهم، لذا كان لزاماً عليهم إيجاد وسيلة أخرى أكثر أمناً وطمأنينة. وقد وجد بجانب الهيكل العظمي عدد من الأواني الفخارية التي ترجع بهذه الفترة إلى القرن الثاني عشر.

كان النظام الجديد الثاني أكثر اتقاناً وأوسع شهرة، فقد حفر القائمون على المشروع مدخلاً عمودياً يبلغ عمقه حوالي ٣٥ متراً يبدأ من مستوى سطح الأرض ويهبط وسط الأنقاض السكنية المتراكمة، ثم غطوا سطوحه العليا الداخلية بصفائح من الحجر. أما الأجزاء السفلى فقد شقت وسط الصخر الأصم. وعند نهاية هذا المدخل شقوا دهليزاً أفقياً طوله حوالي ٦٣ متراً يوصل إلى نبع الماء، ثم بنوا سوراً حول نبع الماء يمنع الوصول إليه من الخارج.

إن عملاً كهذا ليس بالعمل السهل حتى في أيامنا هذه. وقد أكد هذا القول المنقبون الذين رفعوا الأنقاض المتساقطة. ومما يزيد في صعوبة العمل الأدوات الرافعة المتوفرة في القرن الثاني عشر آنذاك، بالإضافة إلى أن تنفيذ العمل يحتاج إلى درجة عالية من المهارة في المسح والتخطيط، لأنه يجب تحديد المستويات الضرورية واتجاه سير العمل بدقة فائقة. وقد دلت العملية عند إتمامها على نجاحها من عامة الوجوه، لأن الأخطاء التي وجب تلافيها بعد إتمام العمل كانت طفيفة للغاية. وبذا أصبح في مقدور نساء مجدو هبوط الأدراج المقامة حول جوانب المدخل العظيم ومن ثم السير داخل الدهلير حتى يصلن ينبوع الماء ويملأن جرارهن ويعدن إلى بيوتهن بكل سلام واطمئنان. وقد دلت الأيام على أن عمل هؤلاء النسوة كان شاقاً، فعمد القائمون على المشروع إلى إزالة الأدراج الداخلية وتعميق أرض الدهليز الأفقي إلى مستوى أصبح الماء عندها ينساب من الينبوع وسط الدهليز حتى أسفل المدخل، وبذا أصبح المشروع عبارة عن بئر للماء، ولكن يبدو أن هذا العمل لم يكن مرضياً، فعمد القائمون عليه على حفر أدراج في الصخر ثانية، وعاد الواردون على الماء يهبطون الدرج حتى أسفل المدخل. بهذه الوسيلة وغيرها من الإصلاحات استطاع هذا النظام أن يوفر الماء لمجدو باطمئنان حتى نهاية فترة إعمارها حوالي سنة ٦٠٠ ق.م.

استمرت الطبقة السادسة حتى سنة ١١٠٠ ق.م. فقط، ولكنها خلال هذه الفترة هدمت تماماً لمدة خمسين عاماً ثم أعيد بناؤها على أسس الهندسة السابقة. وحدوث

مثل هذه الأحداث يدعم الدليل الذي حصلنا عليه من الاهتمام الزائد بمصادر المياه والذي يدل على الحالة المضطربة في المنطقة الساحلية من فلسطين في هذه الفترة.

وحوالي سنة ١١٠٠ ق.م. هدمت المدينة ثانية، ولكنها هذه المرة لم تبنَ ثانية بل بقيت مهجورة طوال مائة سنة، وربما حدث ذلك لأول مرة في تاريخها الذي امتد عبر ألفي سنة. وربما كان سبب هذه الكارثة التي نزلت بها إلى غارات الفلسطينيين أو غيرهم من شعوب البحر، لأنه لا يوجد أي دليل يشير إلى أن الإسرائيليين كان لهم أية علاقة بهذه المدينة، ولكن لا يزال هذا مدار حدس وتخمين حتى اليوم.

أما المستوى السابع في بيسان الخاص بالعصر البرونزي الحديث الثاني فقد استمر كما استمر مثيله في مجدو حتى حوالي سنة ١١٥٠، وكما هي الحال بالنسبة للمستويات السابقة فإن وصف للمنطقة الهيكل الواقعة في المستوى السادس التالي قد نشر فقط، وقد أرجع المنقبون هذا المستوى إلى فترة سيتي الأول التي امتدت حتى بداية عصر رعمسيس الثالث (١٣٢٠-١٢٠٤ ق.م.)، ولكن يجب إرجاعها إلى المدة الواقعة بين ١١٥٠-١٠٠٠ ق.م.

إن هيكل المستوى السابع السابق قد هدم. وليس واضحاً لدينا إن كان ذلك بسبب هجوم على المدينة أو بقصد إعادة بنائه، ثم أقيم فوق الأنقاض التي طمست معالمه هيكل جديد.

بني الهيكل الجديد على نفس تخطيط الهيكل السابق دون أن يكون له مدخل رئيسي. وقد اشتمل على ساحة سقف جزء منها ثم أقيم معبد في نهاية البناء. وتدل الأدوات الدينية التي وجدت بداخله على أن الديانة الكنعانية القديمة المخصبة لا تزال تمارس داخل هذا المعبد.

إن جميع المواقع الأثرية التي تم وصفها حتى الآن تقع خارج المنطقة التي استولى عليها الإسرائيليون. ويجب أن نعترف بصراحة أن معرفتنا بعمليات استقرار

الإسرائيليين الأولى قليلة جداً. وسبب ذلك هو قلة الأدلة الأثرية من جهة وحصر الحضارة الإسرائيلية بالإسرائيليين أنفسهم من جهة ثانية. أما سبب قلة الأدلة التاريخية فيرجع إلى أن المنطقة التي استقر فيها الإسرائيليون تقع في المنطقة الجبلية. ومواقع هذه المنطقة لا تحوي طبقات رسوبية وأثرية خاصة بالفترات التاريخية المتعاقبة تساوي في سمكها تلك التي نجدها في المواقع السهلية، لأن الأبنية تبنى عادة في المناطق الجبلية بالحجارة التي تتوفر في جميع أنحاء المنطقة، وعندما تتداعى أبنية فترة ما تهدم الجدران وتستعمل حجارتها في بناء الأبنية الجديدة، وبدلاً من أن تدفن الآثار كلية تحت اللبن الترابي المتداعي الذي هو مادة البناء الرئيسية في السهول فإنها تجرف وتحطم ثم تدفن في أعماق أسس الجدران، لذا يصبح من العسير جداً أن نستنتج تاريخ الفترات اللاحقة ونميزها جيداً عن سابقاتها.

فالحفريات التي تمت في موقع جازر الشهير مثلاً تمت قبل إدخال التعديلات والفنون الحديثة على علم الآثار. لذا فقد عجزت تلك الحفريات عن إعطائنا صورة واضحة مفصلة عن تاريخ هذا المكان، لأن الأبنية لا يمكن إرجاعها إلى فترات تاريخية محددة، وهذا حتماً ينطبق على نتائج الحفريات المتعددة التي تمت في المواقع الجبلية.

أما طبيعة الاستيطان الإسرائيلي فهي العامل الثاني في قلة هذه المعلومات، وقد تطور هذا السبب بسرعة زائدة بسبب الوعي القومي الذي ظهر بين القبائل الإسرائيلية. وتروي قصة التوراة كيف أن القبائل الإسرائيلية كانت تتقارب من بعضها تدريجياً وتتحد معاً محاولة بذلك إيجاد وحدة دنيوية في ظل حكم القضاة، تدعمها الروابط الدينية والقومية القوية. وقد كان الكاهن الأعظم أحياناً يمارس السلطة الزمنية. لقد اتحدت القبائل الإسرائيلية عنصرياً في هذه القرون، ولكنها اختلفت في كيفية وزمن استقرارها في فلسطين. فإذا كان وصفنا لمجريات الحوادث الذي ورد في الفصل الثامن صحيحاً فيكون الإسرائيليون قد وحدوا تقاليد آبائهم

وأجدادهم بتأثير الديانة اليهودية. وباعتقادهم أن جميع أجدادهم قد اشتركوا في حادثة الخروج من مصر. وبذا ظهرت الأمة الإسرئيلية، ولكن حضارتها ما زالت بدائية حتى ذلك الوقت. وكانت أماكن سكنهم عبارة عن قرى ذات فن وضيع وهج. أما أدواتهم اليومية فكانت متواضعة ومتشابهة لا تتعدى الحاجيات الضرورية.

لهذا السبب فإن الحمريات في مواقع مثل سيلون Shiloh وبيتل Bethel وبيتن وجبعة Gibeah وهي جميعها من الأماكن الشهيرة في التوراة لم تسفر إلا عن آثار أبنية متعاقبة ترجع للقرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م. ففي بيتن تلا الدمار الشامل الذي سبق وصفه فجوة سكنية. أما أبنية العصر الحديدي التي تلت فكانت أقل رونقاً وأحط هندسة وتخطيطاً من تلك التي هدمت سابقاً. ثم قامت بعدها طبقة أخرى في العصر الحديدي كان حظها من الهندسة والإتقان أقل من سابقتها، وبقيت الحال سيئة على هذا المنوال حتى مجيء فترة ترجع للقرن العاشر ق.م. حيث بدأ التطور والإتقان يتلمسان طريقهما نحو التقدم والظهور.

وربما كان موقع تل الفول هو أحسن مثال يوضح لنا حياة العديد من قرى هذا العصر. يقع المكان على بعد خمسة كيلومترات شمالي القدس. وربما كان المكان هو جبعة موطن شاول. استوطن الإسرائيليون المكان في بداية العصر الحديدي، أي في بداية القرن الثاني عشر ق.م. وهو يتكون من قرية يقوم في وسطها حصن أو برج قوي تبلغ مساحته حوالي (١٥) متراً مربعاً، أما جدرانه فكانت قوية للغاية، ولكنها في منتهى الخشونة وعدم الإتقان. ويبدو أن معظم البناء العلوي كان من الخشب لأنه عندما هدم ترك طبقة سميكة من الرماد وفحم الخشب. ومن الجدير بالذكر والملاحظة أن الخشب كان من الصنوبر والسرو، وأن الأشجار الصنوبرية كانت قد اختفت نتيجة أعمال البناء منذ تلك الفترة حتى اليوم. وربما اختفت تماماً زمن جبعة الثالثة؛ أي في القرن التاسع ق.م. حيث استعمل خشب اللوز في بنائها. وسبب

ذلك دون شك هو اتساع حياة الاستقرار وتطور القرى إلى مدن كبيرة، مما أدى إلى زيادة اجتثاث الأحراج واستعمال خشبها في البناء.

لقد هدمت جبعة الأولى تماماً وربما حدث ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ق.م. ومن الصعب جداً ربط ذلك بأية حادثة ورد ذكرها في التوراة؛ إذ ربما كان الحادث من عمل إسرائيليين آخرين انتقاماً من جبعة، وقد ورد ذكر ذلك في (سفر القضاة ١٩-٢٠) أما من جهة ثانية فإن الحروب بين القبائل المتجاورة كانت متفشية ومستمرة، لأن التوراة وصفت تلك الاعتداءات التعسفية التي كان يقوم بها مختلف الجيران الشرقيين مثل المؤابيين والأدوميين وغيرهم والتي ترجع في تاريخها إلى هذه الفترة.

وبعد فترة من قيام المدينة الثانية أنشئ حصن ثان على أنقاض سابقة، وقد ضم الحصن الجديد جزءاً من بقايا الحصن الأول. أما البناء فكان أفضل من سابقه، ولكن لم يبق من هندسته أي أثر. أما سكان المدينة فقد كانوا، بكل تأكيد بعيدين عن كل رفاهية وترف، ويدل على ذلك بقاياهم الأثرية. وربما كان والد شاول هو الذي بنى هذا الحصن. وهذا يدل على حالة المجتمع المتواضع الذي أنجب قادة الإسرائيليين.

أما الموقع الذي نعرف عنه أكثر قليلاً من بيت جبعة فهو بيت شمس. ولكننا غير واثقين إن كان الموقع قد أصبح جزءاً من إسرائيل في هذه الفترة. وقد أشارت إليه التوراة باسم مدينة الحدوددان، وذلك قبل أن تهاجر قبيلة دان شمالاً ويصبح المكان مدينة حدود إسرائيلية. ويستدل من فخار المكان أن المدينة قد بنيت حوالي سنة ١١٥٠ ق.م. وأنها كانت تحت سيطرة فلسطينية قوية.

تقع هذه المدينة على الشفا قرب الحدود الفلسطينية الإسرائيلية. وتدل كمية الفخار الكبيرة التي عثر عليها على أنها كانت تتبع للفلسطينيين بالرغم من إشارة التوراة إليها، وتدل الآثار التي تم التنقيب عنها على أن المدينة كانت كبيرة بالرغم

من عدم وجود أبنية من أي نوع أو صفة خاصة فيها. أما صناعتها الرئيسية فكانت صناعة البرونز، ويستدل على ذلك من كثر أفران الصهر وبقايا أنابيب النفخ الفخارية التي وجدت فيها. أما الحديد فكان شائعاً في هذا المكان وكان يستعمل في صناعة الأسلحة والحلي. ومن الجدير بالذكر أن الصوان الذي كان يركب في مقابض خشبية قد استمر استعماله حتى القرن العاشر ق.م. أما هذه المدينة فقد دمرها حريق عظيم حدث في نهاية القرن الحادي عشر ق.م. وربما زمن حروب شاول مع الفلسطينيين.

عاش الفلسطينيون والإسرائيليون زهاء ماية سنة جيراناً جنباً إلى جنب، فقد عاش الفلسطينيون في السهل الساحلي الخصيب. وعاش الإسرائيليون في المنطقة الجبلية القاحلة الجرداء. وفي سنة ١٠٨٠ ق.م. بدأ الفلسطينيون محاولتهم في بسط سيطرتهم على المنطقة الجبلية. وقد ساموا الإسرائيليين في هذه الفترة صنوف الخبث والعذاب. وقد ورد وصف ذلك في التوراة بالتفصيل. كانت الفترة حقاً فترة ظلم واضطهاد، ولكنها دفعت بالإسرائيليين نحو القومية والوحدة. حيث قاد شاول ثورة بدأها سنة ١٠٣٠ ق.م. وأصبح القائد المعترف به في هذا الصراع ضد الفلسطينيين في كل أنحاء البلاد. وبالرغم من أن نجاحه كان متقلباً تأثر كثيراً بالمصادمات مع القادة الدينيين أمثال داود، وأنه انتهى بانتحاره على جبل جلبوع، إلا أنه بنى على أسس وحدوية حققها شاول بنفسه وبنى عليها داود مملكة إسرائيل المتحدة والمستقلة.

الفصل العاشر

المملكة المتحدة

دامت مملكة إسرائيل المتحدة زهاء ثلاثة أرباع القرن فقط، وهي المدة الوحيدة في تاريخ اليهود التي كان لهم فيها قوة سياسية هامة في غربي آسيا. وقد أتى الكتاب المقدس على ذكر تفاصيل هذه الفترة وعظمتها. ولا يزال ذكرها يؤثر تأثيراً عميقاً على أفكار اليهود وآمالهم بالرغم من التفاهة المتناهية للأدلة الأثرية التي خلفتها هذه الفترة.

بعد كارثة جبل جلبوع عرض الفلسطينيون جثتي شاول وولده يوناثان في شوارع بيسان، ولما استتب لهم الأمر أقاموا في فلسطين دولتين عبرانيتين تابعتين لهم: الأولى في الخليل برئاسة داود والثانية في الشمال برئاسة أشبال Shbaal. وكانت القدس التي كانت حتى ذلك الحين بيد اليبوسيين إحدى قبائل الكنعانيين تفصل بين المملكتين.

ولكن داود الذي التجأ إلى الفلسطينيين عندما هاجمه شاول لم يرض بالبقاء تحت سيطرتهم وخاصة بعد موت أسياده القدامى، بل قلب لهم ظهر المجن وبدأ أعماله العسكرية بأن تغلب على أشبال دون مساعدة الفلسطينيين. وبعمله هذا أعاد لمملكة شاول سابق وحدتها، ثم رمى عن كاهله نير التبعية الفلسطينية علناً عندما كلل أعماله العسكرية بالنصر الباهر الذي أحرزه باستيلائه على القدس.

إن الاستيلاء على القدس كان أمراً ضرورياً لتوحيد فلسطين. وذلك بسبب موقعها الجغرافي على مرتفع متوسط على الطريق الوحيدة التي تصل شمال البلاد بجنوبها

والتي تمر عبر الأجزاء الجبلية من البلاد. وتبدو هذه الحقيقة واضحة حداً عندما رسمت الحدود الفاصلة بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٤٨ عندما استولت اسرائيل على الطريق الطبيعية التي تربط القدس ببيت لحم الواقعة على بعد ثمانية كيلو مترات إلى الجنوب منها، ولما شقت الطريق الجديدة لربط المدينتين معاً لبقائهما ضمن الأراضي الأردنية ظهرت الصعوبات المتناهية واضحة جلية. حيث سلكت الطريق الجديدة سلوكاً ملتوياً وسط منحدرات وأودية صعبة، كما واجه إنشاءها صعوبات هندسية جمة يصعب تصديقها، وما ذلك إلا للانحدار السحيق الذي ينحدر رأساً من خط تقسيم المياه الذي يفصل بين غرب البلاد وشرقيها والذي تقع القدس عليه.

وهنالك طريق أخرى تبدأ من القدس وتتجه شرقاً هابطة باتجاه وادي الأردن وتستمر في سيرها حتى أريحا إحدى مدن الوادي الرئيسية، وبعدها تعبر جسراً أقيم على النهر. وبعده تأخذ في الارتفاع نحو هضبة شرقي الأردن الخصبة. وهنالك طرق أخرى جيدة ومتعددة تخرج من القدس وتتجه غرباً باتجاه الساحل الساحلي.

إن سبب الانقسام السابق ذكره بين الإسرائيليين يرجع لوجود تلك البؤرة الكنعانية في القدس. وقد أبقت على انقسامهم عدة قرون: إذ بدون الاستيلاء عليها يستحيل قيام وحدة سياسية بينهم. ولما تم استيلاؤهم عليها سرعان ما أخذت أعظم فترة في تاريخهم في الظهور.

كان من نتائج هذا الانقسام الطويل بين الإسرائيليين مضافاً إلى الاختلاف في الأصل بين قبائل الشمال والجنوب أن انقسم الإسرائيليون ثانية في نهاية القرن العاشر ق.م. إلى مملكتين؛ مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب.

كانت التنقيبات الأثرية في القدس قد استهوت علماء الآثار منذ بدء الحفريات في فلسطين، وكانت جميع الصعوبات والمشاكل التي واجهت المنقبين في المدن الجبلية والتي مر ذكرها في الفصل السابق متمثلة إلى حد بعيد جداً في مدينة القدس، حيث

دام أمد الاحتلال اليهودي أكثر من البقاء في أية بقعة أخرى من فلسطين، فهناك قسم من القدس الإسرائيلية القديمة يقع مباشرة تحت المدينة الحديثة. كما أدت عمليات البناء المستمرة ورواسي الأنقاض وغيرها إلى تمزيق وهدم معالم جدران الأبنية القديمة، وبالتالي أدى كل ذلك إلى تغيير واضح في معالم سطح الأرض الذي يختلف اليوم تماماً عما كان عليه في الماضي.

تقع المدينة الكنعانية الأولى على قمة تل يدعى أوفل Ophel وهو يقع حالياً إلى الجنوب من المدينة المسورة، وهو عبارة عن نتوء طفيف خارج بقية الهضبة الحميلة. ويمتاز بموقعه الحصين لوجود الأودية السحيقة المحيطة به. ففي الشرق يوجد وادي قدرون (وادي جهنم) وفي الغرب يوجد وادي تيروبيون Tyropaeon ونلاحظ اليوم أن منخفض وادي تيروبيون قد استوى مع الأرض حوله. وقد كشفت الحفريات على أن الانحدار الأصلي له كان مساوياً لانحدار نظيره وادي قدرون الواقع في الجهة الشرقية.

كما دلت الحفريات أيضاً على أن عشرين قدماً من الخمسين قدماً من المواد التي تملأ نصف انخفاض هذا الوادي ترجع إلى الفترة التي تلت خراب القدس على يدي تيطس الروماني سنة ٧٠م. أما الثلاثون قدماً الباقية فترجع إلى فترة ما بعد حكم البيزنطيين.

يقترب الواديان بعضهما من بعض أثناء امتدادهما جنوباً، لذا سهل على الطبيعة حماية موقع القدس القديمة باستثناء نقطة اتصال الموقع بالأراضي التي تعلوه في الشمال حيث تقع مدينة القدس الحديثة.

لم تكن الأودية المحيطة بتل أوفل هي وحدها السبب الرئيسي في بناء المدينة الأولى فوق التل المذكور، بل كان هنالك سبب آخر هام ألا وهو وجود مصدر الماء الدائم. فمنذ بدء الإنسان باستعمال الجير والشيد في القصارة (أي حوالي نهاية الألف

الثاني) أمكن فقط إيجاد آبار لا ينفذ الماء خلال جدرانها عندها أصبحت المدن لا تعتمد على مصادر المياه اعتماداً كلياً لبقائها. وكان هذا المصدر الذي اعتمدت عليه مدينة القدس هو نبع جيحون أو عين العذراء الواقع في وادي جهنم.

بدأت الحفريات في القدس سنة ١٨٦٧ وهي أول محاولة قامت بها مؤسسة التنقيب في فلسطين التي كانت حديثة التكوين آنذاك. وكانت نتيجة لعمليات حفر استمرت ثلاثة أرباع القرن اتضح أنه كانت هنالك قدس قديمة تمتد إلى الجنوب من القدس القديمة حالياً، وقد تم اكتشاف سور قديم يبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة القديمة ويستمر في امتداده محاذياً لقمة تل أوفل الشرقية حتى يعبر باب وادي تيربيون ثم ينعطف حول وادي هنوم Hinnom ويستمر في سيره حتى يلتقي مع الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة القديمة، وكان من المسلَّم به أن هذا السور هو الذي يحيط بالقدس الإسرائيلية بالرغم من اختلاف النظريات التي ظهرت عند اكتشافه. والتي دارت حول تحديد التاريخ الذي بدأ فيه الإسرائيليون بالتوسع خارج حدود الموقع الأول للقدس والذي يقع على الهضبة الشرقية.

وقد تم الحفر في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٢٥ عن قسم من السور الممتد على محاذاة أوفل الشرقية، بالإضافة إلى الكشف عن برج عظيم بني من الحجر. وقد نسب المشرفون على هذه الحفريات بناء هذا البرج إلى داود وسليمان، واعتبروه متمماً لوسائل الدفاع التي أقامها اليبوسيون من قبل.

أما نقاط الضعف في هذا التفسير وغيره من وسائل الدفاع المقامة على قمة الهضبة هذه وتلك الواقعة داخل المدينة الأصلية الأولى، فمردها إلى افتراض العلاقة الوثيقة بين سور المدينة ومصادر المياه الواقعة في أسفل الوادي. وقد تم وصف ضرورة تأمين الوصول إلى مصادر المياه وصفاً دقيقاً بالنسبة إلى مدينة مجدو. فكما كانت الحال في مجدو كانت أيضاً بالنسبة للقدس التي حاول سكانها تأمين وصولهم لمصادر المياه.

وقد قام الأب هوجوز فنسنت Pere Hugues Vencent أثناء عمليات الحفر التي قامت بها البعثة البريطانية في السنوات ١٩٠٩-١٩١١ بدراسة وافية للمداخل والأنفاق المتعددة المؤدية إلى نبع الماء هذا. وأما الأنفاق والمداخل التي تسبق هذا النفق فهي عبارة عن سلسلة من الأنقاض والمداخل العمودية التي حفرت في الصخر.

وكان يعتقد أن هذه الأنفاق والمداخل هي التي كانت تؤمن وصول اليبوسيين إلى مصادر المياه. وقد ظن أيضاً أن يوآب[1] ورجاله تسلقوا خلال هذا الممر المائي ليفاجئوا المدافعين عن المدينة من الخلف. وبذا مكنوا داود من الاستيلاء على القدس الذي كان يعتقد اليبوسيون أنها في مأمن ضد هجمات المغيرين. وهنا أيضاً نجد ضعفاً في التعليل، لأن مداخل ومخارج هذا النفق يؤدي إلى خارج خط الدفاع الذي نسب إلى داود واليبوسيين.

وعندما استأنفت مدرسة الحفريات البريطانية عملها في القدس سنة ١٩٦١ كان هدفها الرئيسي والأساسي هو استقصاء وبحث هذه المشكلة.

وقد اتضح أن وسائل الدفاع التي أقيمت على قمة التل كانت قد أقيمت في الحقيقة في وقت لاحق يرجع إلى ما بعد السبي والمكابيين. وأن سور المدينة الأساسي كان يبعد شرقاً بحوالي ١٦٠ قدماً وينخفض عن قمة المنحدر بحوالي (٨٣) قدماً. كما اتضح أن هذا السور يرجع في تاريخه إلى حوالي سنة ١٨٠٠ ق.م. وقد استمر استعماله حتى القرن الثامن ق.م. وبذا يكون نفس سور مدينة اليبوسيين ومدينة داود. ولم يبق سوى النزر اليسير من آثار مدينة العصر البرونزي المتوسط التي بني السور أصلاً لها وسبب ذلك تأثير عوامل التعرية المستمر على الأبنية الواقعة على سفوح المنحدرات. وقد وجدت أيضاً بعض آثار سكان العصر البرونزي القديم كما مر سابقاً، مثل القبور العامة بأقدم فترات الحضارة. ولكن لا توجد هنالك أدلة قاطعة تدل على وجود مدينة في هذا المكان يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ١٨٠٠ ق.م.

(١) يوآب قائد جيش داود.

لم يقم داود فقط بتحصين المدينة التي احتلها بل اهتم أيضاً بالإفادة منها. وكانت مدينة العصر البرونزي المتوسط قد بنيت على صخرة تتجه في انحدارها إلى أعلى جهة الغرب. وفي القرن الثالث عشر تقريباً ق.م. بدأ سكان المدينة بتنفيذ مخطط لبناء مدينة أعظم بكثير من المدينة السابقة. فأخذوا يعدون الموقع المنحدر وذلك ببناء سلسلة من المصاطب Teraces يعلو بعضها بعض لتكون أساساً وقاعدة لمدينة المستقبل. وربما كانت هذه التسويات أو المصاطب هي التي قيل إن داود وأتباعه قد بنوها أو أصلحوها.

لقد شيدت فوق هذه المصاطب والمسطحات مدينة جديدة تفوق كثيراً تلك التي بنيت سابقاً على سفوح المنحدرات، ولكن المصاطب والمسطحات كانت دائماً عرضة للانهيار، وبالفعل لم يبق منها سوى تلك التي ترجع في تاريخها إلى أواخر أيام الدولة اليهودية؛ أي إلى القرنين (٧-٦ق.م.).

استولى داود على القدس سنة ٩٩٥ ق.م. وفي هذه السنة توطد وقوى مركزه فأثارت قوته النامية دون شك حفيظة الفلسطينيين، وقد أدت انتصاراته عليهم في بعل برازيم Baal-Prsagim وفي Raphaim إلى انسحابهم مرة ثانية باتجاه السهل الساحلي ولم يبقوا بعد ذلك مصدر تهديد دائم.

بعد ذلك بدأ داود سياسته التوسعية، ولكنه لم يستطع ضم فلستريا (السهل الساحلي) إلى مملكته. ويظن أن مصر بالرغم من ضعفها آنذاك عملت جهدها لمنعه من القيام بذلك. لذا لم يكن السهل الساحلي بالفعل في يوم من الأيام قسماً من الأراضي الإسرائيلية.

أما الفلسطينيون فإنهم لم يظهروا في التاريخ ثانية إلا في القرنين الثامن والسابع ق.م. حيث ظهروا لا كدولة ذات شأن بل كجماعات مستقلة.

انتهز داود فرصة انتصاره على الفلسطينيين، فحارب غيرهم من الأعداء واستطاع أن يضيق الخناق على مختلف أعدائه كل بدوره ويخضعهم الواحد تلو الآخر إلى سلطته. وكان من هؤلاء المؤابيون والعمونيون والأدوميون. وكان أعظم انتصار له هو دحر الآراميين وضم دمشق إلى مملكته. وبذا يكون الإسرائيليون قد أخضعوا القسم الأعظم من البلاد الواقعة بين الفرات وحدود مصر. ولكن بالرغم من ذلك بقيت المدن الفينيقية الواقعة على ساحل سوريا محافظة على استقلالها.

إن هذا التوسع والتوحيد قد جلب دون شك ثروة حضارية وثقافية إلى البلاد فشعب القرى الجبلية البسيطة الذي كانت تجمعه في الماضي الروابط الدينية فقط أصبح الآن قسماً من دولة واسعة منظمة. ولما نقل داود مركز حكومته الديني إلى القدس جعل منها بؤرة دينية وسياسية يتجمع حولها الشعب. وبعمله هذا أكسب الملكية قوة عظيمة على حساب الزعامة الدينية، وأصبح داود الزعيم الديني والدنيوي بلا منازع. وهنا تفتحت أمام الإسرائيليين ولأول مرة في تاريخهم الأبواب التي تصلهم بالعالم الخارجي. فبدلاً من أن ينكمشوا على أنفسهم داخل حدود منطقتهم أخذوا يحتكون بجميع مصادر الحضارة الرئيسية في العالم آنذاك. فأقاموا علاقات طيبة وبصفة خاصة مع الفينيقيين حاملي مشعل حضارة المنطقة. وقد دلت الحفريات والدراسات الأخيرة في سوريا والبلاد المجاورة على أن الفينيقيين قبل هذا الوقت كانوا على درجة عالية من الحضارة والرقي. وقد بدا ذلك واضحاً جلياً في تشيد المباني العظيمة ومزاولة الفنون الجميلة (بالرغم من كونها براقة أخاذة إلا أنها لم تكن أصيلة) والتقدم الأدبي العظيم إلى جانب التفوق التجاري وإنشاء المستعمرات التي اشتهروا بها منذ القدم.

لقد أوضحت الحفريات في فلسطين مدى قوة تأثير الفينيقيين على سير النهضة الحضارية التي بدأت زمن داود. وقد أدى ذلك التأثير بالفعل إلى ظهور حضارة

إسرائيلية زمن داود الذي يعتبر عصره تهيئة للأساس الذي قامت فوقه الحضارة العظيمة زمن ابنه سليمان.

إن الأدلة القليلة المتوفرة لدينا سواء الكتابية منها أو الأثرية لا تدل على أن تقدماً حضارياً هاماً قد حدث زمن داود. أما بخصوص عصر سليمان فالأدلة الأدبية متوفرة لدينا، ولكننا نفتقر إلى أدلة أثرية. لقد جرت عدة محاولات لرسم مخطط هيكل سليمان على الورق: ذلك الهيكل الذي بناه في القدس على التلة الواقعة إلى الشمال من أوفل. ومن الآثار التي وجدت في أماكن أخرى استطعنا أن نتوصل بسهولة إلى أوصاف هيكل سليمان. كما استطعنا أن نتصور بعض التفصيلات الثانوية، ولكن منطقة الهيكل وموقع المدينة الإسرائيلية تقع جميعها تحت مدينة القدس الحديثة بعيداً عن متناول معول عالم الآثار.

إن مكان الهيكل يقع تحت المعبد الإسلامي (الحرم الشريف) الذي تقوم في وسطه قبة الصخرة. وإنه لمن الممكن جداً أن تمتد محاور بناء الهيكل من الشرق إلى الغرب، وأن مكانه يقع غربي الصخرة المشرفة التي تغطيها اليوم القبة العظيمة التي بناها عبد الملك بن مروان. ولربما كانت الصخرة مكاناً لمذبح تقدم عليه القرابين. أما الفناء المسور الذي نراه اليوم فمدين في شكله إلى هيرودس الذي بدأ في إعادة بناء الهيكل سنة ١٩ ق.م. فالمساحة العظيمة هذه تقوم فوق مسطح تسنده الجدران الاستنادية الصناعية. وهي ترتفع في بعض الأماكن حوالي ١٣٠ قدماً أعلى من الصخرة نفسها. وأما مخطط هيكل سليمان فيجب أن يكون هو الآخر قد أقيم على مسطح واسع. ويعتقد الأب فنسنت أن القسم الباقي من الحائط الواقع في الطرف الجنوبي هو فعلاً من عمل سليمان، ولكن هذا الاعتقاد لا يعتمد على دليل أكيد. لأن بعثات الحفر الأولى بإشراف السير شارل ورن Vvarren قد محصت هذه الجدران في السنوات ١٨٦٧-١٨٧٠ أي قبل وضع أسس علمية لإرجاع الجدران الحجرية المختلفة إلى تاريخ بنائها.

لقد بنى سليمان قصره إلى الجنوب من الهيكل. والقصر بناء عظيم يحتوي على العديد من الغرف والقاعات، وقد اكتشفت مخططات في أمكنة تقع بين النهرين تشبه تماماً تلك التي ورد وصفها في أسفار الملوك (الجزء الأول الفصل السادس) وقد استطاع الأب فنسنت رسم مخطط كامل لجميع أبنية الهيكل معتمداً على الوصف الذي ورد في التوراة وعلى مواد أثرية.

ولكن التفكير في مخطط الهيكل نفسه لا يقدم أي دليل على عظمة العصر: إذ من الواضح تماماً اليوم أن هيكل سليمان كان جميعه قلباً وقالباً يحمل الطابع الفينيقي. ومن المعقول جداً أن البناء كان مستطيلاً وقائم الزوايا ويستند سقفه على صفوف من الأعمدة. ويحتوي على دهليز يؤدي إلى قاعة مستطيلة يصل النور إليها من خلال عدد من الشبابيك، تعلو ما جاورها من السطوح (تشبه الباسيليكا في الكنائس المسيحية). ويوجد خلف البناء مجموعة من الأدراج تؤدي إلى قدس الأقداس. كما يوجد حول البناء الأساسي كله أبنية ذات ثلاثة طوابق تحوي غرفاً صغيرة قصد بها دعم البناء الأساسي وخاصة جدران القاعة الأساسية التي يعلوها سطح واسع. وقد تم اكتشاف هيكل صغير في تل التينات في سوريا له تماماً نفس الصفات الرئيسية التي للبناء الرئيسي في هيكل سليمان. ومن المقارنات الأثرية استطعنا أن نحصل أيضاً على ما كانت عليه زينة الهيكل. فقد وجدت نقوش من العاج في مجدو والسامرة وأرسلان طاش في سوريا، وفي غيرها، تحمل نفس النقوش التي كانت داخل الهيكل مثل نقش أشجار النخيل والأزهار والأوراق الذهبية وصور ملائكة مجنحين.

لقد كان البناء في جوهره من طراز فينيقي. وقد وجدت في رأس شمرا في سوريا جدران بنيت كل ثلاثة مداميك فيها من الحجر بينما الرابع من سوق الأرز، ولكن بالرغم من أنه لم تبق هنالك أية بقية من هيكل سليمان فإن مقارنة المواد المتخلفة تجعل من السهل لدى كل ذي بصيرة وذكاء أن يستنتج أن جدران الهيكل بنيت على نمط جدران أبنية راس شمرا.

اهتم سليمان بتزين عاصمته بجميع وسائل الزينة والعظمة التي كانت منتشرة في البلدان المتحضرة آنذاك. كما اهتم بصقل وتحويل كل ناحية من النواحي الحضارية في بلاده بما في ذلك الناحية الدينية.

وقد بدأ حكمه حاكماً عالمياً (أي يقبل أي شيء في العالم) في كل شيء لدرجة أنه أحضر آلهة غريبة إلى بلده وجعلها مساوية للإله يهوه، ولكن علم الآثار لم يثبت لنا لسوء الحظ أي شيء من هذا القبيل.

لقد كانت معظم وسائل سليمان تتعلق دون شك بإعادة بناء وتجميل القدس، أما بقية البلاد فقد عانت من الفقر والحرمان بسبب الضرائب الباهظة التي فرضت عليها بقصد تزيين العاصمة. وتدلنا الحفريات على أن هنالك القليل جداً من المباني الضخمة التي شيدت خارج القدس في هذه الفترة. ولكن ورد في سفر الملوك (٩-١٥) أن الضرائب التي جمعها سليمان لم يصرفها فقط في بناء الهيكل وقصره وأسوار القدس بل صرفها أيضاً في بناء حارور ومجدو وجازر. وهذه الأماكن جميعها أماكن استراتيجية. لذا فمن المعقول جداً أن يهتم بها لحماية مملكته.

وتدل الحفريات في حارور إلى أن المخلفات الكتابية تشير إلى أن سليمان هو الذي بنى هذه المدينة كما تدل أيضاً على أن موقع المدينة لم يكن مأهولاً بالسكان عند بدء العمل. أما خراب المدينة الذي حدث في العصر البرونزي المتأخر، فقد مر وصفه في الفصل الثامن. ويبدو أن إعادة بناء المدينة لم يحدد إلا في القرن العاشر ق.م. حيث بنيت مدينة تفوق سابقتها كثيراً في حجمها وعظمتها. وقد ضمت المدينة الجديدة الجزء الغربي فقط من المنطقة المرتفعة (أي التل) الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية. وقد أحيطت المنطقة بسور تعلوه السقوف والأبراج حسب النظم الدفاعية المتبعة في ذلك العصر. وقد اكتشفت سنة ١٩٥٧ بوابة عظيمة قرب منتصف الجهة الشرقية تتكون من مدخل داخلي تقوم على جوانبه أربع غرف متتالية لحمايته.

والغريب في الأمر أن هذه البوابة تشبه تماماً في هندستها وأبعادها تلك التي وجدت في جازر ومجدو.

أما في جازر فقد بدأت الحفريات في وقت مبكر جداً، وقد أمكن معرفة تاريخ المكان من دراسة طبقات الأرض. وقد عثر على سور حولها يشبه في بنائه وأبراجه المسقوفة التي تعلو أسوار مدينة حازور. وقد قام بهذا العمل الدكتور يادين Yadin.

أما في مجدو -كما هي في حازر- فتتصل البوابة الرئيسية برصيف منحدر مائل يؤدي إلى بوابة خارجية. وقد وجدت هذه البوابة في الطبقة الأرضية الرابعة. وقد وجدت في هذه الطبقة أيضاً مجموعة من الأبنية العامة نسبت إلى سليمان. وهي تحتوي على عدد من الإصطبلات الفخمة. ومما لا شك فيه أن سليمان قد أضاف العربات وفرق الفرسان إلى فرق المشاة التي كان يتكون منها جيش والده. وقد ورد ذكر مدن عربات سليمان في أشعار الملوك وتواريخهم (١٩-٢٦ والسفر الثاني الفصل الأول ص ١٤) وفي إحدى القطع التي وردت في سفر الملوك الجزء الأول الفصل التاسع ص١٥-١٩- إشارة إلى أن بناء مجدو قد رافقه بناء عدد من المدن الأخرى.

وقد بنيت هذه المدن ليكون بعضها مخازن تجارية والبعض الآخر مراكز للعربات والفرسان، ولكن لم ترد أية إشارة تشير إلى أن مجدو كانت إحدى هذه المدن، ولكننا سنرى دليلاً يشير إلى أن هذه الأبنية لم تكن قد بنيت قبل القرن التاسع ق.م. لأن الطبقة الأرضية التي ترجع إلى فترة سليمان كما تدل الآثار الفخارية هي الطبقة الخامسة. وقد أعيد بناء هذه الطبقة بعد فترة طويلة من الخراب ترجع إلى حوالي سنة ١١٠٠ ق.م. أما تاريخ إعادة البناء عليها فيرجع إلى بداية القرن العاشر ق.م. ومن المحتمل أن تكون هذه الإعادة كما هي الحال في حارور قد حدثت زمن سليمان. أما الدليل على ربط البوابة الرئيسية بهذه الطبقة فليس واضحاً، ولكن من الصعب أن نهمل الاستنتاج الذي بيناه على مشابهة خارطة بناء جازر ومجدو. لذا فهذه

البوابة يجب أن تكون معاصرة لبوابة حازور وأنها كانت في الأصل في الطبقة الأرضية الخامسة.

إن مدينة مجدو الواقعة في الطبقة السادسة قد هدمت حوالي سنة ١١٠٠ ق.م. وقد بقي موقعها مهملاً خالياً من السكان ردحاً من الزمن. لذا فمن الممكن أنها وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد هذه الفترة من الخراب والإهمال. والأصعب علينا أن نعلل عدم ورود ذكر احتلالها على أيدي الإسرائيليين. وربما كانت أول فرصة لدخولها ضمن أملاك المملكة الإسرائيلية هي عندما بدأ داود في توسعه شمالاً. وربما يرجع تاريخ إعادة بنائها إلى هذه الفترة. أو ربما يمكن تعليل إعادة بنائها إلى اهتمام سليمان بالتجارة الخارجية، لأن موقع المدينة يسيطر على الطريق الهامة المارة عبر مرج ابن عامر. وهنالك أدلة تاريخية تشير إلى أن إعادة بنائها بدأ في أوائل القرن العاشر ق.م.

إن المدينة الواقعة في الطبقة الخامسة لم تكن ذات هندسة متقنة، بل كانت معظم أبنيتها الصغيرة وأسوارها غير سميكة سيئة البناء. ويتفق تخطيطها مع تخطيط عدد من المدن المعاصرة.

وقد بنيت البيوت حول مراكزها بشكل حزم ضوئية عرض كل منها حوالي عشرين متراً يفصل بعضها عن بعض طرق دائرية. وتتجه في ترتيبها جهة الشمال والجنوب. ولم يعثر على أي أثر للأسوار في هذه الطبقة، لذا يظن أن صف البيوت الذي بني حول محيط موقعها كان يقوم مقام الأسوار، ولكن هذا يبدو بعيد الاحتمال، لأن السجلات الرسمية تشير إلى أن الأسوار الخارجية التي كانت تقوم على المنحدرات قد تهدمت وذهب كل أثر لها، أو ربما قد هدمت لتحل محلها أسوار جديدة. وهذا أيضاً غير ممكن لأننا نجد باباً للمدينة يرجع في تاريخه إلى هذه الفترة. ولهذا الباب ممر طويل ينعطف بشكل زاوية قائمة عند مدخل البوابة. لذا يظن أن الآثار التي تسببت

لهذه الفترة هي بالفعل القواعد والأسس للبوابة التي بنيت فوقها. وعلى كل حال فقد افترض علماء الآثار وجود مدينة مسورة، ولكن ما مدى علاقة هذه بتلك التي أخذت صورة لها ونسبت إلى الطبقة الرابعة فشيء غير مؤكد. والنقطة الجديرة بالاهتمام هي كثرة الأشياء الدينية التي عثر عليها مثل المذابح ذات القرون وقماقم المطور والبخور والمواقد النحاسية والكؤوس. وقد وجدت هذه بكثرة في عدد كبير من البيوت لدرجة يصعب على المرء أن يستنتج أن جميع الأماكن التي وجدت فيها هذه الأشياء الدينية كانت دور عبادة. أما أن تفترض أنه كان هنالك معابد خاصة في هذه البيوت فهو أقرب إلى المنطق.

وفي هذه الفترة خضعت بيسان لأول مرة في تاريخها للسيطرة الإسرائيلية، فالهيكل الذي عثر عليه في مستوى الطبقة السادسة استمر قائماً ومستعملاً حتى نهاية القرن الحادي عشر ق.م. كما يدل على ذلك الفخار الذي وجد بداخله. أما في الطبقة التي تليها؛ أي الخامسة التي ترجع بتاريخها إلى أيام رعمسيس الثالث (ترجع هذه الطبقة في تاريخها الحقيقي للسنوات ١٠٠٠-٨٥٠ ق.م.) فقد عثر على هيكلين. إحداهما فوق هيكل الطبقة السادسة والآخر إلى الشمال منه. ومن الممكن أن هذين الهيكلين كانا قائمين أيام معركة جبل جلبوع. ويرجع هذا المرض قصة التوراة التي تشير إلى وجود معبد داجون ومعبد عشتروت، أو ربما بنيا بعد سقوط المدينة بيد الإسرائيليين.

لقد بني المعبد الجنوبي فوق الأنقاض التي تغطي معالم الهيكل السابق، ويعتبر بناؤه ثورة تجديد في أبنية المعابد في هذا المكان. لأنه يختلف تماماً بهندسته عن هندسة الهياكل في الطبقتين السابقتين. فخارطته تشبه في الحقيقة خارطة الهيكل الذي مر ذكره فيما سبق، وأفترض أنه يشبه هيكل القدس. لذا فقد بني هذا الهيكل على النمط الفينيقي. فهو يتكون من مدخل لا تزال أوصافه غامضة، ولكن ربما كان بشكل عقد أو عقود، ومن قاعة رئيسية ومن معبد في الخلف قد تهدم لسوء الحظ.

بسبب إقامة خزان للماء فوقه في العصر الهليني. كما كانت هنالك غرف للتخزين على جانبي القاعة المركزية كما هي الحال في هيكل القدس. أما نقطة الفرق بين الهيكلين فهي أن القاعة المركزية كانت مقسمة بالأعمدة إلى ممرات وساحات. وقد أقيمت الأعمدة بشكل معاكس لأقطار البناء. أما قواعد الأعمدة فقد كانت أقل متانة من قواعد الجدران. لذا يظن المنقبون على أن هذه الأعمدة كانت شيئاً ثانوياً بالنسبة للبناء، وسبب إقامتها هو لدعم السطح بالرغم من أن مساحة سطح هذا الهيكل لم تكن أكبر من مساحة سطح هيكل القدس.

أما الهيكل الشمالي فكان عبارة عن بناء بسيط مستطيل يقوم سقفه على صفين من الأعمدة يتكون كل منهما من عمودين. وقد أزيلت هذه الأعمدة عندما أعيد بناء الهيكل، كما لم يعثر في هذا الهيكل على أي أثر لمعبد.

إننا لا نعرف بالضبط فيما إذا كان هذان المعبدان قد بنيا قبل الاحتلال الإسرائيلي أو بعده، ولكن قطع الفخار التي وجدت فيهما تدل بكل تأكيد على استمرار استعمالها في العصر الإسرائيلي، واستعمالهما دليل هام على تعدد الأديان التي سمح سليمان بها والتي أصبح الأنبياء ضدها كثيراً. أما العقيدة الرئيسية فقد كانت في الحقيقة تختلف اختلافاً بسيطاً عما كانت عليه في الفترة السابقة.

ولكن استعملت في هذه الفترة أدوات دينية كثيرة أدخل استعمالها في الطقوس الدينية المتعددة مثل المزارات التي كان يزدان معظمها بصور الأفاعي والحمام وقماقم البخور والمطور (التي تشبه القماقم التي وجدت في مجدو) ويبدو أن المعبد الشمالي كان مكرساً لعبادة آلهة منافسة لعشتروت، وأما الجنوبي فربما كان مكرساً لعبادة إله صديق لها، ولكن لا يوجد لدينا دليل قاطع على صحة هذا القول. أما الأدوات الدينية التي وجدت في كلا الهيكلين فكانت متشابهة تقريباً.

تتوفر لدينا اليوم بعض الحقائق عن تاريخ عدد من المدن الصغيرة التي كانت مدينة بيت الشمس ٢ نموذجاً لهذه المدن الصغيرة. أما المدينة ٣ التي سبقتها فقد التهمتها النيران وأتت عليها كلية حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وربما حدث ذلك أثناء حرب داود ضد الفلسطينيين. أما المدينة اللاحقة فقد بنيت حسب هندسة جديدة، ولكنها مدينة بشيء قليل لهندسة المدينة السابقة. فالتحصينات التي أنشئت محاذية للأسوار السابقة والتي ضمت بعضها أحياناً، أتت بأسلوب جديد في الدفاع أصبح شائعاً في فلسطين طوال العصر الحديدي. هذا الأسلوب عبارة عن سور مردوج تصل بين جزئية جدران للعبور. وبذا تكونت على هذه الأسوار سلسلة من الأسوار المسقوفة. ومن الأدلة المواضحة نستنتج بكل تأكيد أن القسم السفلي من هذه التحصينات كان يملأ بالحجارة، وتصبح العملية برمتها عبارة عن سور سميك جداً مع اقتصاد ملموس في الحجارة. فالسور الخارجي في بيت الشمس كان سمكه حوالي ١,٥٠ متراً أما الداخلي فكان حوالي ١,١٠ متر والمسافة بينهما حوالي ١,٥٠ متر، لذا يكون العرض الكلي للسور حوالي ٤,١٠ متر وفي بعض الأماكن أعرض من ذلك.

تتقسم الطبقة الثانية إلى ثلاثة أقسام فالأولى منها أي (الثانية ١) ترجع في تاريخها إلى ١٠٠٠-٩٥٠ ق.م. وقد تم حفر جزء بسيط من هذا القسم، ولكن يبدو أن الكثير من الأبنية التي شيدت فوقه فيما بعد كانت عبارة عن إعادة بناء بيوت هذه الفترة. وبذا أمكن اليوم معرفة خارطة المدينة الثانية التي شيدت في العصر الحديدي.

فالخارطة ١ نموذج جيد لما كانت عليه المدن، وللنموذج الذي سبق وأشرنا أن له علاقة بمجدو. وعلى بعد ستة عشر متراً داخل التحصينات أنشئت طريق مستديرة ثم ملئت هذه المسافة الواقعة بين الطريق والأسوار بالبيوت المتراصة. أما تخطيط البيوت داخل الطريق الدائرية فهو على الغالب غير منتظم. ولكن البيوت غالباً ما تتجه أبوابها شمالاً وجنوباً. وهنالك عدد من المميزات الخاصة بمدن العصر

الحديدي منها أن البناء الأساسي يتسم طولياً بحائطين يقسمان تقريباً إلى ثلاثة أقسام متساوية ومتوازية، بينما توجد غرفة في أحد طرفي البناء بطول عرض البناء كله. وكان يظن أن انقسام البناء بهذا الشكل هو لتكوين بيت من أربع غرف، ولكن لم يرد حتى الآن في أي من الأمثلة السابقة دليل واضح على أن الجدران الطولية قد بنيت فوق سطح أرض البناء، بل تشير الأدلة إلى أنها جدران استنادية تدعم صفاً من الأعمدة. وربما كان البناء الرئيسي عبارة عن بهو كبير في كنيسة. وهنالك ميزة ثانية في البناء هي استعمال الحجارة بشكل قائم لرصف أرض البناء لارتفاع يقرب من المتر. وكانت بعض حجارة الرصف تدخل في الجدران دون أن يربطها بها أية مادة لاصقة. ومن هذه الميزة يستحيل علينا أن نقرر أين كان سطح أرض البناء بالنسبة لهذه الحجارة. ولربما هبط بعضها في الأرض وكون القواعد للأعمدة الخشبية التي تحمل السقوف. وهنالك ميزة ثالثة ظهرت لآخر مرة في هذه الفترة وهي ظهور صوامع مستديرة لخزن الحبوب والغلال تقوم فوق حفرة في الأرض مبطنة بالحجارة. وقد استعملت طريقة الخزن هذه منذ العصر البرونزي المتأخر، ولكنها اختفت في العصر الحديدي القديم الثاني.

وتمتاز الطبقة الثانية أ باختفاء الفخار الفلسطيني. ولا شك في أن دفع الفلسطينيين جهة الشكل الساحلي قد قلل كثيراً من آثارهم، ولكن في هذه الفترة وحتى في فلسطين نفسها كان قد اختفى الفخار الذي كان مألوفاً وسائداً في البلاد وحلت محله أنواع جديدة ذات طابع جديد متميز، فالطابع الجديد الذي ظهر في أوائل القرن الحادي عشر ق.م. وأصبح سائداً في القرن العاشر هو استعمال مادة الهمتايت (حجر الدم) الحمراء الداكنة في صناعة الفخار. وبعدها يصقل الفخار باليد صقلاً متساوياً في جميع أقسامه مما يكسبه روعة وجمالاً حقاً. واستعمال هذا النوع من الفخار هو ارتداد غريب لعملية كانت سائدة في العصر البرونزي المتوسط والتي كانت قد اختفت كلية بين العصرين.

يظهر في مدينة تل بيت مرسيم التي شهدت في مطلع العصر الحديدي الأول العديد من مميزات بيت الشمس حيث تنقسم الطبقة (ب) إلى ثلاثة أدوار يرجع الثالث منها (ب٣) إلى حوالي ١٠٠٠-٩٣٠ ق.م. وبذا فهذه الطبقة تعاصر الطبقة (٢أ) في بيت شمس وهنا أيضاً يبدو السور الذي بني في (ب٣) مشابهاً لسور بيت شمس ذي التحصينات المسقوفة. وكان عرض هذا السور حوالي ٣,٧٥ متر. كما نجد نفس الدائرة في البيوت التي بنيت حول الأسوار. ونجد الطريق التي تبتدئ من البيوت المتجهة شرقاً والواقعة وسط المدينة. كما نجد صوامع الغلال المستديرة والتي لا تزال مستعمله، ولكنها تختفي في الطبقة (٢) وأما الفخار فهو بمسه الفخار الأحمر المصقول باليد. ويلاحظ هنا كما هي الحال في بيت شمس عدم وجود أي شيء يدل على حضارة راقية. فالقطع القليلة التي عثر عليها والتي إما منحوتة أو مسبوكة أو مدهونة لا تدل إلا على فن وضيع جداً. أما الأشياء الهامة جداً فهي التي ترجع للعصر البرونزي الحديث وأهمها تمثال لامرأة حامل يدل شكله على ارتباطه بالطبقة (ب)، ولكننا لا نستطيع إرجاعه بثقة إلى تاريخ هذه الفترة. وأهمية هذا التمثال أنه يدل بنوع خاص على مدى تأثير القصائد الدينية القديمة بالرغم من وجود المعتقدات الدينية الإسرائيلية.

أما المكان الذي يقدم لنا أحسن دليل على هندسة البيوت في القرن العاشر ق.م. فهو تل الفارعة، حيث استمر الاستيطان فيه منذ العصر البرونزي المتوسط (٢) حتى العصر الحديدي.

أما عن بيوت السكن في العصور التي سبقت هذه الفترة فلدينا الشيء القليل، وقد دلت الحفريات في جميع الأماكن التي تم حفرها على وجود مخلفات العصر الحديدي القديم الأول بحالة سليمة. كما دلت على هندسة غير عادية دقيقة ومنظمة لبيوت هذه الفترة. فالجدران ليست سميكة فهي على الغالب مدماك من الحجارة التي يملأ الفراغ بينها أحياناً بما اتفق من حجارة لتقويتها. أما البيوت فتلتصق

أجزاؤها الخلفية مع بعضها وتتجه أبوابها الأمامية في جهتين متعاكستين نحو شوارع متوازية. تقسم خارطة البيت الواحد مبدئياً إلى ثلاثة أقسام. فالباب الموصل من الشارع يؤدي إلى الفناء تقوم على جانبيه الحجرات الثانوية ويقسم الفناء في بعض أجزائه بالأعمدة والجدران في البعض الآخر. وفي نهاية الفناء تقوم أحياناً غرفة أو اثنتان وتوجد وسط الفناء الأفران وغيرها من الإنشاءات التي تتطلبها البيت. وقد بنيت البيوت جميعها حسب هندسة واحدة وحسب مقاييس متشابهة. ويبدو من هذا أن الفروق الاجتماعية كانت قليلة بين السكان.

لذا يكون علم الآثار قد زودنا بالشيء القليل المباشر من عظمة بلاط سليمان، ولكن برهن على أن الحضارة خارج العاصمة لم تكن على درجة عالية من التقدم كما أنه لم تكن هنالك دلائل اقتصادية هامة تشير إلى الرخاء، بل أثبت أن البلاد ما زالت بلداً زراعياً قوامه الفلاح البسيط بالرغم من الحضارة العالمية التي كانت تسود العاصمة والبلاد. فالدين القومي لا يزال يجد مناخاً قوياً في الطقوس والشعارات الدينية المتعددة التي سادت البلاد منذ مدة طويلة، والتي كانت تجد دون شك تشجيعاً قوياً لها داخل البلاط حيث كانت تعبد آلهة الكنعانيين الحلفاء.

وتشير المواقع التي زودتنا بأفضل الدلائل الأثرية إلى بدع أخرى من بدع سليمان عرفنا عنها الشيء الكثير من خلال أسفار التوراة. هذه البدع هي نشاطه التجاري وظهوره بمظهر أمير كبير من أمرائها. في الحقيقة لم نجد أية أشياء هامة مستوردة من خارج البلاد في طبقات هذه الفترة من تاريخ فلسطين الأصلية، ولكن الحفريات في شرقي الأردن أثبتت أن أحد مصادر ثراء سليمان هو سيطرته على تجارة وصناعة النحاس في هذه المنطقة.

وهنالك مواقع تشير إلى أن صناعة النحاس كانت قائمة منذ القدم على جانبي وادي عربة وهو الوادي السحيق المتمم لامتداد وادي الأردن والبحر الميت في اتجاه

خليج العقبة. ففي الثلاثينات من هذا القرن قامت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية في القدس بمسح منظم لهذه المنطقة. وقد كشفت الأبحاث عن وجود ثروة مذهلة في المواقع التي جرى فيها تعدين وصهر النحاس. فالثروة المعدنية في هذه المنطقة كانت دون شك أحد أسباب النزاع الطويل بين الإسرائيليين والأدوميين، لأن الاستيلاء على المنطقة يعني بوضوح الاستيلاء على مصدر اقتصادي هام. والدليل الواضح الهام الذي يشير إلى هذه المواقع هو الأكوام العظيمة السوداء من نفايات النحاس وخاماته.

والأغرب من ذلك العثور على أفران الصهر بحالة جيدة، وعلى بقايا بيوت العاملين فيها. وقد لوحظ أن عدداً كبيراً منها كان محصناً تحصيناً جيداً، كما لوحظ أن بعضها كان مسوراً بأسوار منيعة؛ إذ ربما كانت هذه الأماكن شبيهة بمعسكرات الاعتقال حيث يزج العبيد وأسرى العمل الذين كانوا عماد تعدين وصناعة النحاس. وقد لوحظ أن العديد من هذه المناجم كان مكشوفاً ومحفوراً رأساً في الأرض، بينما البعض منها كان داخل كهوف حفرت في جوانب التل تستند سقوفها على أعمدة، ومن داخل الكهوف تتشعب الأنفاق داخل التلال. ويبدو أن خامات النحاس كانت تستخرج من هذه المناجم ثم تنقل إلى أماكن قريبة حيث تنقى من بعض شوائبها ومن ثم تنقل إلى أماكن أخرى حيث تتم عملية التنقية.

وقد جمعت بعثة التنقيب الأمريكية كميات كبيرة من قطع الفخار التي عثرت عليها في هذه الأماكن، وقد وجد العلماء أن بعضها يرجع في تاريخه إلى عصر الأنباط بينما القسم الأكبر يعود للعصر الحديدي القديم؛ أي إلى القرن العاشر ق.م. ويبدو أن الكثير من هذه المواقع قد استوطن لأول مرة في هذه الفترة. وحتى بدون هذه الأدلة التاريخية نستطيع أن نفترض أن فترة الاستقلال الزاهرة هذه كانت قد حدثت أثناء حكم سليمان، لأن السيطرة على المصادر المعدنية تفسر لنا سبب ثرائه الفاحش. لأن

المعادن هي قوام بضائع التصدير التي كان سليمان يشيد لها بالكماليات التي كان بحاجة إليها في بلاطه وعاصمته.

لم تكن هنالك أية فترة في تاريخ فلسطين ذات سلطة مركزية قادرة على القيام بأعباء التخطيط والتنظيم الضروريين للقيام بمثل هذه الأعمال العظيمة. لأن المنطقة جرداء قاحلة تخلو تقريباً من أي شيء يساعد على الحياة أو الصناعة فيها. فمصادر المياه قليلة والوقود لا وجود له. لذا يجب نقل الماء والطعام والأدوات وغيرها من الأشياء الضرورية على ظهور قوافل الجمال أو الحمير. والمصدر الوحيد لوقود الصهر هو أخشاب غابات أدوم الوعيرة. وكانت الأخشاب تقطع في أماكنها ثم تحرق لتحول إلى فحم قبل نقها إلى أماكن الصهر. فعملية تحضير الوقود ونقله ثم استخراج المواد الخام وصهرها وتنقيتها ثم إدخالها إلى الصناعات المختلفة وتصديرها للأسواق كل ذلك يتطلب جهداً عظيماً ونظاماً في غاية الدقة والتخطيط.

لقد اكتشفت البعثة الأمريكية مركزاً –ربما الرئيسي منها- من مراكز المراحل النهائية لعملية التعدين هذه. وهو يقع على تل صغير يدعى تل خليفة يبعد حوالي ٥٠٠م عن شاطئ خليج العقبة. وربما كان يقع في الماضي على الطريق الساحلية القديمة. فالمكان غريب جداً في موقعه لأنه يبعد كثيراً عن مصادر المياه الواقعة إلى الشرق منه، كما يقع في مهب الرياح الشديدة التي تهب عبر وادي عربة. وقد دلت الحفريات على أن القسم الأكبر منه يحتوي على أفران صهر في غاية الروعة والإتقان. ويظن أن المكان قد اختير بعناية وإتقان للإفادة من قوة الرياح الضرورية لإدارة أفران الصهر والصناعة.

إن هذا المركز لم يكن كبيراً، ولكنه كان محصناً بأسوار منيعة جداً، وقد تم بناؤه كله دفعة واحدة فوق بقعة لم تكن مأهولة بالسكان من قبل. وقد أرجع المنقبون تاريخ الطبقة الأولى منه إلى القرن العاشر ق.م. مسترشدين بقطع الفخار التي وجدت فوق

أرض المكان. لذا فمن الممكن جداً أن يكون هذا المركز هو ميناء سليمان الذي كان يدعى عصيون جابر، الذي يجب أن يكون في مكان ما من هذه المنطقة حيث كانت تصنع سفن أسطوله التجاري (يجب أن لا ننسى أنه لم تكن لسليمان أية سيطرة على ميناء على ساحل البحر الأبيض) التي كانت تصل إلى البلاد محملة بالبضائع النفيسة كخشب الصندل والياقوت والفضة والعاج والقردة والطواويس آتية من بلاد أوفر[1] Opher.

بعد عصر سليمان أصبحت سيطرة الإسرائيليين على وادي عربة غير مستقرة، لأن الإسرائيليين لم يخضعوا الأدوميين لسيطرتهم إلا أبان الملكية المتحدة، أو بعد التجزئة مباشرة حيث كانت الدولة اليهودية لا تزال قوية بوجه خاص، ولكننا لا نعرف إن كانت عصيون جابر قد بقيت ميناء هاماً طوال خمسة قرون في ظل الحكم الإسرائيلي أم الحكم الأدومي، وقد دلت الحفريات على أن المكان قد أعيد بناؤه ثلاث مرات.

وقد وجدت في مستوى الأعمدة الثالثة جرة من الفخار تذكرنا بالدور الهام الذي لعبه هذا الميناء في تجارة التوابل والبهارات بين جنوب جزيرة العرب وشمالها، كما وجدت على سطح نفس المستوى قطع فخارية سوداء من صنع يوناني ترجع في تاريخها إلى منتصف القرن الخامس ق.م. وهي تدل على أنه كان للميناء دور هام في التجارة بين الغرب وأواسط الجزيرة العربية.

لقد توفر لدينا الدليل القاطع في وادي عربة على مركز سليمان الهام كأمير عظيم من أمراء التجارة، بينما لم يتوفر لدينا أي دليل آخر من هذا النوع في جميع الحفريات التي تمت في فلسطين. ويبدو من هذا أن عظمته المادية قد تمركزت جميعها

(١) هي بلاد أو ميناء اعتادت سفن سليمان أن تجلب منه كميات كبيرة من الذهب، مكانها مجهول ويطلق الاسم أحياناً على شمال شرق أفريقيا وأحياناً على جنوب شرق بلاد العرب وأحياناً على بلاد الهند، ولكن الرأي السائد اليوم إلى أنها تشير إلى جنوب غرب جزيرة العرب (اليمن) وما جاورها من السواحل. نقلت الملاحظة عن موسوعة كولومبيا.

في القدس حيث يمكننا تتبع آثار بسيطة من آثار هذه الفترة ففي القدس رسخت أقدام الحضارة الفينيقية، أما في غيرها من المدن الصغيرة فقد بقيت البساطة الإسرائيلية على حالها. وتدل آثار هذه المدن على أنه كانت فيها بالفعل مدن منظمة ذات طراز متجانس في الهندسة والبناء: إذ منذ العصر البرونزي المتوسط آخذت المدن الحقيقية تظهر لأول مرة في التاريخ لتحل محل القرى المبعثرة هنا وهناك، ولكن القليل من هده المدن كان ذا طابع خاص أو على درجة عالية من التقدم والازدهار.

إن المقارنة بين تقدم العاصمة وبين غيرها من مدن الأقاليم الفقيرة التي كانت دون شك تستغل وتنهب خيراتها إرضاء للرغبات الملكية تكشف لنا عن إحدى المميزات الدفينة التي امتازت بها مملكة سليمان.

لا يوجد هنالك أدنى شك في أن القواعد الاقتصادية في مملكة سليمان لم تكن سليمة. وقد ثبت ذلك عندما ضاعت منها أدومية ومناجم النحاس. وقد حدث ذلك كما يبدو قبل نهاية حكم سليمان. وهنالك سبب آخر هام ورد تأكيده في التوارة هو العامل الديني. إن هرطقة سليمان (أي مخالفته لتعاليم التوارة) وتساهله مع الديانات الأجنبية الأخرى أثار معارضة أولئك المخلصين والمتمسكين بديانة يهوه المتعصبة القاسية. وقد قام هؤلاء بتحريض قبائل الشمال على الثورة ضد القدس.

مات سليمان حوالي سنة ٩٣٥ ق.م. وفي سنة ٩٣٠ ق.م. قاد يوربعام قبائل الشمال في ثورة ضد رحبعام ابن سليمان وخليفته، وهنا تنتهي فترة الملكية المتحدة القصيرة.

الفصل الحادي عشر

مملكتا يهوذا وإسرائيل

بالرغم من أن ثورة قبائل الشمال ضد ترف وبذخ القدس وبدعها الدينية هي التي قضت على المملكة المتحدة، فإن مملكة إسرائيل التي قامت في الشمال أصبحت في الحقيقة هي الوارث للحضارة التي جلبها سليمان إلى فلسطين، بينما اتخذت مملكة يهوذا التي قامت في القدس موقفاً عدائياً ضد مظاهر الترف والعظمة تلك، واستعادت الكثير من بساطة العيش وحتى بربرية الفترة السابقة لعصر سليمان.

إن ما حدث لم يكن بالأمر المستهجن، بل كان طبيعياً متوقعاً لأن لمملكة إسرائيل حدوداً جغرافية تصلها بفينيقية وغيرها من البلاد المتحضرة في الشمال، بينما أصبحت مملكة يهوذا محاطة في الشمال بمملكة إسرائيل التي كانت دائماً في حرب معها وبممالك شرقي الأردن في الشرق تلك القبائل المتخلفة التي تجنح دائماً للحروب، وبالصحراء القاحلة الجرداء جنوباً.

ومن حسن الحظ فقد زودنا علم الآثار بالدلائل الكثيرة التي تشير إلى آخر وأهم مظاهر الحضارة الفينيقية التي جلبها سليمان إلى فلسطين. وقد عثرنا على الكثير من هذه الأدلة في السامرة التي أصبحت العاصمة الدائمة لمملكة الشمال.

لم يتخذ ملوك إسرائيل في السنوات الأولى التي تلت الانقسام مركزاً ثابتاً لهم يستقرون فيه، فبعد أن اتخذوا نابلس (وكان اسمها أنذاك شكيم Shechem وهو اسم كنعاني) عاصمة لهم لفترة من الزمن انتقلوا إلى ترزة Tirzah وربما حدث

ذلك زمن الملك الثالث بعشا Baasha أو ربما قبله بقليل وحوالي سنة ٨٨٥ ق.م. حاصر عمري ترزه واستولى عليها. وقد التهمت النيران أثناء حصارها قصر ملكها المستبد زمرى الذي مات حرقاً بداخل قصره. وقد دلت آخر الحفريات التي قامت بها مدرسة التوراة دلالة لا تقبل الجدل على أن ترزه هذه هي تل الفارعة.

وقد مر معنا في الفصل العاشر وصف شامل لمدينة تل الفارعة في القرن العاشر ق.م. لقد حاق بهذه المدينة خراب ماحق لم يبق فيها على شيء، وطمرت الأنقاض في طبقاتها السفلى جميع محتويات بيوتها. وقد لاحظ علماء الحفر في الأماكن التي تم حفرها أن البيوت الخاصة التي قامت على أنقاض البيوت السابقة كانت تختلف تماماً عن سابقتها، إذ هي أعظم منها بكثير، وتحيط بها الأسوار السميكة. ومن غريب ما لاحظوه عنها أن بناءها لم يتم. لقد بنيت أسسها على أنقاض أسس الأبنية السابقة التي كانت تبرز قليلاً فوق أنقاض جدران الأبنية السابقة. أما الحجارة المدقوقة والمنحوتة التي أعدت لإتمام البناء فقد بقيت مبعثرة هنا وهناك دون أن يقدر لها أن توضع في أماكنها، كما لم يقدر لأرض الأبنية الجديدة أن تسوى فتطمر عند تسويتها جدران وبقايا الأبنية السابقة.

لقد جاء في سفر الملوك الجزء الأول — ١٦ — ٢٣ — ٢٤ ما يلي: في السنة الحادية والثلاثين من حكم أسا Asa ملك يهوذا بدأ عمري حكمه لملكة إسرائيل الذي دام مدة اثني عشر عاماً. وقد حكم ست سنوات منها في ترزه اشترى بعدها تل السامرة من سامر Shemer بوزنتين من الفضة وبنى مدينة فوق تلها أسماها السامرة نسبة إلى سامر المالك الأصلي للمكان.

يتفق هذا النص تماماً مع الأدلة والبراهين التي استطعنا الحصول عليها في تل الفارعة والتي تشير إلى أن أومري قضى الأربع سنوات الأولى من حكمه في حروب ضد منافسه تبني Tibni، وعندما وطد دعائم ملكه بدأ في بناء عاصمته، ولكنه

سرعان ما أوقف العمل. وتشير الدلائل الفخارية على أنه في الوقت الذي توقف فيه العمل في تل الفارعة بدأ العمل في السامرة. ويدل فخار تل الفارعة على الاختفاء التام للنماذج الفخارية التي وجدت في السامرة في الفترتين الأوليين من تاريخها، بينما لم نعثر في السامرة على فخار تل الفارعة الذي كان سائداً في الفترة التي سبقت إعمار السامرة.

وعندما قرر عمري نقل عاصمته إلى السامرة نقل بلاطه معه أيضاً، وربما معظم سكان عاصمته القديمة ترزه، أما تل الفارعة فقد آل إلى الخراب ولم تظهر الحياة فيه ثانية إلا في عصر السامرة الثالث، كما لم تصبح مدينة زاهرة إلا في العصر الرابع.

إن أسباب نقل عمري لعاصمته من ترزه إلى السامرة مردها إلى ناحيتين تتضح الأولى منهما من وصفنا لأبنية السامرة التي تدل على أن عمرى كان يطمح في أن تكون له عاصمة عظيمة يفاخر بها، وهذا الطموح لا يتحقق إلا في موقع فسيح كموقع السامرة. وبالرغم من أن مواصلات تل الفارعة جيدة إلا أنها تتجه مبدئياً جهة الشرق. أما السامرة فتقع في مكان ينحرف قليلاً عن الطريق الرئيسية بين الشمال والجنوب. لذا فهو موقع ممتاز جداً يمكن منه مراقبة أي تقدم لملكة يهوذا صوب الشمال، ويمكن منه الاتصال بسهولة مع بلاد الفينقيين. ويدل تاريخ السامرة على أن عمري رغب في توطيد علاقاته الودية مع المدن الفينيقية المتحضرة. والدليل على ذلك هو زواج ابنه آخاب بايزابلا Jezebel أميرة صور. كما كان يهمه أيضاً سهولة الاتصال غرباً حيث تقع أخصب سهول مملكته. وعلى العموم كانت السامرة مكانـ يفضل كثيراً في موقعه موقع تل الفارعة. وتمتاز السامرة بميزة فريدة بها وهي أنها المدينة الإسرائيلية الوحيدة التي بناها وأسسها الإسرائيليون. ولها أهمية كبيرة من ناحية أثريه. فطالما استطعنا تاريخ بدء تأسيسها أصبح بإمكاننا أن نحدد بدقة [illegible] الفخار وغيره من الموجودات الأثرية التي لها ارتباط بحقبها التاريخية الأولى [illegible]

أهميتها من الناحيتين الأدبية والثقافية فترينا كيف أن الإسرائيليين بنوا مدينتهم هذه دون أن تعترضهم أبنية سابقة. لأن موقع السامرة كان بكراً يخلو من أي بناء أو سكن.

إن الموقع ذاته ليس موقعاً هاماً، ولكنه يمتاز بعدة فضائل تشجع على العمران فوقه. فتل السامرة تل منعزل يقع في سهل تحيط به التلال المرتفعة التي تبتعد عنه لدرجة تفقد سيطرتها عليه، وهو يرتفع بانحدار من الأودية المحيطة به وتمر بقربه غرباً أعظم طريق محاذية لخط تقسيم المياه، وهي أقدم طريق عرفتها البلاد، كما تخرج منه عدة طرق جيدة باتجاه الأردن شرقاً أو باتجاه السهل الساحلي والبحر المتوسط غرباً.

وتؤكد الحفريات صحة قصة التوراة التي تذكر أن عمري هو المؤسس الأول لمدينة السامرة في مكان لم يكن مأهولاً من قبل. وقد عثر في الجيوب الصخرية على بعض القطع الفخارية البدائية الأصل، كما عثر على عدد من قطع الحجارة ترجع في تاريخها لنفس تاريخ قطع الفخار. وتدل هذه على أن المكان كان قد هجر منذ مطلع الألف الثالث وبقي كذلك حتى بدأ عمري تأسيس عاصمته فيه.

إن الطبقة التي بدأ البناء عليها تقع على الصخر مباشرة. وقد استفاد موقع المدينة كثيراً من التكوين الطبيعي لشكل التل. فهو ينحدر من هضبة ترتفع حوالي ٤٣٠ متراً عن سطح البحر نحو أمكنة ترتفع ٣٥٠ متراً، وهو أبعد انحدار وصلته المدينة في امتدادها زمن الرومان، مع بقاء هذه النقطة أعلى من مستوى الأودية المحيطة بالتل، فالانحدار من القمة نحو الأودية شديد في جميع جهاتها عدا الشرقية منها. وتبلغ أبعاد قمة الهضبة اليوم حوالي ٢٥٠ متراً من الشرق إلى الغرب و١٦٠ متراً من الشمال إلى الجنوب، وقد تكون جزءاً لا بأس به من هذه المساحة بفعل الأبنية السابقة التي بدأت بأبنية عمري حيث كان البعد الأصلي من الشمال إلى

الجنوب حوالي ٩٠ متراً. وعند تأسيس المدينة خصصت قمة الهضبة للبلاط الملكي وأصبح هذا الاتجاه الجديد هو السائد والمتبع في تخطيط المدن الفلسطينية.

لقد كان هذا التخطيط مشابهاً دون شك لتخطيط قدس سليمان. ولكن أول دليل ملموس على ذلك أتى من السامرة. ويتفق هذا التخطيط إلى حد بعيد مع قلعة أثينا (الأكروبولس) التي كانت نموذجاً للمدن اليونانية، ولكن الوضع يختلف بالنسبة للسامرة لأن القلاع اليونانية كانت عبارة عن مراكز دفاعية مدنية وسط مجتمعات ديموقراطية. وربما كان الحي الملكي في السامرة حياً دفاعياً منذ تأسيسه، لأنه أصبح في المرحلة الثانية على الأقل محاطاً بالأسوار المنيعة، ولكن يبدو من هذا أن الدفاع لم يكن الهدف الأساسي عند بنائه والدليل على ذلك هو أن الأسوار الأولى لم تكن ذات صبغة عسكرية، ولكننا نستنتج من موقعه أنه لم يكن على أية حال مركزاً مدنياً بل كان موقعاً حصيناً مسوراً وسط المدينة حصص لملك أوتوقراطي ولحاشيته.

أما حياة السكان الاجتماعية فقد تطورت تطوراً سريعاً؛ إذ انتقلت من حياة الفلاح الساذج المحارب إلى حياة البذخ والترف التي تمثلت بأجلى مظاهرها في ملوك إسرائيل في القرن الثاني.

إن القمة المسورة ترجع في بنائها إلى فترة العمران الأولى، وكما مر سابقاً لم يقصد بها مبدئياً أي هدف دفاعي، لأن سماكة جدران أسوارها لم تكن سوى ١.٦٠م وقد ساعد سور القمة هذا على ازدياد مساحة سطح القمة؛ إذ أصبح بمثابة جدار استنادي Terracing wall ففي الجهة الشمالية بني فوق مكان بدأ الانحدار فيه عمودياً ثم ملئ الفراغ بينه وبين طرف القمة بالأتربة والصخور إلى ارتفاع مترين حتى أصبح مستوى سطح الأرض داخل السور أعلى من المستوى خارجه بأربعة أمتار على الأقل (تهدم هذا المكان بفعل الأبنية المتعاقبة عليه) وكان هذا السور يبدو منخفضاً جداً بالنسبة إلى أي قسم من الأبنية الداخلية. وقد عثر على بعض أجزاء

واجهاته الخارجية، وبالرغم من ضآلتها فقد أعطتنا فكرة واضحة عن عظمة البناء في السامرة زمن عمري.

إن الواجهة الخارجية لهذا السور تعطينا مثالاً قيماً لما كان عليه فن البناء بالحجارة؛ إذ نجد على الصخر مباشرة مدماكاً من الحجر غير المنحوت (الدبش) يتداخل ويترابط مع النتوءات الصخرية البارزة دون انتظام، ويكون هذا المدماك مع النتوءات أساس الأبنية أو الأسوار الثقيلة في السامرة الإسرائيلية، ويبدأ بعد هذا المدماك بناء الحجارة المنحوتة والمصقولة صقلاً جيداً والتي توضع في أماكنها بمنتهى الدقة والجمال.

وقد اقتفى المنقبون خط سير هذا السور العظيم حول قمة الهضبة. وتدل طبيعة ارتفاع وانخفاض الأرض حوله على أن مدخله يجب أن يقع في الجهة الشرقية حيث يمتد السور إلى الأمام بشكل بارز، وربما كان ذلك باتجاه باب تذكاري، ولكن آثاره فقدت بسبب كثرة المحاجر التي حفرت في هذه الجهة فيما بعد. وقد عثر المنقبون في الطرف الغربي من القمة على بناء جميل جداً. أما في بقية أنحاء هذا القسم المسور فلم يعثر إلا على أساس الأبنية التي كانت مقامة سابقاً، ولكنها كافية لإعطائنا فكرة واضحة عن مخطط البيوت والأبنية التي كانت واسعة ومنتظمة. وقد كشفت الحفريات في المنطقة التي تم حفرها عن وجود ساحة عظيمة رصفت أرضها بالحجارة الصقيلة.

أما البيوت فقد بنيت موازية لبناء السور، ولكن بعيداً عنها وكانت غرفها واسعة نوعاً ما.

هكذا كان المخطط الهندسي للحي الملكي في مدينة عمري. وقد أضيفت إلى هذا المخطط الأصلي بعض الزيادات خلال فترة وجيزة. وتنسب هذه الزيادات إلى آخاب الذي خلف والده على العرش بعد ست سنوات من نقل العاصمة إلى السامرة.

ويمكن للمرء أن يعتبر بحق عملية البناء التي قام بها عمري وابنه آحاب عملية واحدة مستمرة. أما الزيادات الرئيسية فكانت عبارة عن امتداد قمة الهضبة حوالي ١٥ متراً جهة الشمال و٣٠ متراً جهة الغرب. وأما السور الذي بني لدعم هذا الامتداد فقد كان في نفس الوقت سوراً دفاعياً، وببنائه تحول الحي الملكي إلى حصن داخلي. وقد بني هذا السور على نمط الأسوار ذات الاستحكامات المسقوفة، ذلك النمط الذي كان متبعاً في فلسطين في العصر الحديدي. وقد كان سمكه في الجهة الشمالية حوالي (١٠) أمتار بينما كان سمكه في الجهات الأخرى حوالي خمسة أمتار.

وقد برز هذا السور الدفاعي كسابقه نحو الجهة الشرقية باتجاه ما يظن أنه مدخل للحي الملكي، بينما بقي السور القديم على حاله في الجهتين الشمالية والغربية مع طمر بعض الأجزاء، بسبب إضافة جدار استنادي لزيادة مسطح الهضبة. أما في الجهتين الجنوبية والشرقية فقد بني السور الجديد خارج ومقابل السور القديم الذي أصبح جزءاً داخلياً في الحي.

بالإضافة إلى السور الجديد الذي بني على القمة فقد بنيت أسوار أخرى حول الجدران الاستنادية الواقعة وسط التل. ويظن أن بناءها يرجع إلى هذه الفترة. وهي تدل على أسلوب البناء الإسرائيلي الرائع في بناء الأسوار والاستحكامات المقببة، وعلى استعمال الحجارة المنحوتة والمصقولة ذات الحواف الناعمة الملساء، وعلى البناء فوق أرض صخرية ذات نتوءات بارزة جذابة وغير منتظمة.

إن هذه الأسوار لا تمثل أسوار المدينة، ولسوء الحظ فقد اختفى أثر القليل منها. ويقع تحت البوابة الغربية للمدينة الرومانية بقايا ما يعتقد أنه بوابة المدينة. كما توجد بقايا أماكن إسرائيلية قريبة من أسفل التل، مما يدل على أن المدينة الإسرائيلية كانت في حجمها مساوية تقريباً لحجم المدينة الرومانية. ولسوء الحظ لم يبق إلا الشيء القليل من بقايا هذه الفترة ليدلنا على هندسة البناء الحقيقية باستثناء عدد

من تيجان أنصاف الأعمدة المربعة ذات الطراز الأيوبي. وقد وجدت هذه جميعاً غير مستعملة ضمن الأسوار اللاحقة. ولكن وجودها في الجهة الشرقية من قمة الهضبة يوحي بأنها ربما كانت تكون قسماً من مدخل القلعة. وقد عثر المنقبون على دلائل هامة تشير إلى ما كان عليه أثاث البيوت: إذ عثروا على بقايا نقوش من العاج، وقد أشارت التوراة إلى بيت آخاب العاجي، ولا يوجد هنالك أدنى شك من أن بقايا العاج هذه هي من بقايا زينة قصر آخاب بالرغم من أنها وجدت بين الأنقاض التي سببها الدمار الآشوري سنة ٧٢٠ ق.م. وبقايا العاج هذه تقدم لنا أهم الدلائل المادية التي لم تتوفر في أي مكان آخر عن الذوق الفني الذي كان لدى ملوك إسرائيل. فالأشياء الأساسية كانت صغيرة بحد ذاتها وكان الكثير منها محطماً. وبالرغم من العثور على المئات منها إلا أن القليل منها أمكن إعادته إلى ما كان عليه.

ربما يبدو ما عثرنا عليه قليلاً ولا نستطيع منه أن نستنتج ما كانت عليه زينة القصر، ولكن يجب علينا أن نتذكر أن ما عثرنا عليه كان البقية الباقية بعد نهب الآشوريين لهذا القصر. لذا يكون من العدل أن نفترض أن الزينة الأساسية كانت ثمينة جداً، وأن كمية العاج التي استعملت فيها كانت كبيرة ووافرة، وكان حجم القطعة الواحدة منها بحجم قطعة الفسيفساء أو لبورسلين Plaques وهي إما نافرة أو غائرة أو ضمن نموذج من نماذج الزينة. أما الأشياء المستديرة التي كانت تدخل في الزينة فكانت قليلة جداً. أما النقوش فقد زينت بأوراق ذهبية أو قطع زجاجية أو دهان لامع براق. وقد كانت معظم نماذج الزينة مصرية في مواضيعها وطريقة صنعها، ولكن لم يكن واحد منها مصرياً فعلاً بل كانت جميعها من صنع رجال شاهدوا الصناعة المصرية الأصلية وقلدوها حسب ذوق وفن بلدهم.

والدليل على أن قطع الزينة هذه لم تكن مصرية الصنع هو وجود عدد كبير منها يحمل أحرفاً عبرية وفينيقية نقشت على الخلف، وتدل الأحرف على أنها من زمن عمري وآخاب، لأنها تشبه في شكلها الأحرف التي كانت مستعملة في القرن التاسع

ق.م. أما النماذج العاجية فقد كانت فينيقية. وبالرغم من أن فن استعمالها وما توحيه كان منقولاً أو مستورداً إلا أنها كانت مملوءة بالمشاعر الحيوية لدرجة أنها كانت أجمل ما أنتج العصر الذي كان يفتقر إلى إيحاءات فنية عظيمة.

وهنالك أدلة أخرى تدل على أصالة وتاريخ العاج استطعنا الحصول عليها من موجودات أخرى شبيهة بتلك التي وجدت في قصر آخاب. وهنالك دلائل عديدة تشير إلى استعمال العاج في أغراض الزينة في سوريا. وقد تم العثور على مجموعتين كبيرتين من العاج تحويان عاجاً شبيهاً جداً بعاج السامرة. وقد عثرت على المجموعة الأولى بعثة فرنسية سنة ١٩٢٩ في أرسلان طاس في شمال سوريا وكانت معظم أجزائها شبيهة جداً بعاج السامرة. وقد كان للزخارف والمنحوتات في هذه المجموعة أهمية تاريخية كبرى لأنها تحمل اسم حزائيل Hazael ملك دمشق الذي أسبغ ملكاً سنة ٨٤٢ ق.م. أما المجموعة الثانية فقد عثر عليها لايارد Layard سنة ١٨٤٩ في قصر النمرود في بلاد الآشوريين.

ومن الثابت تاريخياً أن سرجون الثاني قد أعاد ترميم هذا القصر. لذا فمعظم ما فيه يرجع إلى هذه الفترة. أما العاج الذي وجد فيه فيبعد كل البعد عن النماذج الآشورية. لذا يظن أنه جلب من مصنع عاج السامرة. ولما كان سرجون قد نهب وغرم السامرة نفسها. لذا فليس بعيداً أن تكون مجموعة العاج هذه قد أتت من السامرة نفسها عندما نهبها سرجون سنة ٧٢٢ ق.م. إن أسلوب الزينة في قصر عمري وآخاب كان فينيقياً بحتاً. وهناك قليل من الشك في أن هندسة وفن البناء المار ذكرهما قد أتيا أيضاً من نفس المصدر.

وقد وجدت أماكن أخرى في فلسطين تحوي نفس التخطيط وفن البناء في السامرة. أما خارج فلسطين فقد وجد شبيه لها في رأس شمرا التي ترجع في تاريخها إلى العصر البرونزي الحديث، كما وجدت بقايا شبيهة بها في ميناء صور العظيم. لذا

فمن المحتمل جداً أن يكون عمري قد استورد بنائين فينيقيين كما فعل سليمان من قبل. ويدل على مدى علاقته الوطيدة بفينيقية زواج ابنه آحاب بإيزبلا أميرة صور.

نستنتج مما سبق أن السامرة كانت مدينة جديدة في كل شيء يقوم في وسطها الحي الملكي الذي يشرف ويصرف الأمور فيه، وأن الذين أشرفوا على زينته هم صناع ومهره من الفينيقيين. وقد كشفت الحفريات عن القليل من معالم تلك الزينة، لأن الأبنية اللاحقة كانت قد أتلفت كل شيء تقريباً. ولكننا نستطيع أن نتصور بعضاً مما كان عليه بلاط آحاب بإيزبلا: ذلك البلاط الذي أثار غضب الأنبياء بما كان عليه من رخاء وبهاء، وبما كان يرتكب فيه من فاحشة نكراء.

أما سكان السامرة فقد كانوا منتشرين على سفوح التل خارج الحي الملكي، ويقدر عددهم حسب إحصاء أجري زمن آحاب بسبعة آلاف من جميع أبناء إسرائيل، وربما كان بينهم كثير من الغرباء. وبعد مرور مائة وخمسين سنة سبق سرجون الثاني حوالي ٢٧٢٩٠ شخصاً من المدينة، وللآن لا تزال الأحياء العامة في المدينة تحت الأنقاض دون أن يكشف النقاب عنها، لذا لا نستطيع القول إن كان السكان قد أسهموا في حضارة الحي الملكي أو أن مساكنهم وما تحويه كانت لا تزال بسيطة.

لقد عثر علماء الآثار في بيسان في الطبقة الخامسة على أبنية تحمل نفس طابع البناء في السامرة، ولكن مجدو هي أهم المواقع في فلسطين التي تحوي أبنية من طراز بناء السامرة؛ إذ تحوي الطبقة الرابعة على العديد من النماذج المتشابهة في التخطيط والبناء. وقد مر معنا في الفصل العاشر أن علماء الآثار قد نسبوا هذه الطبقة إلى عصر سليمان، ولكننا نستنتج من الأدلة الهندسية والعمرانية ومن مقارنة فخار هذه الفترة والفترات التي سبقتها وتلتها بالفخار الذي وجد في السامرة أن أبنية الطبقة الرابعة قد بنيت بعد تأسيس السامرة بقليل إلى حوالي سنة ٨٥٠ ق.م. واستمر استعمالها حتى حوالي سنة ٧٥٠ ق.م.

كانت الطبقة الخامسة من قمة تل مجدو تحوي أبنية خاصة يسكنها أناس لا شأن لهم، وقد أزال سكان الطبقة الرابعة كل ذلك وعمروا المنطقة كلها بأبنية واسعة عامة. الشبه بينها وبين أبنية المرحلة الأولى في السامرة كبير جداً. ويعتقد علماء الآثار أنه كان هنالك مرحلتان من مراحل البناء الأولى تميزت ببناء قصر عظيم أو حي سكني صغير تحيط به الأسوار وإلى جانبه بناء صغير. ويعتقد المنقبون أن المساحة المسورة كانت تقرب من ٥٧ متراً مربعاً. وأنها كانت مبلطة بالحجارة الملساء على غرار الساحة العظيمة في السامرة. أما مدخلها فيقع في إحدى الزوايا حيث تحيط به الأبراج الحصينة. ويقع في أقصى الطرف المقابل بناء عظيم جداً يعتقد أنه قصر الحاكم. أما بناء البوابة فهو شديد الشبه بأبنية السامرة الأولى. ولم يبق تقريباً من بناء القصر العظيم أي شيء، ولكن الحجارة القليلة الباقية هي من نفس طراز حجارة السامرة، وقد وجد في جدران بوابة المدخل عدد من تيجان الأعمدة الأيونية المربعة التي تشبه تماماً تلك التي وجدت في بوابة السامرة.

أما السور الذي بني حول مساحة القمة فقد بني بأسلوب غريب على مجدو في ذلك العصر؛ إذ كان يوجد في كل مدماك بعد الآخر وعلى مسافات تتراوح بين ٢,٥٠ متر و٣ أمتار أعمدة منحوتة ومصقولة توضع أحياناً طولياً مع البناء وأحياناً بعرضه، وقد قصد من ذلك تقوية الأسوار. أما الحجارة فكانت شبيهة بحجارة البوابة، وقد ملأت المسافة بين الأعمدة بالحجارة الصغيرة غير المصقولة أو المنحوتة (الدبش).

وقد دام استعمال هذا الأسلوب في البناء فترة قصيرة. لقد اضطر البناؤون أثناء بناء أبنية الفترة الثانية إلى هدم قسم من الأبنية الملاصقة لسور القصر. وقد تم بناء الأبنية الجديدة على نمط الأبنية التي مر وصفها، وكانت تبدو وكأن بنائي الأبنية السابقة هم الذين بنوها. وقد امتدت الأبنية الحكومية في هذه الفترة حتى شملت جميع ما بقي من قمة التل (هذا ما تدل عليه الحفريات التي تمت حتى الآن) وربما كان حدث قصراً هدماً آخر. وقد بني على قسم من هذه المساحة إسطبلان عظيمان

معقدا البناء وكان أعظمهما هو الملاصق للقصر مباشرة. يتكون هذا الإصطبل من ساحة مساحتها حوالي ٥٥ متراً مربعاً تقوم الإصطبلات على أحد جوانبها، بينما تقوم الأبنية على الجانب. ويظن أن هذه الأبنية كانت حظائر للعربات. وكان وسط الساحة خزان للماء كانت الإصطبلات تتكون من خمس وحدات تتكون كل منها من ممر رئيسي يمر في وسطها، ويقوم على كلا جانبيه صف من الإصطبلات. ويوجد في نهاية كل مربط معلف (مكان يوضع فيه طعام الحصان) من الصخر وحجر نصف عمودي يحتوي على ثقب يربط فيه رسن الحصان. كانت الإصطبلات هذه تتسع لحوالي ١٥٠ حصاناً.

أما المجموعة الثانية فكانت تتكون من وحدات شبيهة بوحدات المجموعة الأولى، ولكنها تخلو من الساحة التي في الوسط. وهي تتسع لحوالي ثلاثماية حصان.

كانت قمة التل مسورة بسور عظيم يحتوي على مدخل رائع البناء يتصل برصيف ينحرف بشكل زاوية قائمة، ويوصل إلى بوابة خارجية مزدوجة. يقع وراء مدخل السور فناء واسع يتصل به رصيف آخر ينحرف بشكل زاوية قائمة ويؤدي إلى بوابة داخلية. كان هذا البناء عبارة عن بناء رائع ضخم يحتوي على أربعة أزواج من الدعائم يتسع الفراغ بينها إلى أربعة بوابات وثلاثة أزواج من غرف الحراسة. وقد بنيت البوابة الرئيسية (ربما بنيت فوق الطبقة) بنفس أسلوب الأبنية الأخرى التي تعلو الطبقة. وهي تحوي على أعمدة منحوتة ومصقولة وعلى زوايا وأحجار غير منحوتة (دبش). إن جدران المدخل تختلف تماماً في بنائها عن بناء السور المحيط بالقمة الذي كان جميعه من الحجر غير المدقوق (دبش). لقد بني هذا السور على أنقاض أسس القصر الذي تهدم والذي يرجع تاريخه للحقبة الأولى من حقب الطبقة الرابعة. ويظن أن هذا السور كان في الحقيقة إعادة لبناء سور كان قائماً على الطبقة الثالثة عندما كانت مأهولة.

يستخلص من هذا (كما هي الحال في السامرة) أن قمة تل مجدو كانت تستعمل في هذه الفترة لأغراض حكومية رسمية. وبالرغم من وجود إحدى النظريات التي تشير إلى أن الأبنية والإصطبلات تمثل إحدى مدن عربات سليمان إلا أن التخطيط وأسلوب البناء وجميع الفخار الذي وجد في المدينة تدل على أن هذه الطبقة كانت معاصرة تقريباً إلى أول تخطيط للسامرة. وتؤكد الدلائل على أنها كانت مركزاً من المراكز الدفاعية وليس منتجعاً ملكياً كما يظن، وذلك لطبيعة موقعها الاستراتيجي الهام.

سكن معظم سكان مجدو (كما هي الحال في السامرة) على السفوح السفلى من التل، وقد وجدت بعض آثار بيوتهم خارج سور المدينة. تتفرد السامرة ومجدو عن غيرهما من مدن هذه الفترة في فلسطين بأن لدينا عنهما معرفة تامة بالتخطيط وهندسة البناء، وأن كلاً منهما تحوي حياً حكومياً يسيطر على باقي المدينة. وربما كانت القدس دون شك شبيهة بهما، وأن حيش Lachish كانت لها بعض صفاتهم.

تشير الحفريات التي تمت في حازور[1] إلى أنه كان فيها مدينة عظيمة رائعة التخطيط والبناء، ففي الطبقة الثامنة التي ترجع لهذه الفترة تمتد المساحة الحصينة حتى تشمل الطرف الشرقي من التل. وبذا تضاعفت مساحة المدينة بالرغم من بقائها مدينة صغير جداً نسبياً؛ إذا ما قورنت بمدينة العصر البرونزي المتوسط. أما في طرفها الغربي فقد بنيت قلعة عظيمة ومتينة لدرجة أنها بقيت صالحة للاستعمال حتى العصر الهليني؛ أي حتى بعد هجر بقية الموقع كله.

لقد بني في وسط القمة فوق سور سليمان بناء ضخم قسم إلى أجنحة بصمين من الأعمدة الحجرية التي يبلغ ارتفاع كل منها نحو مترين، ويظن أن هذا البناء كان مخزناً، وهو لا يخلو من الأشياء الكثيرة التي توحي بأنه كان تابعاً للحي الملكي.

(١) هي تل القدح في الحولة شمالي فلسطين.

وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م. قامت ثانية مدينة هامة في تل الفارعة. وقد وجد المنقبون ضمن آثارها قطعاً فخارية شبيهة جداً بفخار الفترة الرابعة في السامرة. أما الحي الملكي فلا أثر له فيها بالرغم من وجود بناء هام ضخم يلي البوابة مباشرة. ويعتقد أنه ربما كان مركزاً لإدارة المدينة ومسكناً لحكامها. أما بقية المدينة فيبدو الفرق فيها واضحاً بين حي الأغنياء وحي الفقراء من سكانها. ففي حي الأغنياء نجد البيوت الخاصة الممتازة التي بنيت على طراز بيوت القرن العاشر ق.م. وهي تتكون من فناء تقوم الغرف على جوانبه الثلاثة. ويفصل هذا الحي عن حي الفقراء حائط طويل مستقيم. أما حي الفقراء فيتكون من بيوت صغيرة متقاربة ومزدحمة. ويعكس هذا الدليل مدى التفاوت الطبقي بين السكان. كما يعكس حملة التشهير التي شنّها الأنبياء على الأغنياء لامتهانهم حقوق الفقراء.

دلت الحفريات في المدن الأخرى على تخطيط في غاية البساطة يقرب جداً من التخطيط الذي كان سائداً في الفترة السابقة، وقد استقينا معظم معلوماتنا هذه من الحفر في مدن كانت تتبع مملكة يهودا. أما الأماكن التي يتم حفرها في مملكة الشمال كبيسان مثلاً فإن الحفر قد تم فقط في منطقة الهيكل. وتدل الحفريات على أن استعمال البنائين الواقعين في الطبقة الرابعة قد استمر حتى الفترة الفارسية. أما آثار هذه الفترة التي عثر عليها في أماكن أخرى من المدينة فليست كافية لتعطينا فكرة واضحة عن تاريخ وتخطيط المدينة.

لقد استطاع علماء الآثار اقتفاء تاريخ وتخطيط عدد من الأماكن الأخرى حتى بداية انقسام المملكة المتحدة. لقد بدأ إعمار هذه الأماكن بعد تدمير شديد يمكن أن ننسبه إلى حروب شيشق الأول أحد ملوك الأسرة المصرية الثانية والعشرين، الذي استعادت مصر قوتها في زمنه. ويبدو أن شيشق انتهز فرصة الضعف الذي أحدثه انفصال قبائل الشمال، فشن هجوماً عنيفاً على فلسطين ووصل في هجومه حتى مرج

ابن عامر سنة ٩٢٦ ق.م. وقد تعرضت مدن صغيرة كثيرة إلى الخراب والدمار أثناء حملته هذه، وقد تعرضت على سبيل المثال مدينة تل أبو حوام الواقعة على سفح جبل الكرمل إلى دمار شامل وبقيت مهجورة بعدها لعدة قرون.

وينسب إلى شيشق أيضاً دمار مدينة تل بيت مرسيم الواقعة في الطبقة الثانية، وقد كان خرابها عظيماً؛ إذ طمس معالم المدينة كليةً.

ولكن سرعان ما أعيد بناء هذه المدينة وشيدت الأبنية الجديدة على أنقاض الأبنية القديمة، والأبنية الجديدة تختلف كثيراً في تخطيطها وهندستها عن سابقتها. أما سور المدينة القديم فقد بقي مستعملاً في هذه الفترة بعد إعادة ترميم وبناء الاستحكامات المسقوفة التي تعلوه.

لقد تم التنقيب عن حوالي خمس مدن من مدن هذه الفترة، ودلت الحفريات على أن تخطيطها كان يشبه التخطيط الذي كان متبعاً في فلسطين في العصر الحديدي، ولنأخذ بيت مرسيم مثالاً لمدن هذه الفترة.

لقد ضمت المدينة الجديدة مستوى المدينة السابقة لها، وكشفت الحفريات عن وجود طريق دائرية تمر بتحصينات الأسوار جميعها وتفصل البيوت عن الأسوار، أما البيوت فقد رتبت بشكل مروحي أو بشكل أنصاف أقطار مركزها ساحة عامة وسط المدينة، ويبدو أن البيوت كانت صغيرة وغير منتظمة التخطيط. ومن أهم مميزات موقع هذه المدينة الدليل الذي يشير إلى الزيادة العظيمة في نمو سكان هذه الفترة بالنسبة لسكان الفترة السابقة. ففي الطبقة (B) كانت الأبنية متفرقة نسبياً عن بعضها، أما في الطبقة (A) التي تم حفرها والتي تتبع هذه الفترة، فالبيوت متقاربة جداً وتشير الأماكن التي وجدت خارج الأسوار إلى أن بيوت هذه الفترة قد امتدت خارج أسوار المدينة بسبب الزيادة الكبيرة في عدد السكان.

وبسبب تقارب البيوت تعذر علينا أن نستنتج ما كانت عليه هندستها، لأنه تحتم على كل بيت خاص أن يسد حاجة سكانه العمرانية حسب مساحته المتوفرة. والصفة الخاصة التي نلاحظها هنا هي شيوع استعمال الحجارة القائمة الحرة Free standing stones أي الحجارة التي لا تربطها بغيرها أية مادة لاصقة. وقد كانت هذه الصفة لإحدى مميزات البناء في العصر الحديدي. ولم يستطع علماء الآثار التوصل إلى تعليل مرضٍ لسبب استعمال هذا الأسلوب في البناء. وهنالك رأي يقول إن الغرض من استعمال الحجارة القائمة هو استعمال أنوال النسيج التي كانت تنصب عمودياً بإزائها. ويدعم هذا الرأي الدلائل التي تشير إلى أن بيت مرسيم كانت مركزاً هاماً من مراكز صناعة النسيج. وقد وجدت في المدينة بضع مئات من دعائم الأنوال كما وجدت مبعثرة فوق المساحة التي تم حفرها كمية كبيرة من نباتات الأصبغة. وتقدر أماكن الأنوال في المدينة بحوالي ٢٠ إلى ٣٠ مكاناً، وهو عدد كبير بالنسبة لمدينة صغيرة يتراوح عدد سكانها بين ألفين وثلاثة آلاف شخص. تمتاز هذه الفترة باختفاء صوامع تخزين الغلال المنتشرة في الأرض حيث حلت محلها الخوابي (الكوابير) التي أقيمت فوق مصاطب البيوت.

أما المكان الثاني الذي أصابه الدمار الشديد في النصف الثاني من القرن العاشر ق.م. فهو بيت شمس، حيث طمر رماد النيران التي استعرت فيه أبنية الطبقة (IIa) بطبقة سميكة من الرماد ويقدر المنقبون أن هذا الحريق الهائل حدث سنة ٩٥٠ ق.م. وإن صح هذا يكون الحريق قد حدث صدفة. لأنه يستحيل أن يدمر المدينة في زمن كان سليمان فيه في أوج عظمته وقوته. لذا تكون نسبة الدماء إلى شيشق سنة ٩٢٦ ق.م. أكثر دقة واحتمالاً من وجهة تاريخية لا سيما وأن الحقائق التاريخية ليست على درجة عظيمة من الوضوح بحيث يصبح مثل هذه النسبة غير ممكن.

وعندما أعيد بناء المدينة فوق الطبقة (IIB) اتبع في بنائها نفس الخطوط العريضة التي اتبعت في بناء الطبقة (IIa) لتي سبق وصفها. وتشير الدلائل على

زيادة ملحوظة في سكان هذه المدينة الجديدة.

أما المدينة الصغيرة الثالثة التي تم التنقيب عنها فهي تل النصبة Tell en Nasbeh وربما كان موقعها هو موقع مدينة نزبه Nizpah التي ورد ذكرها في التوراة؛ إذ بعد أن عمرت هذه المدينة في مستهل العصر البرونزي القديم عادت وهجرت، وبقيت كذلك حتى مطلع العصر الحديدي. ويبدو أن إعمارها قبل نهاية القرن العاشر ق.م. كان بسيطاً، وربما كان للمدينة في هذه الفترة سور دفاعي بسيط. وإذا صح أن موقعها هو موقع مدينة نزبه لذا فقد كانت زمن صموئيل أكبر من قرية بشيء قليل، ولكن ذلك لا يمنع من وضعها على قدم المساواة مع غيرها من الأماكن الهامة التي ذكرت في سجلات ذلك العصر.

بدأت شهرة نزبه بانقسام الدولة المتحدة إلى دولتين، حيث أصبحت المدينة مركزاً هاماً على حدود مملكة يهوذا. وقد حصنها آسا ملك يهوذا أثناء حروبه مع بعشه ملك إسرائيل وإلى هذه الفترة ترجع تحصيناتها القوية التي حلت محل التحصينات والأسوار السابقة، ومن سوء الحظ فقد تعذر على المنقبين بسبب تعقيد التركيب الطبيعي لها تحديد تاريخ الأسوار أو البيوت الخاصة. ولكن يبدو من الوجهة العامة أن تخطيط المدينة يرجع في تاريخه إلى عصر انقسام المملكة المتحدة.

كانت أسوار هذه المدينة حصينة جداً، وهي تدل على نموذج ثانٍ كان مستعملاً في العصر الحديدي، إلى جانب نموذج الأبراج المسقوفة كانت سماكة أسوارها تقرب من أربعة أمتار، وقد بنيت بالحجارة الضخمة. ومن الغريب حقاً هنا كما في بقية المدن الصغيرة الأخرى التي تم الحفر فيها أن لا نعثر على أي أثر للحجارة الفينيقية المنحوتة والمصقولة.

كان يعلو أسوارها وعلى أبعاد غير متساوية سلسلة من الأبراج المختلفة الأحجام والقائمة الزوايا. وقد دعمت قواعد الأسوار والأبراج في الجهتين الشرقية والغربية

بجدار ضخم من الحجر بني أمام قاعدة الأسوار. بلغ سمكه في بعض الأماكن حوالي ثمانية أمتار. وبذا تكوّن من التجهيزات جميعها نظاماً دفاعياً هائلاً.

أما البوابة فقد كانت الفسحة الواقعة بين طرفي جدار السور والبالغ عرضها حوالي (١٤) متراً. وقد أقيم فوق البوابة برج حصين لحمايتها. أما البوابة نفسها فقد تكونت من الدعائم المزدوجة التي تتخللها غرف الحراسة البارزة عن جدرانها والتي تقع في الطرف الداخلي من الممر.

وتشير هندسة الأبنية داخل الأسوار إلى العديد من صفات هذه الفترة، حيث بنيت البيوت بشكل مروحي أو أنصاف أقطار مركزها ساحة المدينة المتوسطة. وتفصل البيوت عن الأسوار طريق دائرية عرضها حوالي ٢٦ متراً، كما بنيت صوامع التخزين في كثير من الفجوات الواقعة بين السور والبيوت التي يبلغ اتساع الواحدة منها حوالي عشرة أمتار.

لقد تم حتى الآن التنقيب عن جزء بسيط من موقع المدينة، وسبب ذلك هو قرب الصخور من السطح. شاع في بناء هذه المدينة استعمال الحجارة القائمة الحرة في الجدران، وكانت بيوتها تحوي غرفة واحدة في الطرف الخلفي من البناء الأساسي، بينما ينقسم الباقي إلى ثلاث غرف أو أجنحة.

أما الموقع الاخر الذي يرتبط بالتحصينات الدفاعية التي أقامتها مملكة الجنوب ضد مملكة الشمال هو تل الفول الذي يعرف أيضاً باسم جبيعة (Gibeah or Geba).

أما الحصن الأساسي الذي كان قائماً فوق تل وسط قرية تحيط به زمن شاول فقد تهدم زمن المملكة المتحدة، ولكن زمن الانفصال أعيد بناؤه على شكل حصن من حصون الحدود للدفاع عن مدينة القدس في نهاية القرن العاشر ق.م. كان مخططه

مربع الشكل يحيط به سور عظيم بني حول قاعدته جدار غير سميك لدعمه، ثم ملئت المسافة بين الجدارين بالتراب، وبلطت واجهة الجدار الاستنادي الخارجية بالحجارة المصقولة، وقد بلغ العرض الكلي لقاعدة السور الدفاعي هذا حوالي (٩) أمتار. أما التجهيزات الدفاعية داخل الحصن الذي كانت مساحته حوالي (١٣) متراً (فمعرفتنا عنها قليلة). لقد قام البناء الداخلي فوق عدد من الأعمدة الضخمة.

إذا أثبت أن تل الفول هو جبيعة وأن تل النصبة هو مزبه سيكون الموقعان عندها قد حصنا في وقت واحد، لأنه ورد في سفر الملوك الجزء الأول:

إن آسا ملك يهوذا استطاع أن يقنع ملك دمشق على مهاجمة بعشة ملك إسرائيل من الشمال، وبذا أجبر الأخير على إيقاف حروبه ضد مملكة الجنوب. وهنا استطاع آسا أن يدمر حصن الرامة الذي بناه بعشة، واستعمل مواده في تحصين حصني جبيعة ونزبه، والطريقة الواحدة المتشابهة التي استعملت في تحصين المكانين تدعم ارتباطهما بهدم حصن رامة، وقد أحيطت أسوار المدينتين بجدار استنادي ذي سطح خارجي مبلط بالحجارة الملساء. وتؤكد الدلائل أن الحجارة التي استعملت في هذين المكانين كانت قد استعملت سابقاً.

إن حصن تل الفول لم يكن قسماً من مدينة أو قرية كما كان غيره من الحصون، بل كان في الحقيقة نموذجاً لقلعة أو حصن يشبه تماماً صور ورسوم القلاع التي تظهر على النصب التذكارية المصرية التي سجلت عليها وقائع حروب ملوك مصر في فلسطين.

تكوّن هذه الحصون جزءاً خاصاً من وسائل الدفاع التي استعملتها مملكة يهوذا في حروبها في هذه الفترة. وقد أمكن العثور على عدد منها مشابه ومعاصر لحصن تل الفول تقع جميعها في النقب على الحدود الجنوبية للمملكة.

أما معلوماتنا عن أكبر مدينتين في المملكة بعد القدس فهي من سوء الحظ قليلة، لأن الحفريات كانت قد تمت في جازر في وقت مبكر جداً كان علم الآثار فيه لا يزال عاجزاً عن إماطة اللثام عما تشير إليه آثار الحقب التاريخية المتعاقبة. وتشير الدلائل إلى أن المكان لم يكن مزدهراً وعامراً بالسكان في الفترة الواقعة بين ٩٠٠-٥٠٠ ق.م. أما الحفريات في تل دوير (يجب أن ينطبق هذ المكان على موقع لاحق لعدم وجود أي مكان هام آخر غيره في المنطقة).

فقد توقفت في الوقت الذي وصل الحفر فيه إلى بداية مستوى هذه الفترة ومدينة لاخيش. هذه هي إحدى المدن الهامة التي ورد ذكرها في التوراة والتي حصنها رحبعام عند انقسام مملكة أبيه. وعند ظهور مصر كقوة عسكرية مخيفة بقيادة شيشق الأول، حيث أصبح تحصين بعض المدن ضرورة ملحة. ومن المحتمل جداً أن تنسب إلى رحبعام تحصيناتها التي تحيط بها والتي بقيت مستعملة حتى نهاية العصر الإسرائيلي.

إن طريقة بناء أسوار لاخيش تدعو للدهشة: إذ بنيت أسسها بالحجارة فوق منحدر صخري أملس أصبح بالحقيقة مثالاً آخر للواجهات الدعامية الملساء. ويقوم فوق المنحدر الأملس جدار عمودي بني بالحجارة ثم يعلوه جدار من اللبن الترابي. ويدل هذا على الطريقة التي كانت تستعمل فيها الحجارة واللبن الترابي معاً حتى في الأماكن التي تتوفر فيها الحجارة. ثم بنيت داخل الأسوار قمة عظيمة أمامها ساحة واسعة مكشوفة. ويبدو من طبيعة المكان أنه كان يضم ما يشبه الحي الحكومي. ولكن للآن لم يتم الكشف عن قسم كاف من قمة التل يؤكد مدى علاقته بغيره من أجزاء المدينة، والدليل على وجود حي حكومي كبير هو انتشار السكان خارج أسوار المدينة، وقد عثر بالعمل على آثار بيوت تقع على المنحدرات خارج الأسوار ترجع في تاريخها إلى هذه الفترة.

تشير الحفريات إلى أن حياة المدن كانت زاهرة زمن المملكة الثنائية. فهي مزدحمة بالسكان الذين كان قسم كبير منهم متخصص بشتى أنواع الحرف. فقد كان سكان بيت مرسيم متخصصين بصناعة النسيج وسكان بيت شمس بصناعة الزيت والنبيذ.

ويبدو واضحاً أنه كان هنالك نوعان من المدن. الأول يديره ويسيطر عليه حي حكومي كبير مطلق السلطة مركزه وسط المدينة، والثاني يتألف من أبنية خاصة تتشابه كثيراً في تخطيطها وهندستها.

كانت المدن جميعها مسورة، ويبدو أنه كان فيها نوعان من الأسوار والتحصينات هما الأسوار ذات التحصينات المسقوفة، والأسوار ذات الجدران المائلة الملساء المقامة عند قواعد الأسوار.

لقد أتاحت لنا المدينتان العظيمتان السامرة ومجدو إلقاء الضوء الكافي على حياة البذخ والرفاهية التي كانت تسود البلاط الملكي والأوساط الرسمية، وتدل الآثار في المدن الأخرى على وجود ازدهار شامل مع قليل من حياة الرخاء والرفاهية. وقد تم العثور على أشياء قليلة جداً تدل على وجود درجة عالية من الحذق والمهارة أو الذوق الفني. فأدوات الزينة التي تم العثور عليها تحوي الدبابيس والخواتم والأقراط والخرز وغيرها من الحلي، ولكنها كانت جميعها في غاية البساطة وكان معظمها من البرونز والقليل منها من الفضة. أما وجود الذهب في هذه الفترة فقليل جداً.

كان الحديد هو العنصر السائد في جميع الأدوات والأسلحة، وقد حلت المناجل الحديدية على سبيل المثال محل المناجل الحجرية حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. وأصبحت رؤوس السهام الحديدية شائعة الاستعمال في مثل هذا التاريخ. وقد تم العثور على أدلة كافية تدل على شيوع استعمال جميع النماذج والأدوات الحديدية والخشبية والزراعية كسكة الحراثة مثلاً، مما يدل على أن معدن الحديد كان في متناول كل

شخص. أما الفخار فقد كان متوافراً ومن صنع جيد إلا أن القليل منه كان من نوع ممتاز.

لقد تم العثور على بعض أدوات الزينة المدهشة التي تعطينا فكرة عن زينة إيزبلا ووصيفاتها. وأهمها لوحة حجرية صغيرة ربما كانت تستعمل لمزج مواد ومساحيق الزينة. وقد وجد مثل هذه اللوحة في عدة أماكن، مما يدل على أن استعمالها لم يكن مقصوراً على البلاط الملكي. أما الأشياء الدينية الخاصة بهذه الفترة فقليلة، مما يدل على أن الديانة الإسرائيلية لم تكن تواجه منافسة شديدة كما كانت الحال في السابق.

ولكن شذ عن ذلك وفرة التماثيل التي وجدت في كثير من مدن المملكة الجنوبية وليس في مملكة الشمال. وقد كانت من النوع المنحوت بشكل دائري لا على شكل لوحات، وقد ظهر هذا النوع من التماثيل لأول مرة في العصر الحديدي القديم الثاني.

استمر عمران السامرة نما في ذلك الحي الملكي طوال الفترة الإسرائيلية، ولكننا نلاحظ انحطاطاً ملحوظاً أخذ يتطرق إلى مستوى البناء ففي داخل الحي الملكي فقد أزيلت الأسوار القديمة الجميلة وحلت محلها أبنية جديدة، وبالرغم من أهميتها إلا أنها كانت تخلو من كل فن وذوق. أما الأبنية التي بنيت فيما بعد فقد كانت غير منتظمة الهندسة والتصميم. وقد بنيت هذه الأبنية مقابل الأسوار الدفاعية ذات الحصون المسقوفة فأفقدت التخطيط الأساسي رونقه وابداعه. وترجع هذه الأبنية الوضيعة في تاريخها إلى العصر التاسع ق.م. وربما إلى الوقت الذي استطاع فيه ياهو آحاز أن يطرد سلالة عمري عن العرش سنة ٨٤١ ق.م. وفي سنة ٨٠٠ ق.م. أعيد ترميم بعض أجزاء الأسوار ذات التحصينات المسقوفة، وربما كان الدافع على ذلك هو نزول كارثة أحاقت بالمملكة، وقد تم الترميم بحجارة محطمة بنيت بأسلوب سيء أفقد الأسوار السابقة زهوها ورونقها. ويبدو واضحاً أن الإسرائيليين قد عادوا

في هذه الآونة إلى سابق أساليبهم الفجة في البناء. ويرجح أن يكون ذلك في الوقت الذي أصبح فيه الفينيقيون الذين جلبهم عمري وأحاب غير مسؤولين عن الأعمال العمرانية في المملكة.

لقد تم العثور في ساحة أحد الأبنية الجديدة على عدد كبير من الوثائق الخزفية التي تشير إلى استلام ضرائب عينية. وربما كان هذا البناء الذي ضم مثل هذه الوثائق مخزناً حكومياً.

ويدل طراز بنائه ونوع القطع الخزفية على تاريخ يرجع لعام ٨٠٠ ق.م. وتدل هذه الوصولات على فترة زمنية تبدأ بالسنة التاسعة وتنتهي بالسنة السابعة عشرة من حكم أحد الملوك. وأفضل الظروف السياسية التي تناسب هذه الفترة هي حكم الملك ياهو آحاز الذي حكم مدة سبعة عشر عاماً: أي من سنة ٨١٣ ق.م. حتى سنة ٧٩٦ ق.م.

كان ياهو آحاز منهمكاً طوال الثمانية أعوام الأولى من حكمه في حروب ضد حزقيال ملك يهوذا، وضد ابن هدد ملك دمشق اللذين ضيقا الخناق على مملكة إسرائيل في هذا التاريخ. وبانتهاء التهديد الآرامي نتيجة للغزو الآشوري لسوريا بقيادة ادادنيراري الثالث Adadnirari استطاع ياهو آحاز أن يستعيد السيطرة ثانية على مملكته ويستأنف جمع الضرائب. وهذا يعلل لنا بدء تسجيل الوصولات في السنة التاسعة. وتتفق معاً في تواريخها الأدلة الأثرية والتاريخية. وأهمية هذه الإيصالات أنها تعطينا فترة محددة التاريخ بالنسبة للأحرف والكتابة العبرية.

لم يدم أسلوب البناء الفينيقي طويلاً في مجدو تماماً، كما كانت حاله في السامرة، أما الحي الحكومي فقد بقي مستعملاً طوال قرن من الزمن تهدم بعدها وأزيل كل اثر له في التخطيط الجديد الذي تلا سنة ٧٥٠ ق.م. وحلت محله أبنية خاصة قسمت إلى أحياء منظمة تفصل بينها شوارع واسعة ومستقيمة.

أما الأبنية فكانت واسعة نسبياً وهي تختلف من هذه الناحية اختلافاً كلياً عن أبنية مدن الفترة السابقة. كما اختفت أيضاً حلقة الأبنية المحيطة بالأسوار، وعاد البناء إلى أسلوبه السابق· أي إلى بناء الجدران بالحجارة غير المدقوقة أو المنحوتة (الدبش) وبذا خلت الأبنية من الحجر الجميل المنحوت الذي كان يكسبها في الماضي جمالاً ورونقاً.

الفصل الثاني عشر

سقوط مملكتي إسرائيل وفترة ما بعد السبي البابلي

لقد تعرضنا قليلاً في الفصل السابق إلى الأحداث السياسية التي أثرت على مملكتي يهوذا وإسرائيل، وأشرنا إلى أن قصة التوارة مضافاً إليها ما نعرفه اليوم مما كتب عن تاريخ الشرق الأدنى تدل بوضوح على أن فترة سلام قصيرة حدثت طوال عهد هاتين المملكتين. وتؤيد الأدلة الأثرية الأدلة التاريخية صحة هذا القول، فمثلاً تدل الأدلة الأثرية على أن سبب تحصين الحي الملكي في السامرة يرجع لحصار ابن هدد الثاني ملك دمشق هذه المدينة عند اعتلاء آخاب عرش مملكة إسرائيل. كما يرجع تدمير الأسوار الجميلة التي كانت تقوم حول هذا الحي واستبدالها بأبنية رديئة ومنحطة لياهو الذي استباح المدينة وقضى على عائلة عمري، ولكن أعيد بناء المدينة في منتصف القرن الثامن ق.م. بعد الاصطرابات التي تلت موت يوربعام الثاني. وربما كان سبب تدمير الطبقة الرابعة في مجدو هو الهجوم الآشوري على مملكة إسرائيل سنة ٧٣٤ ق.م. عندما فقد الإسرائيليون معظم الجزء الشمالي من مملكتهم. كما يعزى بكل تأكيد تدمير الطبقة الخامسة في حازور إلى السبب ذاته، وقد دلت الحفريات على وجود أدلة دافعة في جميع الأماكن التي تم حفرها تقريباً تشير إلى هول الحوادث التي حدثت في هذه الفترة، ولكن كقاعدة عامة لا تستطيع الأدلة الأثرية تحديد تواريخ دقيقة كافية لأن تؤدي إلى انسجام تام بين الحوادث الأثرية والتاريخية. أما الصورة العامة في كليهما فمتشابهة وغالباً ما يكون الانسجام التام بينهما غير عادي.

إننا نعرف اليوم أن وراء كل حادثة سياسية هامة ورد ذكرها في التوراة تغيراً في تاريخ الإمبراطورية الآشورية، إذ بعد أن ظل تاريخ الآشوريين طوال ثلاثة قرون ناصع البياض دون أن تشوبه أية شائبة سياسيه، إذ بالامة الآشورية تصبح ثانية قوة هائلة بقيادة آشور بانيبال (٨٨٤-٨٥٩ ق.م.) تسعى وراء سياسة التوسع والحرب طوال قرنين ونصف إلى الأمام. وقد تخلل هذه الفترة عدة كوارث قامت بها الشعوب المغلوبة على أمرها والتي كانت تحدث غالباً عند تنصيب ملك جديد.

تفصل لملكة الآرامية في دمشق الممالك الإسرائيلية عن مملكة آشور. فعندما تضعف آشور تصبح دمشق شوكة في جسم إسرائيل. وعندما تهدد آشور دمشق يخف الضغط عن الإسرائيليين ويصبح في مقدورهم استرداد ما فقدوه. وعندما تصبح إسرائيل تحت رحمة دمشق تتنفس مملكة يهوذا الصعداء وتتحرر من سيطرة إسرائيل. وعندما تضغط إسرائيل على مملكة يهوذا يثور الآدوميون ضد يهوذا. وعندما تضعف إسرائيل تثور ضدها الممالك الواقعة شرقي نهر الأردن وتهاجم حدودها، وهكذا دواليك كانت تسير سلسلة الأحداث لترفع هذا البلد اليوم وتخفضه غداً.

ولكن في غمرة جميع هذه الأحداث كان الآشوريون يتقدمون حثيثاً إلى الأمام نحو البحر المتوسط والجنوب. ففي سنة ٧٣٤ ق.م. تقدم تغلاث فلاسر رأساً نحو فلسطين، ولكن مملكة يهوذا لم تقدر خطر القوة الآشورية حق قدرها فطلب آحاز ملك يهوذا من ملك آشور مساعدته ضد إسرائيل، وقام لتوه بمهاجمة مملكة إسرائيل والمدن الفلسطينية، ولكن بعد فترة من الاستسلام انتهز الاثنان: إسرائيل والفلسطينيون، فرصة ضعف مملكة يهوذا وهاجماها، ولكن آشور عادت وضمت بلاد الفلسطينيين إليها وتركت لحوزيا ملك إسرائيل النصف الجنوبي فقط من مملكته بعد أن ضمت إليها الجليل والأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن. وسبت إلى العراق قبائل روبين وجاد ومنسي. وقد كانت هذه هي السياسة التي تتبعها آشور في معاملة الشعوب

المغلوبة على أمرها. فتنقل جميع السكان من أماكنهم إلى المنفى لتحل محلهم سكاناً ممن نفوا من أجزاء أخرى من الإمبراطورية. ولا تزال هذه السياسة تتبع عند بعض الدول حتى اليوم.

كانت هذه الحادثة هي بداية نهاية مملكة الشمال. أما في مراحلها الأخيرة فقد ظهر عامل جديد على مسرح الأحداث ألا وهو استعادة مصر قوتها ثانية بعد أن تركت شؤون سوريا السياسية منذ زمن شيشق الأول، أي قبل قرنين من الزمن. وهنا تطلعت الممالك السورية المتبقية إلى مساعدة تأتيها من مصر على أمل الخلاص من دفع جزية لآشور. ولكن النتيجة كانت سرعة اقتراب النهاية. فتوجه شلما نصر الخامس سنة ٧٢٤ ق.م. بجيشه العظيم نحو السامرة وحاصرها. وقاومته المدينة بعناد مدة سنتين، ولكنها استسلمت في النهاية لخلفه سرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق.م.

بعدها تقدم سرجون رأساً نحو الحدود المصرية وتغلب على المصريين والفلسطينيين وغيرهم من الحلفاء السوريين. وفي طريق عودته سنة ٧٢٠ ق.م. حمل معه إلى السبي ما تبقى من القبائل الإسرائيلية وأسكن مكانهم في السامرة سكاناً جلبهم من بابل وغيرها من المدن الأجنبية.

كانت مملكة يهوذا وبلاد فينيقية هي الممالك السورية الوحيدة التي نجت من هذا الهجوم العظي، ولكن نوائب الدهر كانت لها بالمرصاد. ففي سنة ٧٠٥ ق.م. قاد سنحاريب مرة ثانية جيوش آشور واجتاح الجزء الأعظم من مملكة يهوذا واستولى على لاخيش ونهبها مع غيرها من المدن الصغيرة. وبعدها توجه لحصار القدس، ولكن المدينة قاومته بشدة واستطاع ملكها حزقيا أن يشتري فك الحصار عنها بفدية كبيرة دفعها لسنحاريب وبذا نجت مملكة يهوذا لمدة قرن آخر من الزمن عاشت خلاله كتابع نصف مستقل. ويدلنا على زيف استقلالها ما ورد في السجلات الآشورية من أنه كان لآشور حاميه من المرتزقة الفلسطينيين في لاخيش، وقد عثر علماء الآثار

في عدد من الأماكن على عدد من الأدلة الأثرية التي تؤيد هذه الحوادث، ولكن هذه الأدلة كانت غير واضحة المعالم، لذا صعب التوفيق بينها وبين الأدلة التاريخية.

لقد هدم الحي الملكي في السامرة بأسره، ووجد المنقبون في جميع الأماكن التي بقيت فيها الطبقات التي تحوي أبنية إسرائيلية حديثة على حالها طبقات سميكة من المواد المحترقة. ووجدوا بين تلك المواد المحترقة بقايا عديدة من العاج الذي كان يزين في وقت ما قصر عمري وآخاب، وقد عثروا على بقية تلك المجموعة العاجية وسط أنقاض مشابهة نقلت من أماكنها بسبب عمليات البناء المتعاقبة. وقد لوحت النيران لون معظم القطع العاجية فحولتها سوداء فاحمة. أما القطع التي بقيت محتفظة بلونها فقد عثر عليها وسط رواسب لزجة بيضاء اللون هي في الحقيقة طين اللبن الترابي الذي بنيت به طبقات البيوت العليا. ويدفعنا هذا إلى الظن بأن مجموعة العاج الشبيهة بهذه المجموعة والتي وجدت في قصر سرجون في بلدة النمرود في العراق هي مما سلب سابقاً من هذا القصر عند سقوط السامرة بيد الآشوريين.

لم يبق نتيجة الاحتلال الآشوري للسامرة أي جدار من أبنية هذه الفترة فوق مستوى سطح الأرض. وليس واضحاً لدينا كم من هذه الجدران قد هدم عند الاحتلال وكم هدم منها في الفترات التالية عندما حفر البناؤون أسس الأبنية بحثاً عن حجارة البناء. ومن المؤكد أنه لم يبق من الأبنية الداخلية أي شيء، لأن أماكنها طمست كلية بسبب الأبنية اللاحقة، ولكن ربما بقي جزء من السور الدفاعي الذي بني حول قمة التل لأن بناة السور الهليني فيما بعد اقتفوا خط سيره وبنوا فوقه أسساً، أو ربما رمموا هذا الجزء نفسه واستعملوه كجزء من أسوارهم الجديدة.

أما الجدار الاستنادي فقد كان قائماً بكل تأكيد في القرن الثالث ق.م. ومما زاد في متانته الأبراج الهلينية القوية التي بنيت بجوره. ويبدو من المعقول جداً أن نفترض إعادة بناء وترميم الأسوار الدفاعية السابقة، لأن السامرة أصبحت مركز

إدارة المنطقة زمن الآشوريين بينما المباني الداخلية قد درست معالمها تماماً. أما من بقي من السكان بالإضافة إلى غيرهم من الغرباء فقد عاشوا على هواهم وسط أنقاض المدينة. وأقل ما احتاجوا إليه هو ترميم الأبنية الملكية العظيمة الواقعة على القمة ومن ثم السكن فيها. ويستدل من هول الخراب الذي نزل بالمدينة أن الهدم والتدمير تمركز في الحي الملكي بصفة خاصة، أما الأحياء الشعبية فلربما عانت أقل من غيرها بكثير، وبقي سكانها يعيشون فيها مع انخفاض في عددهم بعد السبي.

أما الحضارة فقد استمرت بشكل ملحوظ يثير الدهشة والاستغراب. وقد لاحظ العلماء تطوراً مستمراً في صناعة الفخار وغيرها من المواد الأثرية استمر في الفترة الأولى حتى الرابعة، دون أن يحدث هنالك أي تغير فجائي أو تأثير خارجي. أما في الطبقة التي تلت الدمار مباشرة فلم يعثر المنقبون إلا على القليل من الفخار الإسرائيلي الذي سبق تلك الفترة. وقد وجدوا إلى جانبه فخاراً جديداً لم تعهده المنطقة من قبل مثل الأواني ذات الأطر والحواف العالية البراقة التي صنعت من فخار رقيق جداً يختلف كل الاختلاف عن فخار المنطقة. والذي يلفت النظر بالنسبة للفخار الجديد أن المنقبين لم يعثروا على أي تطور له في فلسطين فيما بعد، لذا فمن الواضح أن هذا النوع قد جلبه المستوطنون الجدد معهم إلى فلسطين ثم اختفى كلية بعد فترة وجيزة من الزمن، حيث أخذ القادمون يستعملون الفخار المحلي.

أما في تل الفارعة فقد اقتفى المنقبون أثر ما حل بالسامرة بالذات. حيث دمرت النيران المباني التي أنشئت حوالي سنة ٨٠٠ ق.م. ثم سكن المكان سكان فقراء جداً جلبوا معهم فخاراً جديداً شبيهاً بالذي وجد في السامرة.

أما مجدو فقد أضاعتها إسرائيل سنة ٧٣٤ ق.م. أي قبل سقوط السامرة، وذلك لارتباطها بالأجزاء الشمالية من المملكة. ويبدو كما أشرنا سابقاً أن أبنية الطبقة الرابعة قد دمرت في هذه الفترة. أما فخار الطبقة الثالثة فلم ينعدم وجوده فجأة

كما حدث في السامرة، ولكن ظهرت إلى جانبه بعض الأنواع الجديده التي ليس لها أي أصل محلي. ويبدو جلياً من ذلك أن المدينة الجديدة التي قامت في الطبقة الثالثة ترجع للاشوريين أو لمن سكنوها منهم أو بسببهم. كانت هندسة المدينة هذه بمبانيها العظيمة والمنتظمة ليست فلسطينية. ومن سوء الحظ ليست لدينا معرفة كافية عن المدن الاشورية في هذه الفترة (تم الحفر فقط في منطقة القصور) لذا لا نستطيع القول إن كانت هذه الهندسة ترجع إلى تأثير آشوري مباشر. ولكن هنالك بكل تأكيد تأثير أجنبي من مصدر ما.

بالرغم من أن المملكة الشمالية وحدها هي التي سقطت بيد آشور إلا أن مدن المملكة الجنوبية قاست الأمرّين في الحروب الأشورية التي تلت. وربما التهمت النيران مدينة بيت شمس في هذه الفترة كما التهمت أيضاً حصن حبعة في نفس الفترة، وربما نزل نفس المصير بتل جبمة الواقعة قرب غزة. ومن الجدير بالذكر أن فخاراً أجنبياً ظهر أيضاً في هذه الأماكن كلها. فقد عثر المنقبون على بعض الأواني الشبيهة جداً بأواني السامرة التي سبق وصفها، ولكن أغرب ما تم العثور عليه هو الرواسب العظيمة التي تجمعت في إحدى الحفر والتي أطلق عليها السر فلندرز بيتري مستوى الحكم الآشوري.

كانت بعض الأواني التي تم العثور عليها أشورية دون أي شك يرجع تاريخها، للقرن الثامن ق.م. وكان بينها بعض الكؤوس الصغيرة الرقيقة ذات الأطر والحواف العالية البراقة، والقواعد الدقيقة والجدران المتقعرة. أما الباقي فيمكن أن نطلق عليه بكل تأكيد مستودع أوعية القصر، لأنه لم يكن في الحقيقة آشورياً بل تقليداً لنماذج وجدت في آشور في نهاية القرن الثامن ق.م.

وتتكون هذه البقية من عدد كبير من الأطباق التي تحمل صوراً غريبة قرب قواعدها والتي لها حواف أسفل الأطر القصيرة المقلوبة، وكان بعضها أقل سمكاً من

البعض الآخر ومن فخار مختلف. ويظن أن أحد القادة الأشوريين قد استورد بعض هذه الأواني، أما الباقي فقد صنع محلياً حسب إرشاداته تقليداً لما كان يستعمل في وطنه.

إننا نعرف وقوع لاخيش تحت السيطرة الآشورية من مصادر التوراة ومن السجلات الآشورية. وقد عثر العلماء في نينوى على زخارف ونقوش آشورية تصور حصار جيوشهم لهذه المدينة بدقة، ولكن أصدق دليل على هدم الجيوش الآشورية لهذه المدينة هي الأنقاض المتراكمة على الطريق السفلي التي عثر وسطها على خوذة من البرونز تشبه خوذ الجنود الآشوريين الدين ظهرت صورهم في زخارف ونقوش نينوى وهم يهاجمون لاخيش. كما تم العثور أيضاً على بقايا بعض الأسلحة والحراب الآشورية، أما مستوى المدينة الذي حاق به الدمار في هذه الفترة فلم تبلغه الحفريات بعد.

أما القدس فلم تسقط بأيدي الآشوريين في هذه الفترة، ولكنها وقعت تحت وطأة ضائقة عصيبة، فقام ملكها حزقيال وحصنها في وجه التهديدات الآشورية. فقام بثاني عمل هندسي جليل في المدينة، وذلك بأن ربطها مباشرة بمصادر المياه. وقد سبق وأشرنا إلى أعمال هندسية رائعة من هذا القبيل تم إنشاؤها في مجدو.

إن النفق السري القديم الذي يوصل المدينة بنبع الماء المعروف بعين العذراء الذي أشرنا إليه في الفصل العاشر كان قد هجر منذ مدة طويلة، وأصبحت تلك العين تستعمل في ري الحدائق والبساتين الواقعة على سفوح جبل أوفيل. أما النفق القديم فلم يستعمل ثانية لأن طبوغرافية المدينة وجغرافيتها قد تغيرت، فقام حزقيال وحفر نفقاً جديداً في باطن الجبل امتد من الجهة الشمالية الشرقية حتى الجهة الجنوبية الغربية: أي داخل المنحدرات التي كانت آنذاك داخل أسوار المدينة. وبذا تم جر مياه العين إلى بركة سلوان التي ورد ذكرها في الإنجيل، ولا يزال الماء يجري إليها

حتى اليوم. وقد وردت إشارات وتلميحات عديدة في سفر الملوك وتواريخهم (الجزء الثاني) تشير جميعها إلى الأعمال الباهرة التي قام بها حزقيال عندما حصر مياه عين جيحون العليا وجرها رأساً إلى الجهة الغربية من مدينة داود. أما نفق سلوان فقد كان معروفاً منذ القدم. وفي سنة ١٨٨٠ اكتشفت كتابة على جدرانه تصف الفرح والسرور اللذين استحوذا على فئتي العمال اللتين شقتا النفس عند التقائهما الأخير وسط الجبل، بعد أن ظلت كل منهما تعمل طويلاً في جهة واحدة منه.

لقد تم تنظيف النفق في عمليات الحفر التي تمت في الأعوام ١٩٠٩-١٩١١. وتتفق الأدلة الأثرية بالرغم من عدم تأكدها تماماً مع الأحاديث المتواترة التي تنسب هذا العمل الجبار إلى حزقيا. ويدل الفحص الدقيق الذي قام به الأب فنسنت في ذلك الوقت على الكيفية التي تم فيها حفر هذا النفق الذي سلك طريقاً متعرجاً في باطن الجبل. ولكنه لم يستطيع إيجاد تعليل يبرر هذا السلوك. ويظن بعض علماء الآثار أن سلوك هذا الطريق المتعرج هو لتجنب المقابر الملكية القديمة.

إن نقطة اتصال طرفي النفق بمنعطفاتهم الجنوبية هنا وهناك تدل دلالة عظيمة على النجاح الباهر الذي تم وصفه في الكتابة التي وجدت على جدران النفق. لقد اهتم القائمون على تنفيذ العمل بمستوى أرض النفق أكثر مما اهتموا بخط سيره، بالرغم من أنه احتاج فيما بعد إلى بعض التعديلات. وقد أوضح الأب فنسنت أن هذا يفسر لنا سبب اختلاف النفق عند طرفه الجنوبي من خمسة أمتار إلى ١٦٠ سم. وقد دل الفحص الدقيق على أن ارتفاع النفس كان في مراحل الحفر الأولى يتراوح بين ١٦٠سم - ٢٠٠سم، وأن انحدار أرضه لم يكن منتظماً تماماً، وقد تم تعديل ذلك في الأماكن الضرورية فيما بعد. وبذا ازداد ارتفاع النفق في بعض الأماكن وأصبح الماء ينساب بسهولة من النبع إلى البركة بانحدار يبلغ ٢١٨ سم ولمسافة تبلغ ٥١٢,٥ متراً. وبالرغم من أن العمل بقي بحاجة إلى بعض التعديلات إلا أن المشروع

يدل على عمل هندسي مذهل لا سيما وأنه حفر بأدوات بدائية، وأن علم الهندسة كان لا يزال في المهد يحبو. ولا يوجد هنالك أدنى شك في أن تأمين تزويد المدينة بالماء عن طريق هذا النفق هو الذي مكنها من الصمود في وجه الحصار الآشوري.

لم تسقط دولة يهوذا نهائياً إلا بعد قرن من سقوط إسرائيل، ولكن لا يوجد هنالك شك بأن استقلالها خلال هذه الفترة كان صورياً، وأنها كانت تابعة في الحقيقة إلى آشور.

وفي سنة ٦١٢ ق.م. استسلم الآشوريون للبابليين الذين ورثوا بدورهم الأملاك والسياسة الآشورية في العراق. إن هذا التغيير لم يغير من حقيقة الواقع شيئاً في فلسطين حيث قام نبوخذ نصر في مطلع القرن السادس بآخر خطوة في ضم مملكة يهوذا إلى بابل. وقد تم ذلك في حربين الأولى سنة ٥٩٨ والثانية في الأعوام ٥٨٩-٥٨٧ ق.م.

إن علم الآثار لم يزودنا بالشيء الكثير عن آخر قرن في حياة مملكة يهوذا، لأن المدن التي هدمت قد أعيد بناؤها في أغلب الأحيان على نفس هندسة المدن السابقة تقريباً، ففي بيت شمس مثلاً بنيت مدينة الطبقة IIC على أنقاض الطبقة IIB وعلى نفس الهندسة السابقة.

ربما يعود المستوى الثالث في لاخيش إلى هذه الفترة. وتدل الحفريات على أن مدينة هذه الفترة كانت واسعة جداً تمتد تقريباً فوق قمة التل جميعها، ومحاطة بأسوار ضخمة. أما علاقة مراحل بناء هذه الأسوار ببيوت المستوى الثالث فلم تتأكد بعد، ومثلها البوابة الرئيسية لهذه الفترة التي بقيت تحت الأنقاض عند توقف الحفر. ويبدو أن هذه البوابة تشبه في هندستها البوابة التي تعلوها. وهي تتصل بطريق منحرف يؤدي إلى رصيف في أعلى المنحدرات. ومن ثم يتجه الطريق إلى اليمين عبر بوابة تتكون من سلسلة من الأعمدة التي بنيت بالطوب المجفف فوق أسس من الحجر،

أما في داخل المدينة فقد تم الكشف عن صفوف من الحوانيت التي بنيت على جانب الطريق التي تربط البوابة بمركز المدينة. وتدل الحفريات على أن هذا الحي كان من الأحياء الفقيرة لأن بيوته متقاربة ومزدحمة ورديئة البناء. كانت أسس جدرانها قد بنيت من الحجر أما قسمها العلوي فقد بني معظمه بالطوب أو الطين وغطيت أوجهه بالطين المخلوط بالتبن، ثم تلا ذلك طبقة من القصارة بالجير (الكلس أو الشيد). أما مصاطب المنازل فكانت مفروشة بالحصى. وقد عثر المنقبون وسط الأنقاض المحترقة على بقايا سقوف من الخشب والأشجار الشوكية والطين.

عثر المنقبون على مجموعة من البيوت المتشابهة حول أحد المباني الجليلة القدر والمؤثرة في النفوس. ويدل على أهمية هذا البيت قواعد الأعمدة العظيمة والتي صنعت فوق منصة أبعادها ٧٨ × ٢٥ متراً. وقد حوت هذه المنصة عدة مراحل عمرانية تمت في العصر الحديدي، وربما كان آخرها يرجع لهذه الفترة. أما الهندسة الداخلية لهذا البناء فلم يبق منها أي أثر. ويظن أن هذا البيت ربما كان قصراً أو قلعة. لذا فالأدلة الأثرية التي تم العثور عليها نتيجة هذه الحفريات لم تكن ذات أهمية، لأن البيوت قد خلت من أي شيء يدل على حياة الترف والنعيم.

هنالك مدن أخرى نجت من تدمير آشور واستمرت الحياة فيها على نفس المنوال، ففي تل بيت مرسيم لم تحدث أحداث هامة يمكن تتبعها طوال الفترة الواقعة في السنوات ٩٣٠ – ٥٨٨ ق.م. وكذلك في تل النصبة حيث استمرت الحياة دون أن يعكر صفوها أي شيء، ومثلها أيضاً عاشت معظم المدن الصغيرة الأخرى حيث بقيت الحضارة نفسها مع نقص في الذوق الفني عما كان عليه في السابق.

نستطيع بسهولة أن نميز بين فخار القرنين السابع والثامن ق.م. بالرغم من أن فخار القرن السابع هو تطور لفخار القرن الثامن، ولا يوجد خط فاصل بينهما، وقد سار هذا التطور نحو الإسراع والإنتاج بالجملة، ففخار هذه الفترة كان رديئاً قبيح

المنظر حقاً، ولكنه من الناحية الفنية كان جيد الصنع. ويعكس هذا النوع من الفخار أدنى مستوى حضاري وصلته الحياة السياسية في المملكة.

يدعم علم الآثار قصة التوراة دعماً قوياً عن كل ما ورد فيها من نتائج ووصف محزن للحروب البابلية التي أنهت حياة هذه الفترة. فهنالك العديد من المدن التي هدمت ولم يستأنف إعمارها ثانية إلى الأبد. وأهم الأمثلة على ذلك بيت مرسيم وتل بيت شمس. ولقد حدثت فجوات سكنية في عدة مواقع في السابق. ولكن سرعان ما عادت الحياة إليها، ولكن بعض مدن هذه الفترة هدمت إلى الأبد، وهذا يدل على مبلغ قسوة نتائج السياسة البابلية الخرقاء التي أحاقت بالبلاد. لقد سبى البابليون نسبة فقط من سكان يهوذا ربما تبلغ الربع، ولكن كان بين الأسرى جميع القادة والمصلحين. وبسبب ذلك انهارت التجارة وهوت النظم جميعها إلى الحضيض ولم يعد اقتصاد البلاد بقادر على إعالة مدن كثيفة السكان كتلك التي قامت زمن الممالك اليهودية.

لقد نهبت القدس نهباً تاماً ودمر هيكلها تدميراً كلياً. وقد كشفت حفريات ١٩٦١–١٩٦٧ آثار بيوت القرن السابع الواقعة على المنحدرات الشرقية والتي دمرت في هذه الفترة.

أما نتائج الحفريات التي تمت في لاخيش فقد كشفت عن آثار الحربين البابليتين في الأعوام ٥٩٦ و٥٨٨ ق.م. وأظهرت هذه الحفريات أن حرب سنة ٥٩٦ قد دمرت مدينة المستوى الثالث تدميراً كلياً. وربما حدثت هنالك محاولة أخيرة لتحصين المدينة للوقوف في وجه أي عدوان قد يحدث، فحفر حماة المدينة ممراً مستقيماً وعظيماً داخل الصخر يتراوح عمقه بين ٨٠ و ٧٠ قدماً، ولكن قدر لهذا العمل الجبار أن لا ينتهي فبقيت أرضه دون تسوية كما بقي طرفه الجنوبي أوطأ بكثير من طرفه الشمالي، ولكن المنقبين لم يعثروا على أي دليل قاطع يوضح الهدف من شق هذا الممر.

ولكن ربما كانت له علاقة بمصادر المياه إما كممر يوصل إليها أو كخزان لجمعها وحفظها. ولكن الهجوم البابلي كان أسرع من سير العمل فباغت العاملين فيه وقضى عليهم قبل إنجازه والإفادة منه. وقد عثر المنقبون بين المواد التي أخذت تتراكم فوق أرض الممر على فخار يرجع للقرن السادس، وقد دخلت هذه الرواسب داخل الممر لأن أبواب طرفيه بقيت مفتوحة تسمح للرواسب والأنقاض أن تدخل داخله وتتراكم هناك تدريجياً مع الزمن. كما عثروا عند البوابة الرئيسية للمدينة على ثمانية أقدام من الأنقاض المحترقة التي تفصل بين مصاطب بيوت هذه الفترة ومصاطب بيوت الفترة التي تلتها. أما قلعة القصر فقد دمرت تماماً وتراكمت فوق أسسها الحجرية طبقة من الطوب المتفحم، كما عثر قرب القصر على صف من الحوانيت. وحتى الآن لم يتم الكشف إلا عن جزء بسيط من داخل المدينة. وقد وجدت الغرف مملوءة بالأدوات التي كانت تستعمل زمن الحرب والتي لم يكن لدى السكان متسع من الوقت لحملها معهم، بل تركوها طعاماً للنيران. وكان بين هذه الأشياء جرار ضخمة لخزن القمح وأنوال النسيج التي تدل على صناعة وتجارة المدن الفلسطينية في هذا الزمن. أما خارج المدينة فقد تم العثور على أغرب ترسبات في تاريخ الحفريات حيث عثر على ما يقرب من ألفي جثة ملقاة داخل قبر قديم من خلال فتحة في سقفه وقد تحجر جزء كبير من عظام هذه الجثث. لذا يجب أن تكون هذه الجثث قد نجت من الاحتراق مع البيوت التي احترقت. ويعتقد الأب ج.ل. ستاركي أن هذه البقايا تدل على تنظيف المدينة بعد المذبحة الرهيبة التي قام بها البابليون في وسطها. وقد ظهرت على بعض الجماجم آثار معركة حربية، ولكن أغرب ما وجد بينها هو ثلاث جماجم يبدو أنها فتحت وقحف ما بداخلها. وقد ظهر على اثنتين منها فتح مربع في عظم الجمجمة بواسطة منشار قطع خاص، ويبدو أن العملية الجراحية التي اجريت على هاتين الجمجمتين كانت تخلو من أية مهارة أو دراية طبية لذا مات صاحباها لتوهما. وهنا تدور في مخيلة المرء الأسئلة المحيرة التالية أيدل هذا على تجارب كان

يجريها المنتصرون على ضحاياهم الأسرى على غرار ما كان يفعل النازيون؟ أم هي محاولات يائسة قام بها الناجون لتخليص حياة أولئك الذين أصيبوا في المعركة؟ ربما كان التعليل الثاني أقرب للصواب، لأنه وجد على الجمجمة الثالثة فتحة أُجريت بطريق الكشط. ويبدو أن صاحبها قد عاش طويلاً بعد هذه العملية حتى التأم عظم رأسه، لذا لم تكن تلك العملية هي سبب الوفاة.

نستنتج من ذلك أن عملية فتح الرؤوس كانت معروفة لدى الأطباء الإسرائيليين يمارسونها على الذين يسقطون صرعى في ساحة الوغى.

لقد بنيت مدينة جديدة من عدة بيوت حقيرة فوق أنقاض المدينة المهدمة. وبقي الممر العظيم (الذي لم يتم) مفتوحاً، فأخذ يمتلئ تدريجياً بالمواد المتراكمة. أما التحصينات فقد أعيد بناؤها بشكل أنيق ومتين. ثم بنيت للمدينة بوابة جديدة فوق الأنقاض التي بلغ سمكها حوالي ٨ أقدام والتي كانت تطمر آثار الطبقة السابقة.

أما اسم لاخيش فقد ذكرها إرميا (إرميا ٣٤، ٧) عن آخر هجوم للبابليين على مملكة يهوذا. وقد ورد اسمها مقروناً من اسم القدس واسم عزيقا وذكر إرميا: إذ كان جيش ملك بابل يحارب أورشليم وكل مدن يهوذا الباقية لخيش وعزيقا لأن هاتين بقيتا في مدن يهوذا مدينتين حصينتين.

ولكن سرعان ما تهاوت هذه المدن المحصنة أمام القوة البابلية الفاتحة. وتدل الحفريات على أن لاخيش التالية قد خربتها النيران ثانية.

وقد عثر المنقبون في غرفة حراسة تقع بين بوابتي المدينة الخارجية والداخلية وسط طبقة الرماد التي خلفها هذا الحريق على مجموعة من شقف الفخار، كانت تستعمل لكتابة الرسائل بلغ عددها حوالي ١٨ قطعة. كانت سبع منها في غاية الوضوح، ويمكن قراءة ما كتب عليها وفهمه بينما لا يستطيع القارئ قراءة ما على القطع الباقية سوى

قراءة جمل وكلمات متقطعة. وقد اختلفت أقوال الخبراء في قراءة وتفسير ما جاء على القطع المقروءة وادا أخذنا بصحة قراءة وتفسير البروفسور تورزيينر Torczyner المسؤول عن إعداد ونشر ما جاء في هذه المجموعة الخزفية تبين لنا أنها ذات أهمية عظيمة، لملاقتها برواية التوراة التي تروي آخر أيام المملكة العبرانية.

كان جميع ما حوته هذه الوثائق عبارة عن مجموعة رسائل كتبها شخص يدعى هوشيا إلى سيدة يعوس. ومن المحتمل جداً أن تكون الرسائل غير المقروءة هي جزء من الرسائل المقروءة. يتضح من هذه الرسائل أن هو شيا كان القائد المناط به أمر الدفاع عن أحد الأماكن الحصينة وأن يعوس كان حاكم لاخيش، وقد وصلت المراسلة أوجها بين الاثنين في الرسالة الرابعة التي يقول فيها يوشيا ما يلي:

إننا نرقب محطات الإشارة في لاخيش في انتظار جميع الإشارات التي قد يرسلها سيدي لأننا لا نرى (إشارات) عزيقة المذكورة في سفر إرميا.

إرميا التي تنص على أن لاخيش وعزيقة كانتا مدينتين بين آخر المدن المتبقية في مملكة يهوذا. وتدل عبارة يوشيا على مأساة وشيكة الوقوع. ويفهم منها أن عزيقة قد سقطت بيد العدو، وأن يوشيا أصبح يعتمد على أوامر تصدر إليه من لاخيش الأكثر بعداً عنه من عزيقة.

إن هذه الوثائق لا تدل على أنها كانت اخر رسائل حررت قبل سقوط لاخيش بل هي مجرد رسائل محفوظة في أرشيف رسمي؛ إذ هي تشير في المقام الأول إلى حوادث حدثت في فترة محددة من الزمن، ويبدو من ناحية ثانية أنها مرسلة من شخص واحد، لأنها كتبت على قطع خزفية من نوع واحد. ووجه الغرابة فيها أن يكتب كاتب ثماني عشرة رسالة دون أن يرد كاتب آخر عليها ولو برسالة واحدة. بالإضافة إلى أنها تعالج موضوعاً خاصاً يلمسه القارئ في جميع الرسائل المقروءة.

حيث يحاول يوشيا تبرئة نفسه وتبرير موقفه ودفع ارتكاب الخيانة عن نفسه، ويبدو أن هذه الجريمة هي موضوع هذه الرسائل وسببها. وقد وضع البروفيسور تورزينر أدق وأصدق تفسير لها بناء على إحدى الفقرات التي وردت في الرسالة الثالثة والتي تشير إلى حوادث وردت في أقوال إرميا.

لقد شوش النبي إرميا كثيراً على مجهودات القادة العسكريين في القدس الذين أنيط بهم مسؤولية الدفاع عن المدينة ضد هجمات البابليين، فحث على الاستسلام للبابليين وهدد بغضب الإله يهوه الذي سيحيق بجميع أولئك الذين يقفون في وجه بابل، وقد انضم إليه نبي آخر يدعى أوريا الذي حذا حذوه وسار على خطاه، ولكن إرميا بالرغم من تهديدات الحكام له وتعرضه الشديد للمخاطر كان ينجو من الموت الذي يترصده دوماً كطابور خامس. أما أوريا فكان أقل من رفيقه حظاً، فقد هدد بإلقاء القبض عليه وبإعدامه فخاف وهرب إلى مصر، ولكن الملك يواكيم أرسل رجالاً خلفه إلى مصر على رأسهم ايلناثان بن أكبر.

استطاع هؤلاء إحضار أوريا إلى القدس وإعدامه. وتشير رسالة لاخيش الثالثة إلى نبي مجهول بالعبارة التالية:

ذهب قائد الجيش خواريا هو ين ايلناثان إلى مصر...................... رجاله وأرسل يطلب من هنا.................... وقد فسر البروفسور تورزيينر أن نتيجة الرسالة تتضمن أن النبي قد كتب رسالة إلى صديق له يحذره. كما يعتقد أن قصة إرميا وقصة يوشيا متعلقتان بحادثة واحدة ذكر في أحدهما اسم الأب قبل اسم ابنه القائد، ويعتقد البروفسور تورزيير أنه هنا يكمن أساس اتهام يوشيا، حيث قرأ رسالة سرية أؤتمن عليها ليوصلها إلى مكان ما، وأنه أفشى إلى الملك ورجاله أن أوريا قد هرب إلى مصر.

إن هذا التفسير يعلل أيضاً سبب وجود هذه المجموعة الخاصة من الوثائق في غرفة الحراسة، لأن من المألوف في بلاد الشرق أن تعقد المحكمة في مكان قرب باب المدينة. ومن المحتمل أن قضية رفعت ضد يوشيا على أنه أفشى سر هرب أوريا إلى مصر. وتشير رسالة أخرى إلى أنه كانت ضده أيضاً اتهامات عسكرية.

ربما كانت هذه المجموعة الخزفية جزءاً من ملفات محاضر هذه القضية. أما الأجزاء الباقية فقد كتبت على ورق البردي الذي التهمته النيران فيما بعد.

إن تفسيراً واضحاً ومعقولاً للوثائق القديمة غالباً ما يكون شاقاً وصعباً، ويجب أن يبني جزء منه على الحدس والتخمين، ولكن سواء أكان استنتاج البروفسور توررسينر صحيحاً كلية أم لا فإن الأسماء واللغة والكثير من التفاصيل الدقيقة تعكس الحالة التي كان تسود البلاد عندما كتب إرميا تحذيراته.

إن لهذه الوثائق طابعاً إنسانياً خاصاً إلى جانب كونها وثائق ذات صبغة رسمية، لأن معظم الوثائق الرسمية القديمة التي تم العثور عليها ذات صبغة رسمية أو دينية أو تجارية، ولكن هذه الرسائل تعالج أيضاً قضية شخصية، وقد ثبت بما لا يقبل الجدل بأنها ترجع إلى أواخر عهد مملكة يهوذا، لأن الرماد الذي طمرها يرجع لآخر خراب حل بلاخيش التي لم تقم لها بعده قائمة، بالرغم من أنها استعملت عدة مرات فيما بعد مركز إدارة.

إن مستوى الحضارة الذي تدنى إلى الحضيض في فلسطين واستمر طوال العصور الثلاثة التالية يجعل من العسر جداً على علم الآثار أن يعثر على أدلة أثرية قاطعة، لأن حياة المدن قاست الأمرّين من شدة التأخر والانحطاط، وأن مدناً في هذا المستوى من التدهور والتأخر وقلة الأبنية لا تستطيع ان تقدم أي دليل أثري، زد على ذلك أن الأبنية اللاحقة ساعدت على زيادة الحالة سوءاً وتعقيداً.

عندما سقطت القدس انتقل مركز إدارة المنطقة التي أصبحت مقاطعة بابلية إلى مزبه. وإذا كانت مزبه هذه هي تل النصبة الحديثة فإننا نستطيع أن نقدر هول الضربة التي نزلت بحياة المدن في فلسطين. لقد تم العثور على عدد من الأشياء الأثرية التي يرجع تاريخها إلى فترة ما بعد السبي أهمها قوالب صنع الجرار. أما الأبنية الهامة التي ترجع لهذه الفترة فلم يعثر عليها قط. وقد لاحظ علماء الآثار أن حياة جميع الأماكن التي استمر عمرانها في فلسطين سارت على وتيرة واحدة من التأخر والانحطاط، وعاش معظم السكان الذين نجوا من السبي في قرى صغيرة لم يصلها الدمار. عاش هؤلاء السكان طوال حياتهم دون أن يضيفوا شيئاً هاماً إلى صرح تاريخهم، وسبب ذلك هو دون شك أن الذين نجوا من السبي كانوا من الفلاحين المتأخرين. ومن الأسباب الهامة الأخرى امتزاج هؤلاء اليهود بكثير من المهاجرين الذين جلبهم الآشوريون والبابليون من بلدان أخرى. وبذا تفتتت الحضارة اليهودية المتجانسة دون أن تكون هناك قوة كافية توحد وتبني حضارة جديدة كتلك التي كانت قائمة قبل السبي في سنة ٥٤٠ ق.م. انتصر الفرس بقيادة قورش على بابل وضموا أملاكها إلى إمبراطوريتهم. وقد اتبع الفرس سياسة التسامح نحو الحضارات والديانات القومية الخاصة باتباعهم. وقد أدت هذه السياسة إلى تحسين وضع اليهود كثيراً عما كان في السابق. ففي خلال المابة سنة التي تلت سقوط بابل عادت بعض فئات اليهود من السبي، وأخذت تعمل جاهدة تحت قيادات متعاقبة تدفعها الروح الدينية على استرداد القدس. وفي سنة ٥٢٠ ق.م. استطاع زر بابل أن يعيد بناء الهيكل وفي سنة ٤٤٤ ق.م. أعاد نحميا بناء أسوار المدينة، ولكن في هذه الفترة كان تجانس الشعب اليهودي قد اختل ميزانه كثيراً لدرجة صعب معها جداً على قادة اليهود تكوين مملكة جديدة موحدة حتى ولو سمح لهم وساعدهم الفرس على ذلك. ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن كثيراً من اليهود فضل البقاء في بابل وسط أضواء الحضارة الباهرة على القدوم إلى فلسطين. أما أولئك الذين عادوا

إلى البلاد فقد عاشوا على الدوام وسط أقوام وشعوب تكن لهم العداء الشديد، لأن اليهود أظهروا احتقاراً لتلك الشعوب ووصفوها بالشعوب ذات الدم المختلط. وقد جرت العادة أن تصف كل فئة جديدة عائدة من بابل سابقتها بهذه الصفة وتحتقرها لتزاوجها مع غيرها من الشعوب. وكانت الفئات السابقة تكره ادعاء العائدين من السبي وادعاء أحفادهم من بعدهم بأنهم هم اليهود الحقيقيون، وأنهم لا سواهم أتباع الديانة اليهودية الصحيحة وأصحاب شريعة موسى. وقد أدى هذا التنافر والكره بين اليهود إلى ظهور الانشقاق السامري، فقام نحميا وطرد منسي حفيد الكاهن الأعظم ايلياشب متهماً إياه بالسماح لعشيرته بمصاهرة الشعوب المختلطة الدم. فذهب منسي إلى السامرة فاستقبله حاكمها سنبلط بالترحاب وبنى له هيكلاً على جبل جرزيم منافساً لهيكل القدس. وهنا اتسعت شقة الخلاف وازدادت العداوة بين اليهود بإضافة المنافسة الدينية إلى المنافسة العنصرية التي قام عليها الخلاف الذي ما زال مستمراً حتى وقتنا الحاضر.

وفي السنوات ١٩٦١-١٩٦٧ تم العثور في القدس على أدلة حية تشير إلى المقارنة بين القدس زمن مملكة يهوذا وبينها بعد السبي، ولكن هذه الحفريات عجزت عن العثور على أي أثر للهيكل الذي بناه زربابل كما أقرت بعجزها هذا إلى الأبد.

لقد تمت هذه الحفريات أسفل المنصة العظيمة التي بناها هيرودوس الكبير لإقامة هيكله فوقها. ويقوم فوق هذه المنصة اليوم الصرح الإسلامي العظيم وهو قبة الصخرة المشرفة. أما الخطوط العريضة لمدينة نحميا فقد أخذت الآن شكلاً واضحاً. ففي المساحة التي تم حفرها في المنحدرات الشرقية المواجهة لجبل الزيتون تشير الدلائل إلى أن الأنقاض تستر تحتها أبنية القرن السابع وبداية القرن السادس ق.م. كما تدل على الأثر العظيم الذي أحدثته عوامل التحات والتعرية من انجرافات عظيمة تلت انهيار السلاسل الاستنادية التي كانت تقام عليها البيوت. وقد كانت

هذه جميعها هي التي واجهت نحميا عندما تفرس في مواقع المدينة هادفاً إلى فحص أسوارها الممتدة مع امتداد الأودية الشرقية، وبعد أن فكر ملياً قال (نحميا ٢-١٤) وعبرت إلى باب العين وإلى بركة الملك ولم يكن مكان العبور البهيمة التي تحتي.

لم تكن آثار القدس آنذاك تدعو لليأس فقط بل كانت المدينة نفسها التي اجتاحها نحميا للبقية من اليهود العائدين من السبي أصغر بكثير من تلك المدينة التي كانت قائمة زمن الملكية.

بدأ نحميا بناء الأسوار على قمة التل. وقد تنسب أحياناً هذه الأسوار خطأً إلى فترة سابقة. وقد أثبتت الحفريات تراكم أكوام القمامة التي ترجع للقرنين الخامس والرابع ق.م. عند قواعد هذه الأسوار.

لقد تقلصت كثيراً مساحة مدينة القدس التي بنيت في فترة ما بعد السبي، واقتصرت فقط على قمة الهضبة الشرقية، لأن الحصن الذي نسب في السابق إلى داود أصبح من الواضح الآن أنه بني زمن المكابين لتعزيز أسوار نحميا، وذلك عندما حاول الحكام الحسمونيون إقامة مملكة يهودية جديدة. أما التحصينات الدفاعية التي أقيمت في الجهة الغربية من الهضبة والتي استعملها المكابيون دون شك فتدل عليها البوابة الضخمة التي عثر عليها أثناء الحفريات التي تمت سنة ١٩٢٧م. وقد دلت حفريات الأعوام ١٩٦١-١٩٦٧ بما لا يدع مجالاً للشك على أن الأسوار التي كانت قائمة حول الهضبتين لم يكن لها وجود في فترة الملكية أو فترة ما بعد السبي. بل هي ترجع فقط إلى فترة هيرودس غرباً حوالي (٤٠-٤٤ ق.م.).

لم يعثر المنقبون في هذه الحفريات على أي أثر للاستيطان في الطرف الجنوبي والغربي من الهضبة يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ أما الطرف الشمالي من الهضبة الغربية فقد كان داخل المدينة زمن المكابيين.

إن كل ما استطاعت الحفريات العثور عليه عبارة عن عدد قليل من الأبنية التي كانت تستعمل مراكز إدارة للبابليين أو الفرس. وقد كانت هذه الأبنية على درجة كافية من المتانة والقوة بحيث استطاعت أن تقاوم عاديات الزمن في الفترات اللاحقة، وأهم هذه الأبنية هو البناء الذي لا يزال قائماً في لاخيش.

بني هذا البناء على أنقاض قلعة القصر التي بنيت في الفترة اليهودية على مرتفع من الأرض أعلى من المستوى المحيط به. وقد أكسب البناء الجديد هذا المرتفع قوة وصلابة، وخاصة عندما أحيط برصيف ترابي عكس المتبع تماماً في الأبنية الرسمية في البلاد.

يتكون البناء من ساحة واسعة يحيط بها من جانبيها صفوف من الغرف وتحيط الأروقة بالجانبين الآخرين، وقد رفعت أرض الأورقة المنخفضة حتى أصبحت أعلى من مستوى أرض الساحة. تؤدي هذه الأروقة إلى قاعة عظيمة ممتدة بعرض الساحة، يوجد في نهاية القاعة باب يؤدي إلى غرف ومكاتب خاصة. أما القاعة فقد أعدت لاستقبال الجمهور، أما الغرف المحيطة بجانبي الفناء فكانت مكاتب إدارة، أما تلك التي في نهاية القاعة فقد أعدت لسكن الحاكم. ومن الجدير بالذكر أن سقوف غرف هذا البناء كانت بشكل عقود عكس ما كانت عليه سقوف الأبنية في فترة ما قبل السبي، حيث كانت جميعها مسطحة ومستوية. وقد لاحظ المنقبون أن قسماً من هذه السقوف قد أعيد بناؤه عندما تهدم، مما يدل على أن حجارة العقد (يسميها البعض الريش والصنجات) كانت توضع بشكل مائل. وقد تم العثور على أفضل نموذج لهذا النوع من البناء في أرسلان طاس في شمال سوريا، وهذا يدل على الصبغة العالمية التي كانت تصطبغ بها الإمبراطورية الفارسية.

إن تاريخ لاخيش هو نموذج لتاريخ المدن الأخرى في فلسطين، وقد بقيت هذه المدينة طوال قرن من الزمن قفراً يباباً بعد أن خربها البابليون ثم أعيد بناؤها ثانية

ورممت حصونها وأصبحت مركزاً من مراكز الإدارة. وفي هذه الفترة بنيت فقط المباني والبيوت الضرورية للموظفين، أما بيوت عامة الشعب فكانت قليلة وحقيرة.

لم تكن لاخيش مركز إدارة يهوذا فقط بل لمقاطعة ايدوميا الجديدة أيضاً، مما يدل على كيفية تسرب الأدوميين وغيرهم من الشعوب النصف بدوية إلى فلسطين أثناء ضعفها.

لقد عثر المنقبون في تل جمة على بناء شبيه بأبنية ما بعد السبي، ولكنه يختلف عنها بهندسته. كان هذا البناء ضخماً جداً ويحيط بقاعة طويلة وضيقة من جهاتها الثلاثة. وقد لاحظ المنقبون هنا قلة البيوت الخاصة، وقد عثر في مجدو الواقعة في المقاطعة الشمالية من السامرة والتي خلفت مملكة إسرائيل على بناء شبيه جداً ببناء تل جمة. وقد أرجع علماء الآثار هذا البناء إلى الطبقتين الثانية والأولى، ومن سوء الحظ كانت المستويات العليا قد تأثرت كثيراً بعوامل التحات والتعرية، مما جعل تاريخها الحقيقي غير مؤكد، ولكن من المحتمل جداً أنه كان إلى جانب هذا البناء أو القلعة مدينة تمتد فوق قسم من ساحة المدينة القديمة تتكون من بيوت صغيرة وحقيرة، أما العقود المنتظمة التي نسبت لفترة الآشوريين فلم يعثر لها على أثر. لقد كان الموقع بالحقيقة قرية وليس مدينة، وقد استمر إعماره حتى منتصف القرن الرابع ق.م. حيث هجر تماماً قبل بداية الفترة الهلينية، وهنا ينتهي تاريخ مجدو.

لقد دلت الحفريات الأثرية على انحطاط الحياة المدنية في السامرة أيضاً؛ تلك المدينة التي أصبحت مركز إدارة بعد سقوطها بيد آشور، ولكن المنقبين لم يعثروا على أبنية حكومية في المساحة التي تم حفرها، بل عثروا على بقايا بعض الأبنية الحقيرة التي أنشئت على قمة التل والتي يرجع تاريخها للقرنين السابع والسادس ق.م. ويعتقد العلماء أن الكثير من طرز هذه الأبنية قد تلف نتيجة الأبنية اللاحقة المتعاقبة.

وأوضح دليل يشير إلى أن المكان لم يعمر تماماً ثانية يرجع إلى بداية القرن الخامس عندما تحولت قطعة من الأرض أبعادها ٥٠ × ٤٥ متراً، تقع على قمة التل إلى حديقة جميلة، ففي هذه المساحة أزيلت جميع الجدران القديمة وسويت الأرض تماماً بعد إزالة الحجارة والأنقاض عنها. ثم وضعت فوقها طبقة من التراب اللزج ذي اللون الداكن يبلغ سمكها حوالي ٢٥ سم. وقد وجد هذا النوع من التراب في الفجوات الواقعة بين صخور السامرة وعلى سفوح التلال المحيطة بها. ويظن أنه جمع هناك خصيصاً لاستعماله في خصوبة الأرض. وقد قال عنه العاملون في الحفر أنه من أجود أنواع التربة، وقد حملوا قسماً منه عند عودتهم إلى بيوتهم لاستعماله في حدائقهم وبساتينهم الخاصة.

أما التعليل الوحيد لتجهيز هذه المساحة بالشكل الذي سبق وصفه هو لجعلها حديقة خاصة بنيت للحاكم الفارسي الذي يقع في المنطقة الشرقية منها والتي لم تحفر بعد.

إن الآثار العمرانية التي ترجع لهذه الفترة التي سبقت الفترة الهيلينية قليلة جداً. وقد تم العثور أثناء سبع عمليات حفر متوالية على تسع قطع من النقود ترجع إلى ما قبل عام ٣٠٠ ق.م. أما الفخار وغيره من المواد الأثرية التي تم العثور عليها فقليلة جداً، ولكن المنقبين عثروا على مجاميع من البيوت منعزلة عن بعضها البعض، وترجع إلى هذه الفترة، وقد دلت آثارها على أن هذه البيوت كانت معمورة طوال هذه الفترة. وعند مقارنتها بآثار الفترات السابقة واللاحقة يتبين لنا مستوى التأخر والانحطاط الذي بلغته الحياة في هذه الفترة.

يتضح مما سبق ضآلة الدور الذي لعبته المدن الإسرائيلية في تاريخ البلاد إبان الحكم البابلي والفارسي، وقد تم العثور على كثير من السندات البسيطة عن حضارة فلسطين في هذه الفترة في أماكن قليلة الأهمية. ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هذه الأماكن يقع في الحزام الساحلي.

لقد أعادت الإمبراطورية الفارسية توحيد عالم شرقي البحر المتوسط لدرجة لم تعرفها البلاد منذ نهاية العصر البرونزي الحديث، وأصبح باستطاعة المرء أن يجد ثانية فخاراً وأشياء أخرى في فلسطين وسورية شبيهة بتلك التي يجدها في مصر وقبرص وبلاد اليونان. وبذا عادت مدن الساحل الفلسطيني إلى سابق علاقاتها التجارية مع بلدان شرقي البحر المتوسط، بينما بقيت مدن القسم الجبلي في الداخل متأخرة ومنحطة.

لقد عاد العمران ثانية إلى تل أبو حوام الواقع عند أسفل سفوح الكرمل قرب حيفا بعد أن ظل مهجوراً منذ أن دمر في نهاية القرن العاشر ق.م.، ولكن الهندسة الجديدة لم تكن على درجة من العظمة والروعة، لأن المكان لم يتعد القرية البسيطة، ولكن وجدت فيه المزهريات الكورنثية والأتكية التي ترجع في تاريخها للقرن السادس حتى مطلع القرن الرابع ق.م.

وقد لاحظ العلماء أن بعض أنواع هذا الفخار رديء وذا صلة بالفخار الفينيقي، وتؤكد الآثار الفينيقية واليونانية على مدى مساهمة حضارة هاتين الأمتين في الحضارة العالمية لهذه الفترة.

أما في عتليت الواقعة قرب حيفا فقد تم العثور تحت القلعة الصليبية على قبور يرجع تاريخها للقرنين الخامس والرابع ق.م. وقد عثر بداخلها على نقود فينيقية وعدد من الجعران المصرية وعلى الكثير من الفخار اليوناني، وقد لاحظ العلماء مدى مساهمة الحضارة المصرية في الحضارة العالمية لهذه الفترة، وذلك لكثرة الجعران والحلي المصرية التي تم العثور عليها.

أما في تل جمة فقد عثر المنقبون على كثير من الفخار اليوناني الذي يرجع تاريخه للقرن السادس ق.م. مما يوحي بقيام مستعمرة يونانية في هذا المكان، كما عثروا على آثار أخرى في عسقلان والطنطورة الواقعتين على ساحل البحر.

أما في تل فارة فقد عثروا على عدد من الأدلة التي تلقي ضوءاً على العلاقات التي كانت قائمة مع بقية أجزاء الإمبراطورية الفارسية، فقد عثروا داخل قبر على أشياء تحمل صفات فنية تتكون من سرير وكرسي. ويدل على حقيقة صنعها لتصديرها إلى الأسواق السورية وجود كتابة عبرية عليها ترجع للقرن الخامس تدل على العناصر المختلفة الداخلة في صنع هذه الأشياء.

كانت المقلاة ذات طابع سوري، أما الطاسة فقد وجد شبيه بها في دلتا مصر وفي مدينة سوسة في العراق.

أما في جازر فقد تم العثور على قبور ترجع لنفس الفترة. وقد عثر بداخلها على أشياء تدل على نفس الروابط الحضارية التي تربط بلدان شرقي البحر المتوسط معاً.

لقد دل هذا الفصل على بعض مميزات حضارة فترة ما بعد السبي وما قبل الفترة الهلينية في فلسطين. وقد اتضح منه أن الحضارة اليهودية لم تكن على جانب من الأهمية والفن، ولكنها كانت متجانسة تمتاز بالحياة المدنية الخلاقة. وقد بقيت هذه الصفة ملازمة حتى تاريخ السبي، وبعدها آلت الحضارة إلى التدهور والانحطاط وفقدت كل مميزاتها الخاصة. وكل ما شيدته من أبنية في هذه المرحلة لا يتعدى كونه أبنية حكومية بنيت لأجل الإدارة الفارسية. أما القبور الفنية القليلة التي تم العثور عليها فهي خاصة بأفراد الطبقة الحاكمة.

ويبدو أنه لم تشيد المدن الكبيرة إلى جانب هذه المراكز الإدارية، بل كان هنالك عدد قليل من المدن الصغيرة والقرى. وقد عثر العلماء على أدلة في المناطق الساحلية تشير إلى أن فلسطين قد عادت ثانية إلى علاقاتها التجارية مع جيرانها من بلدان شرقي البحر المتوسط، وخاصة بلاد اليونان. وقد مهدت تلك العلاقات الطريق إلى ضم آسيا الصغرى إلى الإمبراطورية الهلينية، وبذا عادت الحياة المدنية إلى سابق تقدمها وازدهارها.

المحتويات